E.O. CHIROVICI

إي. أو. تشيروفيتشي

THE BOOK OF MIRRORS

كتاب المرايا

الذكريات قد تكون قاتلة

عصير الكتب

مكتبة
t.me/soramnqraa

ترجمة: هديل عبد السلام

سجل في مكتبة

اضغط الصفحة

SCAN QR

كتاب المرايا

عصير الكتب

عصير الكتب
للنشر والتوزيع

إدارة التوزيع
00201150636428

لمراسلة الدار:
email:P.bookjuice@yahoo.com
Web-site: www.aseeralkotb.com

- العنوان الأصلي:
THE BOOK OF MIRRORS
- العنوان العربي: كتاب المرايا
- حقوق النشر:
Copyright © RightsFactory SRL 2017
- الطبعة الأولى: يناير/ 2025م
- حقوق الترجمة: محفوظة لدار عصير الكتب
- تأليف: إي. أو. تشيروفيتشي
- ترجمة: هديل عبد السلام
- تحرير: أحمد حسين
- تدقيق لغوي: أحمد حسين علام
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي
- رقم الإيداع: 2024/27519م
- الترقيم الدولي: 978-977-992-463-2

مكتبة
t.me/soramnqraa

E.O. CHIROVICI

إي. أو. تشيروفيتشي

THE BOOK OF MIRRORS

كتاب المرايا

مكتبة
t.me/soramnqraa

ترجمة: هديل عبد السلام

عصير الكتب

معظم الناس أُناسٌ آخرون.

أوسكار وايلد

الجزء الأول
بيتر كاتز

الذكرياتُ كالرصاصات. بعضُها تمرُّ بجانبك، لتُرعبك بطنينها فحسب. والبعضُ الآخر يمزِّقك، ويتركك أشلاء.

ريتشارد كادري، «اقتل الموتى»

مكتبة
t.me/soramnqraa

تلقيتُ العمل المُرسَل في شهر يناير، بينما جميع مَن في الوكالة لا يزالون يحاولون التعافي من آثار فترة الأعياد. وتفادت الرسالة صندوقَ البريد العشوائي ببراعة، وظهرت في بريدي الوارد، حيث أصبحتُ جزءًا من قائمة انتظار بصُحبة بضع عشرات من الرسائل الأخرى. ألقيتُ نظرةً على الرسالة فوجدتها مشوِّقة، لذا طبعتُها مع صفحات المخطوطة الجزئية المرفقة، ووضعتُها في درج مكتبي. ونسيتُ أمرها حتى قُرب نهاية الشهر في خضم انشغالي بإتمام صفقة. أعدتُ اكتشافَ الأوراق مجددًا، في العطلة المطوَّلة لنهاية الأسبوع احتفالًا بيوم مارتن لوثر كينج، ملقاةً وسط كومةٍ من الأعمال المرسلة التي خططت لقراءتها خلال العطلة.

وُقِّعَت الرسالة باسم «ريتشارد فلين» وجاءت كالتالي:

عزيزي بيتر،

اسمي ريتشارد فلين، وتخرجت في جامعة برينستون بتخصص في الأدب الإنجليزي قبل سبعة وعشرين عامًا. حلمتُ بأن أصبح كاتبًا، ونشرتُ بعض القصص القصيرة في المجلات، حتى إنني كتبتُ رواية من ثلاثمائة صفحة، لكنني تخلَّيت عنها بعد أن رفضها عددٌ من

الناشرين (أنا نفسي صرتُ الآن أراها عادية ومملة). بعد ذلك حصلتُ على وظيفة في وكالة إعلانات صغيرة في نيوجيرسي، وبقيتُ في هذا المجال حتى اليوم. في البداية، أوهمتُ نفسي بأن الإعلانات يمكن ربطها بالأدب، وأنني سأعودُ يومًا ما لأصبحَ كاتبًا. ومن الواضح أن شيئًا من هذا لم يحدث. أعتقدُ أن النُّضج بالنسبة لمعظم الناس يعني -مع الأسف- اكتساب القدرة على سجن أحلامهم داخل صندوق، ومن ثَمَّ إلقاؤه في نهر إيست. ويبدو أنني لم أكُن استثناءً لهذه القاعدة.

ولكنني اكتشفتُ شيئًا مُهمًّا قبل بضعةِ أشهر، أعادَ إلى ذاكرتي سلسلةً من الأحداثِ المأسوية التي وقعت في خريف وشتاء عام 1987، الذي كان عامي الأخير في برينستون. تعرفُ كيف يسيرُ الأمر غالبًا: تظنُّ أنك نسيتَ شيئًا –حدثًا، أو شخصًا، أو موقفًا– ثم فجأة تدركُ أن الذكرى تقبعُ في غرفة سرية ما في ذهنك، وظلَّت دائمًا هناك، كما لو أنها حدثت بالأمسِ فحسب. يشبهُ الأمر فتح خزانة قديمة ملأى بالخُردة، وكل ما عليكَ فعله هو تحريك صندوق واحد، لينهار كل شيءٍ متحطمًا فوقك.

وهذا الشيء مثل صاعق التفجير. فبعد ساعة من اكتشافي للخبر، كنت لا أزال أفكر في فحواه. وجلستُ على مكتبي، مُثخنًا بالذكريات، وكتبت. الوقت كان متأخرًا بعد منتصف الليل عندما توقفتُ عن الكتابة. وكنتُ قد كتبت أكثر من خمسة آلاف كلمة. الأمر أشبه

باكتشافي لذاتي مجددًا، بعد أن كنتُ نسيتُ نفسي تمامًا. فحين ذهبت إلى الحمام لتنظيف أسناني، بدا لي كما لو أنَّ شخصًا مختلفًا ينظر إليَّ من المرآة.

ولأول مرة منذ سنواتٍ عديدة، نمتُ دون تناول حبة مهدئ. وواصلتُ الكتابة في اليوم التالي، بعد أن أخبرتُ زملائي في الوكالة أنني سأكون في إجازة مرضية لمدة أسبوعين.

عادت تفاصيل تلك الأشهر من عام 87 إلى ذهني بقوة ووضوح لدرجة أنها سرعان ما أصبحت أكثر سطوعًا وقوة من أي شيء آخر في حياتي الحالية. كما لو أنني استيقظتُ من سُباتٍ عميق، استعدَّ عقلي خلاله بصمت للَّحظة التي سأبدأ فيها سردَ أحداثٍ أبطالُها: لورا باينز، والبروفيسور جوزيف ويدر، وأنا.

نظرًا لنهايتها المأسوية، بالطبع، وجدت القصةُ طريقها إلى الصُّحف في ذلك الوقت، على الأقلّ جزئيًّا. لقد تعرَّضتُ بدوري للمضايقة لفترة طويلة من قِبل محققي الشرطة والصحفيين. وكان ذلك واحدًا من العوامل التي دفعتني إلى مغادرة برينستون، ومتابعة دراستي العُليا في جامعة كورنيل، حيث قضيتُ سنتين طويلتين غابرتين في إيثاكا. لكن لم يعرف أحدٌ قط الحقيقة الكاملة للحكاية، الحكايةُ التي غيَّرت حياتي إلى الأبد.

كما قلت، تعثَّرتُ بالحقيقة منذ ثلاثة أشهر، وأدركتُ أنَّ عليَّ مشاركتها مع الآخرين، رغم أن الغضب والإحباط اللذين شعرتُ وما زلتُ أشعر بهما، كانا ساحقين. لكن أحيانًا يمكن للكراهية والألم أن يكونا وقودًا قويًّا مثل الحب. ونتج عن ذلك، المخطوطة التي أنهيتُها مؤخرًا بعد جهدٍ تركني مستنزَفًا جسديًّا وعقليًّا. أرفقتُ عينة، وفقًا للتعليمات التي وجدتها على موقعك. والمخطوطة كاملة، وجاهزة للتقديم. إذا كنت مهتمًّا بقراءة الكتاب كاملًا، سأرسلهُ إليك على الفور. والعنوان الذي اخترته للكتاب هو «كتاب المرايا»

سأتوقف هنا، لأن اللابتوب الخاص بي يشيرُ إلى أنني بالفعل قد تجاوزتُ حدَّ الـ 500 كلمة لرسالة الاستعلام. على أيِّ حال، لم يبقَ الكثير لأقولهُ عن نفسي. لقد ولدتُ ونشأتُ في بروكلين، ولم أتزوَّج قط، ولم يكن لي أطفال، جزئيًّا على ما أعتقد، لأنني حقًّا لم أنسَ لورا. لدي أخ: «إيدي»، يعيشُ في فيلادلفيا، ولا أراهُ إلا نادرًا. كانت مسيرتي في الإعلانات خالية من الأحداث، وبلا إنجازاتٍ مدهشة، ولا حوادث مأسوية- حياةٌ رمادية لامعة، مخفيَّة بين ظلال بابل. وحاليًّا، أنا كاتب نصوص أوَّل في وكالة متوسطة مقرُّها مانهاتن، بالقرب من تشيلسي، حيثُ عشتُ لأكثرَ من عقدين. لا أقود بورش، ولا أنزلُ في فنادق خمسة نجوم، لكنني لا أقلقُ بشأن ما سيحمله الغد، على الأقل عندما يتعلَّق الأمرُ بالمال.

شكرًا لوقتك، وأرجو أن تخبرني إذا كنت ترغبُ في قراءةِ المخطوطة الكاملة. ستجدُ عنواني ورقم هاتفي أدناه.

المُخلص:

ريتشارد فلين.

مكتبة
t.me/soramnqraa

تبع ذلك عنوان قريب من محطة بن. وكنتُ أعرف المنطقة جيدًا، بما أنني كنت قد سكَنتُ هناك لفترة من الزمن.

كانت رسالةُ الاستعلام غير معتادة نسبيًّا.

لقد قرأتُ المئات، إن لم يكن الآلاف، من رسائل الاستعلام خلال سنواتي الخمس كوكيل في شركة برونسون وماترز، التي بدأتُ عملي فيها مساعدًا مبتدئًا، واتَّبعت دائمًا سياسة قبول الأعمال المرسلة. ومعظم رسائل الاستعلام كانت مُحرجة، ورتيبة، وتفتقرُ إلى ذلك الشيء الذي يوحي بأن الكاتب المحتمل يتحدَّث إليك شخصيًّا، وليس فقط إلى أي من المئات من الوكلاء الذين يمكنك العثور على أسمائهم وعناوينهم في دليل سوق الأدب. وبعضُها كان طويلًا للغاية، ومليئًا بالتفاصيل غير الضرورية. لكن رسالة ريتشارد فلين لم تقع في أيٍّ من هاتين الفئتين. فهي مُختصرة، ومكتوبة بشكلٍ جيد، والأهم من ذلك كله أنها تُشعُّ بالدفء الإنساني. لم يقُل: إنه لم يتواصل مع غيري، لكنني كنتُ شبه متأكد، بلا سببٍ معين أن هذا هو الحال. لقد اختارني لسببٍ ما لم يَرَ أنه من اللائق التصريح به في تلك الرسالة المقتضبة.

كنتُ آمل أن أحبَّ المخطوطة كما أحببتُ رسالة الاستعلام، وأن أتمكَّن من تقديم رد إيجابي للرجل الذي أرسلها، وهو رجلٌ شعرتُ تجاهه بتعاطفٍ خفيٍّ لا يمكنُ تفسيره.

وضعتُ المخطوطات الأخرى التي كنتُ أنوي قراءتها جانبًا، وأعددتُ بعضَ القهوة، ثم استقررتُ على الأريكة في غرفة المعيشة، وبدأتُ قراءةَ المقتطف.

واحد

بالنسبةِ لمعظم الأمريكيين، كان عام 1987 هو العام الذي حلَّقت فيه أسعار الأسهم إلى عنان السماء قبلَ أن تنهارَ مجددًا، واستمرت فضيحة إيران-كونترا في زعزعة عرش رونالد ريجان في البيتِ الأبيض، كما بدأ مسلسل (ذا بولد آند ذا بيوتيفول The Bold and The Beautiful) في غزوِ منازلنا. أما بالنسبة لي، فكان هذا هو العام الذي وقعتُ فيهِ في الحب، واكتشفتُ أنَّ الشيطان موجود.

كنت طالبًا في جامعة برينستون لمدة ثلاث سنواتٍ ونيف، وأقمتُ في مبنى قديم وقبيح يقعُ على شارع بايارد، بين متحف الفن ومكتبة المعهد اللاهوتي. وتكوَّن من طابق أرضي يضمُّ غرفة معيشة ومطبخًا مفتوحًا، وطابقًا علويًّا به غرفتيْ نوم مزدوجتين، وملحقٌ بكل منهما حمَّام خاص. وكان المبنى على بُعدِ عشر دقائق فقط سيرًا على الأقدام من قاعة ماكوش، حيثُ حضرتُ معظم محاضراتي في اللغة الإنجليزية.

في أحد مساءات أكتوبر، حين عُدتُ إلى المنزل ودخلتُ إلى المطبخ، فوجئت بوجود شابة طويلة ورشيقة لها شعرٌ أشقر طويل، ومفروقٌ من المنتصف. نظرت إليَّ بلطف من خلف نظاراتها ذاتِ الإطارِ السميك،

والذي أضفى عليها مظهرًا جادًّا وجذابًا في الوقت نفسه. كانت تحاول ضغط الخردل من الأنبوب دون أن تُدرك أنه عليها أوَّلًا إزالةُ الغطاءِ المعدني. فقُمت بفتح العبوة، وأزلتُ الغطاء المعدني، ثم أعدتُ لها الأنبوب. شكرتني وهي تعصرُ المعجون الأصفر فوق الهوت دوج الكبير الذي طهته للتو.

قالت بلكنةٍ مميزة جلبتها معها من الغرب الأوسط، والتي بدا أنها لم ترغب في التخلُّص منها من أجل مواكبة الموضةِ فحسب: «شكرًا لك، تريدُ بعضًا منه؟».

- لا، أشكرك. بالمناسبة، أنا ريتشارد فلين، هل أنتِ المستأجرة الجديدة؟

أومأت. وكانت قد التهمت قضمةً كبيرة من الهوت دوج، فحاولت ابتلاعها بسرعة قبل أن تفتح فمها للرد.

- لورا باينز، سعيدة بلقائك. هل كان المستأجر السابق يربِّي ظربانًا أو شيئًا من هذا القبيل؟ شعيرات أنفي تكادُ تتساقط من الرائحة! أحتاجُ لطلاءِ المكان على أي حال. وهل هناك مشكلةٌ ما في السخان؟ اضطررتُ إلى الانتظار نصف ساعةٍ كاملة حتى يسخُن الماء!

وضَّحتُ لها: «مدخِّن شره. أعني المستأجر، وليس السخان، ولم يكن يدخِّن السجائر فحسب، إذا كنتِ تفهمين ما أعنيه. ولكن بخلاف ذلك، فهو رجل لطيف. لقد قرَّر بين عشية وضحاها أن يأخذ إجازة، فعاد إلى موطنه. ولحسن حظه أن المالكة لم تُجبره على دفع الإيجار للعام كاملًا. أما بالنسبة للسخان، فقد حاول ثلاثة سبَّاكين مختلفين إصلاحه بلا جدوى، لكني ما زلتُ أعيش على الأمل».

قالت لورا مخاطبةً المستأجر السابق، بينما تتناول قضمة أخرى من الهوت دوج: «پون ڤوياج».

ثم قالت وهي تشير نحو الميكروويف على منضدة المطبخ: «أُعِدُّ بعضَ الفشار، وبعد ذلك سأشاهدُ التلفزيون- هناك عرض مباشر لجيسيكا على سي. إن. إن».

سألتها: «ومَن تكون جيسيكا؟».

أصدر الميكروويف صفارته معلنًا أن الفشار صارَ جاهزًا، ليُصبَّ في الوعاء الزجاجي الكبير الذي استخرجته لورا من أعماق الخزانة التي فوق الحوض.

شرحت: «جيسيكا ماكلور هي فتاة صغيرة سقطت في بئر في تكساس، وسي. إن. إن. تبثُّ عملية الإنقاذ مباشرةً. كيف لم تسمع عنها؟ الكلُّ يتكلم عن هذه الحادثة».

وضَعَت الفشار في الوعاء، وأشارت إليَّ لأتبعها إلى غرفةِ المعيشة.

جلسنا على الأريكة بينما شغلت التلفزيون. وبقينا صامتين لبعض الوقت نشاهد الأحداث تتكشَّفُ على الشاشة. كانت أجواءُ أكتوبر لطيفة ودافئة، إذ لم يشهد الأمطار المعتادة في هذا الوقت من العام. وتسلل الغسقُ الهادئ عبر الأبواب الزجاجية. ومن خلفها تراءى المتنزه الذي يحيط بكنيسة ترينيتي مظلمًا وغامضًا.

انتهت لورا من أكل الهوت دوج، ثم غمست يدها في الوعاء، وتناولت حفنة من الفشار. وبدا وكأنها قد نسيت وجودي تمامًا. وعلى شاشةِ التلفزيون، مهندسٌ ما يشرح لمراسل كيف يجري العمل لحفر بئرٍ موازية، مصمَّمة لتمكين فرق الإنقاذ من الوصول إلى الطفلة العالقة تحت الأرض. خلعت لورا نعليها، وطوت قدميها من تحتها على الأريكة. ولاحظتُ أن أظفار قدميها مطلية بلون أرجواني.

سألتها أخيرًا: «ما مجالُ دراستك؟».

قالت دون أن تُبعِد عينيها عن الشاشة: «أُحضِّر الماجستير في علم النفس. إنه الماجستير الثاني لي. لديَّ واحدٌ بالفعل في الرياضيات من جامعة شيكاغو. وُلدتُ ونشأتُ في إيفانستون، إلينوي. هل سبق لك زيارتها؟ حيث يمضغ الناس تبغ ريدمان، ويحرقون الصُّلبان؟».

أدركتُ أنها ربما تكبرني بعامين أو ثلاث، وقد أخافني ذلك قليلًا. حين تكون في هذا العمر، يبدو فارق السنوات الثلاث كبيرًا بعض الشيء.

قلت: «كنت أظن أن هذا يحدثُ في ميسيسيبي. لا، لم يسبق لي زيارة إلينوي قط. فقد وُلدت ونشأت في بروكلين. لقد زُرت الغرب الأوسط مرة واحدة فقط، في صيفٍ ما، عندما كنتُ في الخامسة عشرة، على ما أعتقد، حيث ذهبت مع والدي في رحلةٍ لصيد السمك في جبال أوزارك، في ميسوري. وإذا كنت أتذكَّر بشكل صحيح فقد زرنا أيضًا سانت لويس. ولكن، علم النفس بعد الرياضيات؟».

قالت: «حسنًا، كانوا يعتبرونني نوعًا من العباقرة في المدرسة. ففي الثانوية، فزتُ بجميع أنواع المسابقات الدولية للرياضيات، وعندما كنت في الحادية والعشرين، كنت قد انتهيتُ بالفعل من درجة الماجستير، وأستعدُّ للحصول على الدكتوراه. لكنني رفضتُ جميع المنح الدراسية، وجئتُ إلى هنا لدراسة علم النفس. وقد ساعدتني شهادةُ الماجستير في الانضمام إلى برنامج بحثي».

- حسنًا، لكنك لم تجيبي عن سؤالي بعد.

- لو أنَّك تصبرُ قليلًا.

أزالت فتات الفشار عن قميصها.

أتذكَّر ذلك جيدًا. ارتدت قميصًا أبيض، وبنطالًا من الجينز الباهت، من النوع الذي يحتوي على عدَّة سحَّابات، والذي كان في طورِ الظهور كموضة في هذه الأثناء.

ذهبت إلى الثلاجة لتحضر لنفسها علبة كوكاكولا، وسألتني إذا كنتُ أرغبُ في واحدة. ثم فتَحت العُلب، ووضعت شفاطةً في كلٍّ منهما، ثم عادت إلى الأريكة، وناولتني إحداها.

- في الصيف الذي صادف تخرُّجي، وقعت في حب فتى –نطقتها بلكنةٍ غرب أوسطية– من إيفانستون. كان يعود للبلدة خلال العُطلات. ويحضِّر درجة الماجستير في الإلكترونيات في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، شيءٌ مُتعلِّق بالحواسيب. وكان شابًّا وسيمًا، وبدا ذكيًّا، اسمه جون ر. فايندلي. يكبرني بعامين، وكنا على معرفةٍ ببعضنا بشكلٍ طفيف خلال المدرسة الثانوية. ولكن بعد شهر، سرقتهُ مني جوليا كريج، وهي واحدة من أغبى الكائنات التي قابلتها في حياتي، نوعٌ من القردة البشرية التي تعلمت تكوين قرابة عشر كلمات، وكيفية إزالة شعر ساقيها، استخدام الشوكة والسكين. أعلمُ أنني كنتُ رائعة في التعامل مع المعادلات والتكاملات، لكن لم يكن لديَّ أدنى فكرة عن تفكير الناس بشكلٍ عام، وكيفية تفكير الرجال على الخصوص.

استوعبتُ أنني إن لم أتوخَّ الحذر فسينتهي بي الأمر بقضاء بقية حياتي محاطة بالقطط والخنازير والببغاوات. لذا، فهذا هو سببُ مجيئي إلى هنا في الخريف التالي. لقد كانت والدتي قلقة للغاية، وحاولت تغييرَ رأيي، لكنها تعرفني جيدًا بما يكفي لتفهم أنه كان من الأسهل تعليمي الطيران بالمكنسة السحرية. وأنا الآن في سنتي الأخيرة، ولم أندم على قراري قط.

سألت: «أنا أيضًا في سنتي الأخيرة. هل تعلَّمتِ ما كنتِ تنوين تعلُّمه؟ أعني، عن كيفية تفكير الرجال؟».

لأول مرة، نظرت إليَّ في عينيَّ مباشرةً.

- لستُ متأكِّدة، لكن أعتقد أنني أحرزت تقدمًا. إذ إنَّ جون انفصل عن جودزيلا بعد بضعة أسابيع فحسب. ولم أرد على مكالماته بعد ذلك، رغم أنه حاول التواصل معي على مدى أشهر. ربما أنا صعبة الإرضاء فحسب.

انتهت من علبة الكوكاكولا، وألقت بالعُلبة الفارغة على الطاولة.

واصلنا مشاهدة عملية إنقاذ فتاة تكساس الصغيرة على التلفزيون، وتبادلنا أطراف الحديث حتى منتصف الليل تقريبًا بينما نحتسي القهوة، ونخرج من آنٍ لآخر إلى الحديقة لتدخين سجائر المارلبورو التي جلَبَتها من غرفتها. وعند مرحلةٍ ما، ساعدتها في نقل بقية أغراضها من صندوق سيارتها الهيونداي القديمة المصفوفة في المرأب.

كانت لورا لطيفة، وتتمتع بحس الفكاهة، وأيقنتُ أنها مثقفة للغاية. وكأيِّ شابٍّ حديث البلوغ، كنتُ عبارة عن كتلة من الهرمونات الثائرة. وفي ذلك الوقت، لم تكن لديَّ حبيبة، وتقتلني الرغبة في ممارسة الجنس، لكنني أتذكَّر بوضوح أنني لم أفكِّر مطلقًا في بادئ الأمر في إمكانية فعل ذلك معها. كنت متأكدًا أنه لا ريب وأنَّ لديها حبيبًا، رغم أننا لم نتحدث في هذا الموضوع قط. لكنني كنتُ مرتبكًا بشكلٍ مثير من فكرة مشاركة المنزل مع امرأة، وهو شيء لم أكن قد فعلته من قبل حتى تلك اللحظة. إذ كان الأمر كما لو أنني سيصيرُ لديَّ فجأة بابٌ إلى عالم من الأسرار التي حُرِّمَت عليَّ من ذي قبل.

الحقيقة أنني لم أكن أحبُّ الكلية قط، ولم أكن أُطيق الانتظار حتى أُنهي عامي الأخير لأخرج من هناك. وُلدت ونشأت في بروكلين، في

ويليامزبرغ، بالقرب من شارع جراند، حيث المنازل أرخص بكثير مما هي عليه في أيامنا هذه. وكانت والدتي تُدرِّسُ التاريخ في مدرسة بويز آند جيرلز الثانوية في بيد-ستوي، ووالدي مساعد طبيب في مستشفى كينغز كاونتي. بعبارةٍ أخرى، لم أكن من الطبقة العاملة، لكنني شعرتُ وكأنني كذلك، ربما بسبب سكني في حيٍّ يغلبُ عليه أبناءُ الطبقة الكادحة.

نشأتُ دون معوِّقات مادية كبيرة، ولكن في الوقت ذاته، لم يكن بإمكان والديَّ تحمُّل تكلفة الكثير من الأشياء التي كنا نرغب في امتلاكها. كان سكان بروكلين مثيرين للاهتمام بالنسبة لي، وكنت أشعر وكأنني سمكة وسط البحر الواسع من الأعراق والعادات المتنوِّعة في هذا الحي. فالسبعينات كانت حقبةً صعبة على مدينة نيويورك، وأذكر جيدًا أن الكثير من الناس كانوا شديدي الفقر، وأن العنف كان مُستشريًا.

حين وصلتُ إلى برينستون، انضممتُ إلى عدد من الجمعياتِ الأكاديمية، وأصبحتُ عضوًا في أحد نوادي الطعام الشهيرة على «ذا ستريت»، وكنت أقضي أوقاتًا مع الممثلين الهواة من نادي «ترايانغل».

قرأتُ عددًا من القصص القصيرة التي كتبتها في نهاية المرحلة الثانوية أمام حلقة أدبية حملت اسمًا غريبًا. وأدار المجموعة كاتب مشهور بدرجةٍ ما، ويدرِّس بصفته بروفيسورًا زائرًا. وتنافس أعضاؤها في تعذيب اللغة الإنجليزية لخلق قصائد لا معنى لها. وكانوا قد بدؤوا في النظر إليَّ باعتباري غريب الأطوار، عندما أدركوا أن قصصي «كلاسيكية» الأسلوب، وأنني أستمدُّ إلهامي من روايات هيمنجواي وستاينبك. على كل حال، بعد مرور عامٍ واحد، صرتُ أقضي أوقات فراغي في المكتبة أو في المنزل.

انتمى غالبية الطلاب إلى الطبقة المتوسطة في الساحل الشرقي، والتي كانت تحت وطأة ذعرٍ هائل في الستينات حين بدا وكأنَّ عالمهم بأكمله ينهار، فحرصوا على تربية أبنائهم بطريقةٍ تضمن لهم عدم تكرار هذا الجنون مرةً أخرى.

كانت الستينات زاخرةً بالموسيقى، والمسيرات، وصيف الحب، وتجارب المخدرات، و(وودستوك)، وموانع الحمل. بينما شهدت السبعينات نهاية كابوس فييتنام، وظهورِ الديسكو، والبناطيل الواسعة، والتحرُّر العرقي. لذلك شعرتُ بأن الثمانينات تفتقر إلى الملحمية، وأن جيلنا قد فاته القطار. استدعى السيد رونالد ريجان أرواح الخمسينات، لتشويش عقول الأمة ككاهنٍ عجوزٍ ماكر. والمال يهدمُ كل المعابد الأخرى واحدًا تلو الآخر، استعدادًا لأداء رقصة النصر، بينما الملائكة السمينة تعتمر قبعات ستيتسون فوق الشعور الشقراء المجعَّدة، وتردِّد تراتيل حرية الأعمال. انطلق يا روني، انطلق!

كنت أرى أن الطلاب الآخرين متشددون مغرورون، رغم المظهر المتمرِّد الذي حرصوا على إظهاره، وذلك بلا ريب استنادًا إلى اعتقادهم أن هذا ما يتطلَّبُهُ الأمر، كي تصير ضمن رابطة دوري اللبلاب الشهيرة كنوعٍ من التمسُّك المبهم بذكرى الحقب الغابرة. إذ إن التقاليد القديمة قد حظيت بشأن كبير في برينستون، لكنها بالنسبة لي لم تكن سوى مسرحية– فالزمن قد أثبتَ فراغَها من كلِّ معنى.

كنتُ أرى أن معظم الأساتذة مجرَّد شخصياتٍ ضحلة متمسكة بوظائفها الفاخرة. أما الطلاب الذين تظاهروا بأنهم ماركسيون وثوريون بأموال آبائهم الأثرياء، فإنهم لم يملُّوا قط من قراءة الكتب الضخمة مثل «رأس المال»، بينما الذين اعتبروا أنفسهم محافظين فقد تعاملوا كما لو أنهم أحفادٌ مباشرون لذلك الحاج على متن سفينة «مايفلاور»،

والذي وقف على رأس السارية، ورفعَ يدهُ ليحجُبَ أشعة الشمس عن عينيه صائحًا: «أرض!». بالنسبة للفئة الأولى، فقد اعتبروني برجوازيًا تافهًا يجب أن تُحتَقَر طبقته، وتُداس قيمه تحت الأقدام، وبالنسبة للفئة الثانية، فقد كنت مجرد طفل من بروكلين ينتمي إلى الطبقة البيضاء الدُّنيا، وقد تمكَّن بوسيلةٍ ما من التسلُّل إلى حرمهم الجامعي الرائع بأهداف مشبوهة، ولا ريب في أنها ملعونة. أما بالنسبة لي، فقد بدت برينستون كما لو أنها مرتعٌ للروبوتات المتعجرفة التي تتحدَّث بلكنة سكان بوسطن.

لكن، من الممكن أن كل هذه الأمور لم يكن لها أيُّ وجود سوى في عقلي. كنت قد خلقتُ لنفسي تدريجيًّا رؤية سوداوية ومتشككة للعالم، بعد أن قررت أن أصبح كاتبًا في نهاية المدرسة الثانوية، وذلك بمساعدة لا تقدَّر بثمن من السادة كورماك مكارثي، وفيليب روث، ودون ديليلو. إذ كنتُ على تمامِ الاقتناع أن الكاتب الحقيقي لا بُدَّ أن يكون بائسًا ووحيدًا، بينما يتلقَّى شيكات بمبالغ ضخمة، ويقضي عطلاته في منتجعات أوروبية فاخرة. كنتُ أقول لنفسي إنه لو لم يقلِّل الشيطان من عزيمة وشأن أيوب ليتركه بائسًا ومحطمًا، لما عرفهُ العالم، وما كانت البشرية لتحظى بهذه التحفة الأدبية.

حاولتُ تجنُّبَ قضاء وقت أطول من اللازم في الحرمِ الجامعي، لذا كنت عادةً ما أعودُ إلى نيويورك في عطلاتِ نهاية الأسبوع، أتجوَّل بين متاجر الكتب المستعملة في الجانب الشرقي العلوي، وأشاهد العروض في مسارح مجهولة في تشيلسي، وأحضر حفلات موسيقية لبيل فريزل، وسيسيل تايلور، وسونيك يوث في «ذا نايتنج فاكتوري»، والذي افتُتح حديثًا في شارع هيوستن. وأقضي أوقاتًا في المقاهي في شارع ميرتل، أو أعبُر الجسر إلى الجانب السفلي الشرقي، وأتناولُ العشاء في أحد تلك

المطاعم العائلية حيث يعرف الجميع أسماء بعضهم بعضًا. مع والديَّ وأخي الأصغر إيدي، والذي كان لا يزالُ يدرس في المدرسة الثانوية.

اجتزتُ امتحاناتي دون جهدٍ يذكر، مستمتعًا براحة الاكتفاء بدرجاتٍ متوسطة، لكي أتجنَّب التعرُّض لأي مشكلات، وأخصِّص وقتًا للكتابة. وكتبتُ عشرات القصص القصيرة، وبدأت في كتابة روايةٍ لم تتجاوز بضعة فصول. وكنتُ أستخدم آلة كاتبة قديمة من نوع «ريمنجتون»، وجدها والدي في عليَّةِ أحد المنازل، فأصلحها، وأهداني إياها عندما غادرتُ إلى الجامعة. انتهى الأمر بمعظم نصوصي في سلة المهملات بعد إعادة قراءتها وتصحيحها مرارًا وتكرارًا. ففي كل مرةٍ اكتشفتُ فيها كاتبًا جديدًا، كنتُ أقلِّدهُ بلا وعي، مثل شمبانزي ينبهر برؤية امرأة ترتدي اللون الأحمر.

لسببٍ أو آخر، لم أستمتع بتعاطي المخدرات. فدخَّنتُ الحشيش للمرَّةِ الأولى في عُمر الرابعة عشر خلال رحلة مدرسية إلى الحديقة النباتية. حيث أحضرَ أحد الأولاد يدعى «مارتن» سيجارتين محشوتين، تداولناهما نحن الخمسة، أو ستة أشخاص في مكانٍ خفي. كنَّا نشعر وكأنَّ مياه الجريمة العكرة تجرُّنا إلى أعماقها بلا رجعة. وفي المدرسة الثانوية دخَّنتُ مجددًا بضع مرات، وسكرتُ أيضًا من البيرة الرخيصة في حفلات قليلة، أقيمت في شقق مشبوهة على شارع دريغز. لكنني لم أجد أي متعة في السُّكر أو التعاطي، وهو الأمر الذي شكَّلَ مصدر ارتياحٍ لوالديَّ. في تلك الأيام، إذا كنت تميلُ للابتعاد عن الطريق المستقيم، فعلى الأرجح سينتهي بكَ المطاف مطعونًا حتى الموت، أو ضحية جرعة زائدة، بدلًا من أن تجد وظيفة محترمة. درستُ باجتهادٍ في المدرسة، وحصلت على أعلى الدرجات، وتلقيتُ عروضًا من جامعتي كورنيل وبرينستون، فاخترتُ الأخيرة التي اعتُبِرَت أكثر تقدُّمًا في ذلك الوقت.

لم تكن التلفزيونات قد تحولت بعد إلى عرض لا نهائي من البرامج التي يُجبَر فيها شتى أنواع الفاشلين على الغناء، أو التعرُّض للإهانة من قبل مقدِّمي البرامج الوقحين، أو أن يقفزوا في برك سباحة ملأى بالأفاعي. ولم تكن العروض التلفزيونية الأمريكية قد أصبحت بعد حكايةً يرويها أحمق، يملؤها الضجيج والضحك، وخاوية من المعنى. لكنني لم أجد شيئًا مثيرًا للاهتمام في النقاشات السياسية المنافقة في تلك الأيام، أو في النكات الفظَّة، والأفلام الرخيصة عن المراهقين الذين يبدون وكأنهم مصنوعون من البلاستيك. أما الأقلية من المنتجين والصحفيين المحترمين من الستينات والسبعينات، الذين كانوا لا يزالون في مواقع المسؤولية في استوديوهات التلفزيون، فقد بدوا محرجين ومرتبكين، مثل الديناصورات التي رأت النيزك الذي يبشِّرُ بنهاية عصرها.

لكنني اكتشفت أن لورا تحب مشاهدة التلفزيون التافه ليلًا، زاعمةً أن هذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكن لعقلها من خلالها أن يصل إلى نوعٍ من التوازن، مما يسمحُ له بتصنيف وتنظيم وتخزين كل ما تراكم خلال النهار. لذلك، في خريف عام 1987، شاهدتُ التلفزيون أكثر من أي وقت آخر، ووجدتُ نوعًا من المتعة المازوخية في الجلوس مرتخيًا على الأريكةِ بجانبها، معلقًا على كل برنامج حواري، وقصة إخبارية، ودراما أسبوعية، مثل العجوزين المتذمِّرين في شرفة مسرح عرض الدمى «ذا مابت شو».

لم تخبرني عن البروفيسور جوزيف ويدر على الفور. فلم تذكر أنها تعرفهُ حتى الهالوين. وكان واحدًا من أهم الشخصيات التي تدرِّس في جامعة برينستون في تلك السنوات، ويُنظرُ إليه باعتباره الإله بروميثيوس الذي نزل بين البشر ليشاركهم سرَّ النار. كنا نشاهد برنامج «لاري كينغ لايف»، حيثُ دُعيَ ويدر للحديثِ عن إدمان المخدرات، فقد

مات ثلاثة شبان بسبب جرعات زائدة في اليوم السابق في كوخ بالقرب من يوجين، أوريغون. على ما يبدو أن لورا والبروفيسور كانا «أصدقاء مقرَّبين»، هكذا أخبرتني. لا ريب أنني كنتُ قد وقعتُ في حبِّها بالفعل في ذلكَ الوقت، حتى لو لم أُدرِك ذلك.

اثنان

كانت الأسابيع التالية على الأرجح هي أسعدَ أيامٍ مرَّت عليَّ في حياتي كلها. عُقِدَت معظم محاضرات علم النفس في «جرين هول»، والذي كان على بُعد دقائق قليلة سيرًا على الأقدام من ماكوش وديكنسون، حيث حضرتُ دروس اللغة الإنجليزية، لذلك كنا معًا في أغلب الأحيان. فكنَّا نذهب إلى مكتبة فايرستون، ونسيرُ بمحاذاةِ ملعب برينستون في طريقنا إلى المنزل، ونتوقَّف عند متحفِ الفن وأحد المقاهي المحيطة به، أو نستقلُّ القطار إلى مدينة نيويورك، حيث نشاهدُ أفلامًا مثل «ديرتي دانسينج Ditry Dancing»، «سبيسبول Spaceball» و«ذا أنتاتشابلز The Untouchables».

كان لدى لورا الكثير من الأصدقاء، ومعظمهم مثلها من طلاب علم النفس. وعرَّفتني على بعضهم، لكنها فضَّلت قضاء وقتها معي. أما فيما يتعلَّقُ بالموسيقى، فلم يكن لنا نفس الذوق. فأحبَّت هي أحدث الأغاني، والتي كانت تغني في تلك الأيام ليونيل ريتشي، وجورج مايكل أو فليتوود ماك، لكنها استمعت بصبرٍ حينما كنت أشغل موسيقى الروك والجاز على أشرطة الكاسيت والأقراص المدمجة.

أحيانًا كنا نتبادلُ أطراف الحديث حتى الساعات الأولى من الصباح، مشبَّعين بالنيكوتين والكافيين، ثم نذهبُ إلى محاضراتنا بعد ساعتين أو ثلاث فقط من النوم. ورغم امتلاكها سيارة، فإنها نادرًا ما استخدمتها، وكنا نفضِّلُ المشي أو ركوب الدراجة. وفي الأمسيات التي لم نشعر فيها بالرغبة في مشاهدة التلفزيون، استدعت لورا الروح التي تسكنُ في جهاز النينتيندو، لنطلق النار على البط، أو نتقمَّص دور السمكة بابلز في لعبة كلو كلو لاند.

ذات يوم، بعد أن لعبنا ألعابًا كهذه لبضع ساعات، قالت لي: «ريتشارد -لم تختصر اسمي إلى ريتشي أو ديك قط- هل تعلمُ أن عقولنا لا تستطيعُ التمييز بين الخيال والواقع في معظم الأحيان؟ لهذا السبب قد نبكي عند مشاهدة فيلم ما، أو نضحك عند مشاهدة آخر، على الرغم من علمنا أن ما نراه مجرد تمثيل، وأن القصة من نسجِ خيالِ المؤلف. فلولا هذا (الخلل)، لم نكن لنصير أكثر من مجرد روبوتات آر. أو. بي R.O.B.

آر. أو. بي كانت تعني الصديق التشغيلي الآلي، وهو جهاز اخترعه اليابانيون للمراهقين الوحيدين. وحلمت لورا بالحصول على جهازٍ مثله، وأن تسمِّيه آرماند، وتعلِّمه كيف يجلب لها القهوة إلى السرير، ويشتري لها الزهور عندما تكون حزينة. ما جهلتهُ لورا، هو أنني كنتُ لأفعل كل هذه الأشياء والكثير غيرها لأجلها بكل سرور ودون الحاجة إلى أي تدريب.

لن تعرف ما هو الألم الحقيقي حتى تتعرَّض لجرح عميق يجعلك تدرك أن الجروح السابقة لم تكن سوى خدوش. وفي أوائل الربيع، تضاعفت صعوباتي في التأقلم مع الحياة في برينستون بسبب حدثٍ مأسوي، فقدتُ والدي.

أصابتهُ نوبة قلبية بينما كان في عمله، وأودت بحياتهِ على الفور. لم يستطع أيُّ شيء إنقاذه، ولا حتى التدخُّل السريع لزملائه. وقد أُعلِنتْ وفاته بعد أقلِّ من ساعة من انهياره في ممر قسم الجراحة في الطابق الثالث من المستشفى. وقد أبلغني أخي بالخبر عبر الهاتف، بينما تولَّت أمي الإجراءات الرسمية.

ركبتُ أول قطار، وتوجَّهتُ إلى الشقة. ووجدتُ منزلنا قد صار بالفعل مملوءًا بالأقارب والجيران وأصدقاء العائلة حين وصلت. ودُفِنَ والدي في مقبرة «إيفرجرين»، ولم يمضِ وقتٌ طويل حتى قرَّرت أمي في بداية الصيف الانتقال إلى فيلادلفيا، وأخذت إيدي معها. حيث كان لها أختٌ صغرى تعيشُ هناك تدعى كورنيليا. وقد شكَّل صدمةً لي أن أُدركَ في الأسابيعِ التالية أن كلَّ شيءٍ يربطني بطفولتي سيتلاشى، وأنني لن أدخلَ مرة أخرى الشقة ذات الغرفتين، التي قضيتُ فيها حياتي كلها حتى ذلك الحين.

شككتُ دائمًا أن أمي تكرهُ بروكلين، وأن والدي كان السبب الوحيد لبقائها هناك. إذ كانت شخصًا مولعًا بالكتب، ويميلُ إلى الكآبة، وذلك بفضل تربيتها، فوالدها قس لوثري من أصل ألماني، يُدعى راينهارد نوف. ولديَّ ذكريات مشوَّشة عن زيارتنا له مرة واحدة فحسب في السنة، في عيد ميلاده. وكان رجلًا طويلًا وصارمًا عاش في كوينز، في منزلٍ شديد النظافة، وكانت لديه ساحة صغيرة خلف المنزل. حتى البقعة الصغيرة من العُشبِ هناك كانت تعطيك انطباعًا بأنَّ كل ورقة عُشب مُشِّطت بعناية. وتوفيت زوجته في أثناء ولادتها لخالتي، ولم يتزوج مرة أخرى، وربى بناته بمفرده.

توفي بسرطان الرئة وأنا في العاشرة من عمري، ولكن من حينٍ لآخر، بينما كان جدي لا يزال على قيد الحياة، طلبت أمي منا الانتقالَ إلى

كوينز –وهو مكان نظيف ولائق، كما كانت تصفُه– قائلةً: إنها ترغبُ في أن تكون أقرب إلى والدها. ولكنها على أي حال استسلمت في النهاية، حيث استوعبت أنه أمر ميؤوس منه: مايكل فلين، والدي، كان أيرلنديًّا عنيدًا، وُلدَ وترعرعَ في بروكلين، ولم تكن لديه أيُّ نية للانتقال إلى أي مكان آخر.

تزامن رحيلي إلى برينستون لأجل بداية العام الجديد في الجامعة، مع انتقال أمي وأخي إلى فيلادلفيا. وعندما التقيتُ لورا للمرَّةِ الأولى، كنتُ قد بدأت أدرك للتو أنني لن أتمكَّن من العودة إلى بروكلين إلا كزائر. وكنتُ أشعر كما لو أنني قد فقدتُ كل ما أملك. وانتهى الأمرُ بالأشياء التي لم أحملها معي إلى برينستون، في شقة من غرفتين في شارع جيفرسون في فيلادلفيا، بالقرب من المحطة المركزية.

زرتُ أمي وأخي بعد فترة قصيرة من انتقالهما، وأدركتُ على الفور أن هذا المكان لن يكون بيتي أبدًا. وبالإضافة إلى ذلك، فقد تقلَّص الدخل المادي للأسرة. وحيثُ لم تكن درجاتي كافية للحصول على منحة دراسية، فقد كان عليَّ البحث عن وظيفة بدوام جزئي، لأتمكن من تغطية مصاريفي حتى التخرُّج.

توفي والدي فجأة، لذلك كان من الصعب التعوُّد على فكرة أنه لم يعد موجودًا، وكثيرًا ما كنت أفكِّر فيه كأنه ما زال معنا. فأحيانًا ما يكون للراحلين أثرٌ أكبر بعد الرحيل من أثرهم في حياتهم. ذكراهم –أو ما نعتقد أننا نتذكَّره عنهم– تُجبرنا على محاولة إرضائهم بطريقة لم يتمكَّنوا من إقناعنا بها في حياتهم. ووفاة والدي جعلتني أشعر بمزيدٍ من المسؤولية، فصرتُ أقلَّ ميلًا للعيش بلا اكتراث. الأحياء يرتكبون الأخطاء باستمرار، أما الأموات فسرعان ما يحيطهم الذين تركوهم من خلفهم بهالةٍ من العصمة.

لذلك، ازدهرت صداقتي الجديدة مع لورا في وقتٍ شعرتُ فيه بالوحدة أكثر من أيِّ وقتٍ مضى، ولهذا السبب أصبح وجودها أكثر أهمية بالنسبة لي.

بدأ الطقس يميلُ إلى الكآبة قبل أسبوعين من عيد الشكر، عندما اقترحت لورا أن تعرِّفني على البروفيسور جوزيف ويدر. إذ كانت تعمل تحت إشرافه على مشروع بحثي اعتزمت كتابته كأطروحة لرسالة الماجستير.

تخصصت لورا في علم النفس المعرفي، وهو ما اعتُبِرَ مجالًا رائدًا في تلك الأيام، حين أصبح مصطلح «الذكاء الاصطناعي» على كل لسان بعد أن غزت الحواسيب بيوتنا وحياتنا. وكان كثيرٌ من الناس على قناعةٍ بأنه خلال عقد من الزمن سنتمكَّن من إجراء محادثات مع محمصات الخبز، وطلب المشورة المهنية من غسالة الملابس.

تحدَّثت لورا كثيرًا معي عن عملها، لكنني لم أكُن أفهمهُ كثيرًا، وبأنانية يتَّصفُ بها كل الشباب من الذكور، لم أبذُل جهدًا في محاولةِ استيعابه. ما أتذكَّرهُ هو أن البروفيسور ويدر -الذي درس أيضًا في أوروبا، وحصل على دكتوراه في الطب النفسي من جامعة كامبريدج- كان يقتربُ من إنهاء مشروع بحثي ضخم، والذي قالت لورا: إنه سيُحدث تغييرًا كبيرًا في فهمنا لكيفية عمل العقل البشري، والارتباط بين المحفِّزات العقلية وردود الفعل. ومن خلال ما قالته لورا، فقد فهمتُ أن للأمر علاقة بالذاكرة وكيفية تشكُّل الذكريات. وزعَمَت لورا أنَّ معرفتها بالرياضيات مثَّلت كنزًا حقيقيًّا لويدر، لأن العلوم الدقيقة كانت دائمًا نقطةَ ضعفه، وتطلَّب بحثهُ استخدامَ المعادلات الرياضية في الحساب الكمِّي للمتغيرات.

سيكون المساء الذي قابلتُ فيهِ ويدر لأول مرة ذكرى لا تُنسى بالنسبة لي، ولكن لسببٍ مختلف عما كنت أتوقَّعه.

بعد ظُهر يوم سبت من منتصف نوفمبر، أنفقنا مبلغًا كبيرًا من المال لشراء زجاجة من نبيذ «كوت دو رون روج» الذي أوصى به البائع في محل الأطعمة الفاخرة، وانطلقنا إلى منزل البروفيسور. الذي يعيش في «ويست ويندسور»، وعليه فقد قرَّرت لورا أن نذهب بالسيارة.

بعد نحو عشرين دقيقة أوقفنا السيارة أمام منزل على طراز «كوين آن»، بالقرب من بحيرة صغيرة تترقرق في ضوء الغسق، ويحيطُ العقارَ جدارٌ حجري منخفض. كان البابُ مفتوحًا، وسرنا في طريق مغطًّى بالحصى عبر حديقة مُشذَّبة بعناية، ومحاطة بشجيرات الورد والتوتِ الأسود. وشجرة بلوط ضخمة على اليسار، تمتدُّ أغصانها العارية فوق السقف المبلَّط للمبنى.

ضغطت لورا جرس الباب، ففتح لنا رجلٌ طويل القامة ذو بنية قوية. وشبه أصلع، بلحية رمادية تصلُ حتى صدره. ويرتدي جينزًا، وحذاءً رياضيًّا، وقميصًا أخضر من ماركة «تيمبرلاند» بأكمام مرفوعة. بدا كأنه مدرِّب كرة قدم أكثر من كونهِ بروفيسورا جامعيًّا شهيرًا على وشك أن يهزَّ العالم العلمي باكتشافهِ المذهل، وتمتَّع بثقة بالنفس تميز عادةً الأشخاص الذين يسير كل شيءٍ في حياتهم على ما يرام.

صافحني بقوَّة، ثم قبَّل لورا على كلا الخدين.

قال بصوتٍ شاب على نحوٍ غير متوقع: «سعيدٌ بلقائك يا ريتشارد. لقد أخبرتني لورا بالكثير عنك. عادةً -تابع حديثه بينما دخلنا إلى ردهة عالية السقف، تزيِّنُ جدرانها اللوحات، وعلقنا معاطفنا على الرف- ما تكون لورا ساخرة وناقمة على كل من يعترضُ طريقها. لكن لم يكن

لديها سوى أشياء جيدة لتقولها عنك. كنتُ متشوقًا جدًّا للتعرُّفِ عليك. اتبعوني من فضلكم يا رفاق».

دخلنا إلى غرفة معيشة كبيرة متعددة المستويات. وفي إحدى الزوايا هناك ركنٌ للطهي مع طاولة عمل ضخمة في الوسط، مُعلَّقٌ فوقها شتى أنواع الأواني النحاسية. وفي مقابلِ الجدار الغربي يوجد مكتب قديم بمفصلات برونزية، مع كرسي مغطًّى بالجلد، وسطحهُ مزدحمٌ بالأوراق والكتب والأقلام.

كنت أشُمُّ رائحة طعامٍ شهية تتطايرُ في الأجواء، وتمتزجُ برائحة التبغ. أحضرَ لكلٍّ منا كأسًا من الجن والتونيك، بينما جلسنا على أريكة مغطاة بقماش مزخرف بنقوش شرقية، معلنًا أنه سيحتفظُ بالنبيذِ الذي جلبناهُ للعشاء.

أشعرني الديكور الداخلي للمنزل ببعضِ الارتباك. إذ اكتظَّ بالأعمالِ الفنية –البرونزيات، واللوحات، والتحف– وكأنه متحف. بالإضافة إلى سجاد منسوج يدويًّا منتشر هنا وهناك فوق الأرضيات المصقولة. كانت هذه أول مرة أدخل فيها منزلًا كهذا.

صب لنفسه كأسًا من السكوتش مع الصودا، وجلس على الكرسي أمامنا، وأشعل سيجارة.

- ريتشارد، لقد اشتريتُ هذا المنزل قبل أربع سنوات، وعملتُ على إعادة تأسيسه لمدة عامين، ليصبح كما تراهُ الآن. فالبحيرة كانت مجرد مستنقع كريه مليء بالبعوض. لكنني أعتقدُ أن الأمر استحقَّ ذلك، حتى لو أن المنزل معزول قليلًا. فمن خلال ما أخبرني إياه أحدُ المختصِّين في هذه الأمور، فقد تضاعفت قيمته تقريبًا منذ ذلك الحين.

قلت له مؤكدًا: «إنه رائع حقًّا».

- سأريكَ لاحقًا المكتبة في الطابق العلوي. إنها مصدرٌ لفخري وسعادتي، إذ كل الأشياء الأخرى مجرد تفاهات. آمل أن تأتي مرة أخرى. أحيانًا أُقيمُ حفلات في أيام السبت. لا شيء مبالغ فيه، فقط بعض الرِّفاق والزملاء. وفي مساء آخر جمعة من كل شهر، ألعبُ البوكر مع بعض الأصدقاء. لا تقلق، فنحن نلعب على العملات الصغيرة فحسب.

تدفَّق الحديث بسلاسة، وبعد مرور نصفِ ساعة، وحين جلسنا إلى الطاولة لتناول الطعام -كان قد أعدَّ سباغيتي بولونيز من وصفة حصل عليها من زميل له في إيطاليا- شعرت بالفعل وكأننا نعرفُ بعضنا منذ فترة طويلة، وتلاشت تمامًا مشاعر الحرج التي كنت أشعر بها في بادئ الأمر.

غابت لورا عن الحديث تقريبًا حيثُ تولَّت دور المضيفة. فقامت بتقديم الطعام، وفي نهاية الوجبة أزالت الصحون وأدوات المائدة، ووضعتها في غسالة الصحون. ولم تكن تناديه بـ «بروفيسور» أو «سيد» أو «السيد ويدر»، بل ببساطة «جو». بدت وكأنَّها في منزلها، وبات واضحًا أنها قامت بهذا الدورِ من قبل، وتحدَّث البروفيسور في موضوعات مختلفة، وهو يدخِّن بشراهة، ويصاحب حديثه حركات واسعة بيديه.

تساءلتُ في لحظةٍ ما، عن مدى قربهما الحقيقي، لكنني بعد ذلك قلتُ لنفسي: إن الأمر ليس من شأني، إذ في ذلك الوقت لم أكن أظن أنهما يمكن أن يكونا أكثر من مجرد صديقين مقرَّبين.

مدح ويدر النبيذ الذي أهديناه إليه، واستطردَ مطوَّلًا في الحديث عن كروم العنب الفرنسية، وشرح لي القواعد المختلفة لتقديم النبيذ بناءً على نوع العنب. وقد تمكَّن بشكلٍ ما، من فعل ذلك دون أن يبدو متكبرًا.

ثم أخبرني أنه عاش في باريس لبضع سنوات في شبابه. وحصل على درجة الماجستير في الطب النفسي من جامعة السوربون، ومن بعدها غادر إلى إنجلترا، حيث نال درجة الدكتوراه، ونشر كتابه الأول.

بعد مرور بعض الوقت، نهض وأحضر من مكانٍ ما في أعماق المنزل زجاجة أخرى من النبيذ الفرنسي لنشربها. كانت لورا لا تزال تشرب كأسها الأول –وقد أوضحت للبروفيسور أنها يجب أن تقودَ السيارة عائدةً إلى المنزل- بدت سعيدة بأننا متوافقين على نحوٍ جيد، وراقبتنا كما لو أنها مربية أطفال مسرورة بأن الصغار الذين ترعاهم لا يكسرون ألعابهم، ولا يتشاجرون مع بعضهم بعضًا.

على ما أذكر، كان الحديثُ معه فوضويًّا بدرجةٍ ما. إذ تحدَّث كثيرًا، وتنقَّل بين الموضوعات ببراعة ساحر. وكان لديه رأي في كل شيء، من موسم فريق الجاينتس الأخير إلى الأدب الروسي في القرن التاسع عشر. صحيح، كنتُ مدهوشًا من حجمِ معرفته، فمن الواضح أنه قرأ الكثير، وأن التقدُّم في السن لم يقلِّل من فضولِه الفكري. (بالنسبة لشخصٍ لم يتجاوز سن المراهقة، فالبالغ في أواخر الخمسينات من العمر يُعتبر بالفعل مسنًّا). لكن في الوقت نفسه، أعطى انطباعًا بأنه مبشِّر متحمِّس يرى أن مهمَّتهُ هي الصبر على تثقيف الهمج، دون أن يعوِّل بالكثير من الثقة في قدراتهم العقلية. إذ استخدمَ طريقة السؤال السقراطي، ثم قدَّم الإجابات بنفسه قبل أن أتمكَّن من فتح فمي للنطق بأي شيء، ثم عرضَ حُججًا مضادة، ليهدمها أيضًا بعد بضع دقائق.

في الواقع، كما أتذكر، لم تكن المحادثة سوى مونولوج مطوَّل. وبعد بضع ساعات كنت مقتنعًا أنه قد يستمرُّ في الحديث حتى بعد مغادرتنا.

رنَّ الهاتفُ الذي كان يضعهُ في الرَّدهة عدة مرات خلال المساء، واعتذر منا للرد عليه، منهيًا المكالمات بسرعة. لكن في إحدى المرات،

تحدَّث لمدة طويلة بصوت منخفض حتى لا يسمع من في غرفة المعيشة ما يقوله. لم أستطع تمييز ما قاله، لكنَّ صوتهُ كان يكشفُ انزعاجه.

عاد وهو يبدو مضطربًا.

قال للورا بغضب: «لقد فقدَ هؤلاءِ الناس عقولهم. كيف يمكن أن تطلب من عالم مثلي أن يفعلَ شيئًا كهذا؟ إن أعطيتهم إنشًا يأخذون ميلًا. لقد كان أغبى شيء فعلتهُ في حياتي هو التورُّط مع أولئك الحمقى».

لم تحر لورا ردًّا، واختفت في مكانٍ ما داخل المنزل. تساءلتُ عمَّن كان يتحدَّث، ولكنهُ خرج وعاد بزجاجة أخرى من النبيذ. وبعد أن شربناها، بدا وكأنه نسي المكالمة المزعجة، وقال مازحًا: إن الرجال الحقيقيين يشربون الويسكي. ثم ذهب مرة أخرى، وعاد بزجاجة لاجاڤولين ووعاء من الثلج. وكانت الزجاجة نصفَ فارغة بالفعل عندما غيَّر رأيهُ قائلًا: إن الفودكا هي أنسب مشروب للاحتفال ببداية صداقة جميلة.

أدركتُ مدى ثمالتي عندما وقفت لأذهب إلى الحمام، كنت أحافظ على اتزاني بصعوبة حتى تلك اللحظة. إذ لم تطاوعني قدماي، وكدتُ أسقط أرضًا. لم أكن ممتنعًا عن الشرب، لكنني لم أشرب بهذا القدرِ من قبل. وراقبني ويدر من كثب، وكأنني جرو مسلٍّ.

في الحمام نظرت إلى المرآة فوق المغسلة، فرأيتُ وجهين مألوفين يحدِّقان إليَّ، مما جعلني أنفجرُ ضاحكًا. وتذكَّرتُ في الردهة أنني لم أغسل يدي، فعُدت مرة أخرى. وكانت المياه ساخنة جدًّا فأحرقتني.

عادت لورا ورمقتنا بنظرة طويلة صارمة، ثم أعدَّت لنا فنجانَيْ قهوة. حاولتُ اكتشاف ما إذا ثمِلَ البروفيسور هو الآخر، لكنهُ بدا لي متماسكًا كما لو أنني شربتُ بمفردي. شعرت وكأنني كنت ضحية مقلب، ولاحظتُ أنني كنت أعاني في نطق الكلمات. كنت قد دخَّنت الكثير من السجائر

مما أشعرني بألمٍ في صدري. وتطايرت سحب الدخان الرمادية في الغرفة كالأشباح، رغم أن النوافذ مفتوحة على مصراعيها.

واصلنا الحديث لمدة ساعة تقريبًا دون أن نشرب أي شيء سوى القهوة والماء، ثم أشارت لي لورا بأنه قد حانَ وقتُ المغادرة. ورافقنا ويدر إلى السيارة ليودِّعنا قائلًا: إنه يأملُ بصدق أن أكرِّر زيارته.

قلت للورا بينما قادت السيارة في شارع كولونيال، الذي كان شبه خالٍ في تلك الساعة: «رجل لطيف، أليس كذلك؟ لم ألتقِ بشخص يمكنه تحمُّل هذه الكمية من الكحول. يا إلهي! هل يمكنك تخيُّل مقدار ما شربناه؟».

- ربما أخذ شيئًا قبلها. أقصد حبة دواء أو شيء من هذا القبيل. فهو لا يشربُ عادةً بهذا القدر. وأنت لستَ طبيبًا نفسيًّا، لذلك لم تُدرك أنه استخرجَ منك معلومات عن نفسك، دون أن يكشف لك شيئًا عن نفسه.

فقلت معترضًا، وأنا أحاولُ أن أقرِّر ما إذا كان علينا إيقافُ السيارة لأتقيَّأ خلف إحدى الأشجار على جانب الطريق: «لقد أخبرني بالكثير عن نفسه».

كان رأسي يدورُ بطريقةٍ ما، ولا ريب أن رائحتي أوحَت بأنني قد استحممتُ بالخمر.

قالت بحدَّة: «لم يخبرك شيئًا، باستثناء أشياء معروفة للجميع، يمكنك العثور عليها على غلاف أيٍّ من كتبه. على ناحية أخرى، فقد أخبرتهُ أنك تخافُ من الثعابين، وأنك في سن الرابعة والنصف كدتَ تتعرَّضُ للاغتصاب من قِبل جار مجنون، والذي كاد والدكَ أن يقتلهُ بعدها. هذه أشياء مهمة لتقولها عن نفسك».

- أخبرته ذلك؟ لا أستطيعُ التذكر...

- لعبته المفضَّلة هي التفتيش في عقول الآخرين، كما لو أنه يستكشفُ منزلًا. الأمر يتجاوز مجرد عادة مهنية بالنسبة له. إنه فضول شبه مرضي، فهو نادرًا ما يستطيعُ التحكُّم فيه. لهذا وافق على الإشراف على ذلك البرنامج، البرنامج الذي...

توقَّفت فجأة في منتصف الجملة، وكأنها استوعبت فجأة أنها على وشك أن تقول أكثر من اللازم.

لم أسألها عمَّا كانت ستقوله.

فتحتُ النافذة، وبدأت أشعر بذهني يصفو. وكان هناك نصفُ قمرٍ شاحب معلق في السماء. وفي تلك الليلة صرنا عشاقًا.

حدث ذلك بطريقة بسيطة، دون نقاشات منافقة من نوع «لا أريدُ إفساد صداقتنا». فبعد أن أوقفت السيارة في المرأب، وقفنا لبضع دقائق في الفناء الخلفي، الذي تسربَلَ بالضوء الأصفر للشارع، وتشاركنا سيجارة في صمت. ثمَّ دخلنا المنزل، وعندما حاولتُ إشعال ضوء غرفةِ المعيشة، منعتني، وأخذت بيدي لتقودني إلى غرفةِ نومها.

كان اليوم التالي هو الأحد. وبقينا في المنزل طوال اليوم، نمارس الحب، ويستكشفُ أحدنا الآخر. أذكر أننا بالكاد تحدَّثنا. وفي وقتٍ متأخر من بعد الظهر ذهبنا إلى نُزل بيكوك حيث تناولنا الطعام، ثم تجولنا في حديقة المجتمع الشمالية لبعض الوقت حتى حلَّ الظلام. كنتُ قد أخبرتُها عن نيتي في البحث عن وظيفة، وعندما أثرتُ الموضوع مرة أخرى، سألتني على الفور عمَّا إذا كان يستهويني العملُ مع ويدر.

كان يبحثُ عن شخصٍ ما ليرتِّب الكتب في المكتبة التي ذكرها، لكنه لم يتمكَّن من اصطحابي إليها في الليلة الماضية. وفوجئت بذلك.

- هل تعتقدين أنه سيوافق؟

- لقد تحدَّثتُ معه عن الأمر بالفعل. لهذا السبب أرادَ مقابلتك. لكن، كعادة الرجال، لم تتطرَّقا للحديثِ عن الموضوع. أعتقد أنه أُعجب بك، لذا لن يكونَ الأمر صعبًا.

سألت نفسي ما إذا كنتُ قد أُعجبتُ به.

- في هذه الحالة، لا مانع لديَّ.

اقتربت مني وقبَّلتني. كان لديها شامة بنية اللون بحجم عملة صغيرة، فوق صدرها أسفل ترقوتها اليسرى. لقد تفحَّصتُ تفاصيلها بعناية في ذلك اليوم، كما لو أنني أردتُ التأكُّد أنني لن أنسى أي جزءٍ من جسدها أبدًا. كان كاحلاها نحيلين بشكلٍ غير عادي، وأصابعُ قدميها طويلة جدًّا -سمَّتها (فريق كرة السلة)- استكشفت كل علامة ووحمة في بشرتها التي اتَّشحت ببقايا سُمرةِ الصيف.

في تلك الأيام، كان الحُب السريع قد أصبح شائعًا مثل الوجبات السريعة، ولم أكن استثناءً لهذه القاعدة. فقد فقدتُ عذريتي في سن الخامسة عشرة، في سريرٍ معلَّقٌ فوقه بوستر كبير لمايكل جاكسون. وكان السرير لفتاةٍ تدعى جويل، وتكبرني بسنتين، وتعيشُ في شارع فولتون. وفي السنوات التي تلت ذلك، رافقت العديد من الشريكات، حتى إنني ظننتُ في مرتين أو ثلاثًا أنني واقعٌ في الحب.

لكن في ذلك المساء، أدركتُ كم كنتُ مخطئًا. ربما في بعض الحالات كان ما شعرت به مجردَ انجذاب، أو شغف، أو تعلُّق. لكن الأمر كان مختلفًا تمامًا مع لورا، فهذه المشاعر كلها زاد عليه شيءٌ آخر: الرغبة الشديدة في الوجود معها في كل دقيقة وكل ثانية. ربما أحسستُ بشعورٍ غامض أن فترة وجودنا معًا ستنتهي سريعًا، لذا كنتُ في عجلةٍ من أمري لجمع ما يكفي من الذكريات عنها لترافقني لبقيةِ حياتي.

ثلاثة

بدأتُ العمل في مكتبة ويدر في عطلة نهاية الأسبوع التالية مباشرةً، حيث زرته وحدي، مستقلًّا الحافلة من محطة ترينيتي. جلسنا نشرب الجعة معًا على مقعدٍ بجانب البحيرة، وشرح لي كيف يرغبُ في تنظيم بضعة آلاف من كتبه.

اشترى البروفيسور جهاز كمبيوتر جديدًا، ووضعهُ في غرفة بالطابق العلوي. وكانت الغرفة بلا نوافذ، وجدرانها مغطاة بأرفف خشبية طويلة. أرادني أن أُنشئ سجل ترميز بحيث يتمكَّن محرك البحث من تحديد موقع كل كتاب. وذلك يعني إدخال البيانات -العناوين، والمؤلفين، والناشرين، وأرقام مكتبة الكونجرس، وما إلى ذلك- وترتيب الكتب حسب الفئات. فقُمنا بحسبة تقريبية، ووصلنا إلى نتيجة أن العمل سيستغرقُ مني كل عطلة نهاية أسبوع على مدار الأشهر الستة المقبلة، ما لم أستطع تخصيصَ بضعة أيام إضافية للعمل عليه كل أسبوع. ورغم أنني بدأت في كتابة أطروحة بحثي النهائية، فإنني ما زال لديَّ أمل في التمكُّن من إيجاد فترة -بعد الظهر في يوم ما خلال الأسبوع- تتيحُ لي إنهاء سجل المكتبة الذي وظَّفني ويدر لأجله.

اقترح أن يدفع لي أسبوعيًّا. وكان المبلغ مُجزيًا للغاية، وأعطاني شيكًا للأسابيع الثلاثة الأولى مقدمًا. ولاحظتُ أنه في غيابِ لورا، كان أقلَّ حديثًا وأكثرَ دقَّة في كلامه.

أخبرني أنه ذاهب لممارسة الرياضة في القبو، حيث امتلك صالة رياضية صغيرة، وترك لي العمل بحرية في المكتبة.

قضيتُ ساعتين أو ثلاثًا في التعرُّف على الكمبيوتر والبرامج، ولم يعد ويدر خلال هذا الوقت. وعندما خرجت أخيرًا من المكتبة، وجدتهُ في المطبخ يعدُّ السندويشات. وتناولنا الطعام معًا، وتحدَّثنا عن السياسة. ولدهشتي، كان متحفِّظًا جدًّا في آرائه، ورأى أن «الليبراليين» خطرون مثل الشيوعيين. واعتقدَ أنَّ ريجان يفعلُ الصواب في تحدِّيهِ لموسكو، بينما سابقه، جيمي كارتر، لم يفعل شيئًا سوى تملُّق الروس.

كنا ندخِّن في غرفة المعيشة، وآلة تحضير القهوة تئنُّ في المطبخ، حين سألني: «هل أنت ولورا مجرَّد صديقين؟».

فاجأني سؤاله، وارتأيتُ أن الإجابة عليه محرجة جدًّا. وكنت على وشك إخباره أن علاقتي بلورا ليست من شأنه. لكنني كنت أعلم أن لورا تقدِّر صداقتهما للغاية، لذا حاولتُ أن أبقى هادئًا.

كذبت: «مجرد أصدقاء. لقد صادفَ أنها انتقلت للعيش في نفس المنزل الذي أسكنه وأصبحنا أصدقاء، رغم أنه ليس لدينا الكثير من القواسم المشتركة».

- هل لديك حبيبة؟

- يصدفُ أنني أعزب في الوقت الحالي.

- حسنًا! إنها جميلة وذكية وجذابة من جميع النواحي. وبناءً على ما أخبرتني إياه فإنكما تقضيان الكثيرَ من الوقت معًا.

- لا أعرف ماذا أقول.. أحيانًا يحدث ذلك، وأحيانًا لا.

أحضر أكوابَ القهوة وناولني واحدًا، ثم أشعل سيجارة أخرى وحدَّق إليَّ بجديَّة وتفحُّص.

- هل أخبرتك أيَّ شيء عني؟

شعرتُ أن المحادثة أصبحت أكثر إزعاجًا.

- إنها تقدِّركَ كثيرًا، وتشعر بالسعادة عندما تكون حولك. وعلمتُ أنكما تعملان معًا على مشروع مميز، من شأنِه تغيير فهمنا للعقل البشري بشكل عميق، شيء ما يتعلق بالذاكرة. هذا كل شيء.

سأل بسرعة: «هل أخبرتك أيَّ تفاصيل حول ماهية المشروع بالضبط؟».

قلت محاولًا أن أبدو مرتاحًا: «لا. أنا في مجال مختلف تمامًا مع الأسف، ولورا قد استسلمت من محاولات إقحامي في غموض علم النفس، ففكرة التنقيب في عقول الناس لا تثيرُ اهتمامي. ولا أقصد الإساءة».

قال بنبرةٍ منزعجة: «لكن، ألا تريد أن تكون كاتبًا؟ كيف ستطوِّر شخصياتك إذا لم تكن لديك فكرة عن طريقة تفكير الناس؟».

قلت: «هذا يشبه القول بأنك يجب أن تكون خبير جيولوجيا، لتتمكَّن من الاستمتاع بتسلق الصخور. جو، أعتقدُ أنك أسأت فهمي -أصرَّ أن أناديه باسمه الأول، رغم أنني شعرتُ أن ذلك محرج- أحيانًا أجلسُ في مقهى لأراقب الناس فحسب، أدرس حركاتهم وتعبيراتهم. وأحيانًا أحاول تخيُّل ما يحدث خلف تلك الحركات والتعبيرات. لكن هذا ما يريدون إظهاره، سواء عن وعي أو دون وعي، و...».

لم يدعني أكمل جملتي.

- هل تعتقدُ أنني نوع من المتلصصين، أتجسس من ثقب المفتاح؟ الأمر ليس كذلك على الإطلاق. الناس غالبًا ما يحتاجون إلى المساعدة لفهم أنفسهم بشكلٍ أفضل، لذا عليكَ أن تعرف كيف تمدُّ إليهم يد العون، ولولا ذلك، قد تبدأ شخصياتهم في التفكُّك. على أي حال، الهدف مختلف تمامًا. أنت تدرك أن مثل هذا الموضوع البحثي –أو ربما لا تدرك، ولكن عليك أن تثق بما أقول– يجب أن يتمَّ التعامل معه بأقصى درجات السرية، حتى لحظة نشر النتائج.

لقد وقَّعتُ بالفعل عقدًا مع ناشر، ولكن ليس مع دار نشر جامعتنا، لذا فهناك بعض الاعتراضات في المجلس. لا أعتقدُ أنني في حاجةٍ لإخبارك عن الحسد في العالم الأكاديمي. فقد كنت طالبًا لفترةٍ كافية لتعرف كيف تسيرُ الأمور. وهناك أيضًا سبب آخر يتطلَّبُ الكثير من السرية في الوقت الحالي، لكن لا يمكنني الكشف عنه لك. كيف تسير الأمور في المكتبة؟

كان من عادتِهِ تغيير الموضوع بشكل مفاجئ، وكأنه يحاولُ دائمًا أن يأخذني على حين غرة. أخبرته أنني تعرفت على الكمبيوتر والبرامج، وأن كل شيء يبدو على ما يرام.

بعد ربع ساعة، وبينما كنت على وشك المغادرة، أوقفني عند الباب الأمامي، وأخبرني أن هناك شيئًا آخر نحتاج للحديث عنه.

- بعد زيارتك لي الأسبوع الماضي، هل اقترب منك أحد وحاول استجوابك حول ما أعملُ عليه؟ زميل؟ صديق؟ أو ربما حتى غريب؟

- لا، خصوصًا وأنني لم أخبر أحدًا سوى لورا أنني جئتُ إلى هنا.

- هذا جيد إذًا. لا تخبر أحدًا في المستقبل أيضًا. العمل في المكتبة يبقى بيننا فحسب. وبالمناسبة، لماذا لم تأتِ لورا معك اليوم؟

- إنها في نيويورك برفقة صديقةٍ لها وعدَتها بالذهابِ معها إلى عرض، وستقضيان الليلة في منزل والديْ صديقتها. وستعودان صباح الغد.

حدَّق إليَّ لحظاتٍ طويلة.

- ممتاز. أنا متشوِّق لمعرفة رأيها في العرض. ما اسم صديقتها؟

- دارما، إذا لم أكن مخطئًا.

- أسماء مثل ديزي ونانسي لم تكن تناسب هؤلاء الهيبيين قبل عشرينَ عامًا، أليس كذلك؟ إلى اللقاء الآن يا ريتشارد. سأراكَ بعد عيد الشكر. كنت سأدعوك للاحتفال معي هنا، لكنني ذاهب إلى شيكاغو غدًا، ولن أعود حتى الجمعة. لورا لديها مجموعة مفاتيح احتياطية يمكنك استخدامها. وأنتَ تعرف ما عليك فعله، فإذا توفَّر لديك الوقت يمكنك القدوم خلال غيابي. اعتنِ بنفسك.

تجوَّلتُ في الشوارع حول منزله بدلًا من التوجُّه مباشرةً إلى محطة الحافلات، أدخِّن وأفكِّر في حديثنا.

إذًا، كان بحوزةِ لورا مجموعة مفاتيح احتياطية لمنزلِ ويدر. بدا ذلك غريبًا بالنسبة لي، لأنني لم أكن أعلم ذلك حتى تلك اللحظة، مما يشيرُ إلى أن علاقتهما أقرب مما تصوَّرت. وإذا فهمت الأمر بشكل صحيح، فقد ألمح ويدر إلى أنَّ لورا ربما كذبت عليَّ عندما قالت: إنها ذاهبة إلى المسرح مع صديقتها. وكان حذرًا للغاية حين استفسرَ عن طبيعةِ العلاقة بيننا.

عُدتُ إلى المنزل بمزاجٍ سيئ. ووضعت الشيك في درج خزانة ملابسي، وفي داخلي شعورٌ غير مريح بأنه كدفعةٍ مقابل صفقة مشبوهة لم أفهمها. وكنت سأقضي مساء السبت بمفردي لأول مرة منذ أن قابلت لورا، فبدا المنزل مظلمًا وعدائيًّا.

استحممت، وطلبت بيتزا، وشاهدت حلقة من مسلسل «ماريد ويذ تشيلدرين Married with Children»، ولم أجد شيئًا مضحكًا في مغامرات عائلة بوندي. كنتُ أشمُّ رائحة لورا، كما لو أنها تجلسُ بجانبي على الأريكة. لم يمر سوى بضعة أسابيع منذ لقائنا للمرة الأولى، لكنني صرتُ أشعر كما لو أننا نعرف بعضنا بعضًا منذ سنوات، لقد أصبحت جزءًا من حياتي بالفعل.

استمعت إلى شريط كاسيت لبي. بي. كينج، وتصفَّحت رواية لنورمان ميلر، وفكَّرتُ في لورا والبروفيسور ويدر.

لقد عاملني بلطف، وعرض عليَّ وظيفة، ومن المفترض أن أكون ممتنًّا لذلك. كان شخصية بارزة في العالم الأكاديمي، لذا كنت محظوظًا باهتمامه بي على الإطلاق، حتى لو أنَّ هذا بناءً على اقتراح من طالبته المفضَّلة. ومع هذا، وعلى الرَّغم من الظاهر، فقد شعرتُ بشيءٍ مُظلم وغريب في سلوكه، شيءٌ لم أستطع تحديدهُ بعد، لكنه كان موجودًا، ومختبئًا تحت لطفه والسيل المستمر لكلامه.

الأسوأ من ذلك، أنني بدأتُ أتساءل عما إذا كانت لورا تخبرني الحقيقةَ. تخيَّلتُ جميع أنواع السيناريوهات التي يمكنني من خلالها التحقُّق من صحة ما قالته لي، ولكن في ذلك الوقت كان قد فات الأوان لأستقلَّ القطار إلى نيويورك. وبالإضافةِ إلى ذلك، كنت سأشعر بالسخافة وأنا أراقبها من بعيد، كما لو كنت في فيلم مبتذل.

مع بزوغ هذه الأفكار في ذهني، غفوتُ على الأريكة، ثم استيقظتُ في منتصف الليل، وذهبتُ إلى السرير في الطابق العلوي. فحلمتُ أنني بجانب بحيرة كبيرة، شاطئها مغطًّى بالقصب. نظرتُ إلى المياه المظلمة، وشعرتُ فجأةً بإحساسٍ عميق بالخطر. ثمَّ لمحتُ هيئة تمساحٍ ضخم ذي حراشف، ويغطِّيه الوحل، يلاحقني بين الأدغال.

ولكن عندما فتح التمساحُ عينيه وحدَّق إليَّ، وجدتُ أنهما بذات الأزرق المائي لعيني البروفيسور ويدر.

عادت لورا بعد ظهر اليوم التالي. وكنتُ قد قضيت اليوم بأكمله أتجوَّل في الحرم الجامعي برفقةِ اثنين من معارفي، وفي وقتِ الغداء ذهبتُ إلى منزلهم في شارع ناسو؛ لتناولِ البيتزا والاستماع إلى الموسيقى. كنت أعدُّ لنفسي فنجانًا من القهوة. حين سمعتُ صوتَ سيارتها تتوقَّف.

بدت متعبة، وتحيطُ عينيها هالاتٌ سوداء. قبَّلتني بكثيرٍ من التحفُّظ، ثم انطلقت مسرعةً إلى غرفتها في الطابق العلوي لتستحم وتغيِّر ملابسها. وبينما أنتظرُها، سكبتُ فنجانين من القهوة، واستلقيتُ على الأريكة. عندما نزلت مجددًا إلى الطابق السفلي، شكرتني على القهوة، وأمسكت بجهاز التحكُّم، وبدأت تتنقَّلُ بين القنوات. لم يبدُ أنها في حالة مزاجية تسمح بالحديث، لذا تركتها وشأنها. وفي لحظةٍ ما، اقترحَت أن نخرج لتدخين سيجارة.

قالت لي وهي تسحبُ من سيجارتها بنهمٍ: «كان العرضُ سخيفًا. وأزعجنا والدَيْ دارما طوال المساء. وكان هناك حادث أمامي في النفق في طريقي للعودة، لذا علقتُ مُنتظرةً في الزحام لنصف ساعة. وبدأت سيارتي المزعجة في إصدارِ صوتٍ غريب. أعتقدُ أنَّ عليَّ جلبَ شخصٍ ما ليفحصها».

كانت تُمطرُ قليلًا في الخارج، وتلألأت قطراتُ المطر بين خصلات شعرها كالألماس.

سألت: «ما اسم العرض؟ إذا سألني أحدهم عنه، سأساعدهُ على توفيرِ ثلاثين دولارًا».

أجابت بسرعة: «ستارلايت إكسبريس. لقد حظيَ بتقييماتٍ جيدة، لكنني لم أكن في المزاجِ المناسب».

كانت تعلم أنني ذهبتُ لمقابلة ويدر، فسألتني كيف جرت المقابلة، وما إذا توصَّلنا إلى اتفاقٍ بشأنِ المكتبة. أخبرتها أنه أعطاني شيكًا، والذي نويتُ استخدامهُ لدفع الإيجار، وأنني بدأتُ بالفعل في العمل لبضع ساعات.

بعد أن عدنا إلى الداخل، وجلسنا على الأريكة، سألتني: «ريتشارد، هناك خطبٌ ما. هل تريد الحديث عن الأمر؟».

قرَّرتُ أنه لا جدوى من محاولة إخفائه، لذا قلت: «ويدر طرح عليَّ أسئلة عن علاقتنا. و...».

- ما نوع الأسئلة؟

- أسئلة غريبة... كما أنه سألني ما إذا تواصل أحدٌ معي بشأنه، وسألني عمَّا أخبرتني إياه بخصوص البحث الذي تقومان به معًا.

- أها.

انتظرتُ منها أن تواصل الحديث، لكنها لم تفعل.

- والأهمُّ من ذلك، أشار إلى أنك ربما كنتِ تكذبينَ عليَّ، وأنك ذهبتِ إلى نيويورك لأسباب أخرى.

لم تقل شيئًا لبضعِ لحظات، ثم سألتني: «وهل تصدقه؟».

هززت كتفي.

- لا أعلمُ كيف أفكِّر بعد الآن. لا أعلم ما إذا كان لديَّ الحق في استجوابك بشأن ما تفعلينه أو لا تفعلينه. أنتِ لستِ ملكًا لي، ولا أعتقد أنني شخصٌ كثير الشك.

أمسكت بالكوب بين راحتيها، كما لو كان طائرًا على وشك إطلاق سراحه.

- حسنًا، هل تريد أن نوضِّحَ الأمور؟

- بالتأكيد.

وضعت الكوب على الطاولة، وأطفأت التلفزيون. كنا قد اتفقنا على عدم التدخين داخل المنزل، لكنها أشعلت سيجارة. فاعتبرتُ ذلك ظرفًا استثنائيًّا، لذا تم تعليق القواعد مؤقتًا.

- حسنًا، دعنا نتناول الأمور واحدة تلو الأخرى. عندما انتقلت إلى هنا، لم يخطر ببالي قط الدخول في علاقة، لا معك ولا مع أي شخص آخر. وفي نهاية عامي الأول، بدأتُ أقابلُ شابًّا يدرسُ الاقتصاد. قضينا الصيف بعيدًا عن بعضنا، إذ ذهب كلٌّ منا إلى بلدته. واستأنفنا علاقتنا في الخريف، وبدا لفترة أن كلَّ شيءٍ على ما يرام. كنت أحبُّه، أو على الأقل هكذا ظننت، حتى لو كنتُ أدرك أن الشعور لم يكن متبادلًا، كان متقلبًا، وبلا أي التزام عاطفي.

كنت أشكُّ أنه يقابل فتيات أخريات، لذا غضبتُ من نفسي لتحمُّلي ذلك. وكان ذلك في الوقتِ الذي بدأتُ فيه العمل مع ويدر. في البداية كنت مجرَّد متطوِّعة، مثل نحو عشرين أو ثلاثين طالبًا آخرين، ولكن بعد فترةٍ وجيزة، بدأنا نناقشُ عمله، وأعتقدُ أنه أُعجِبَ بي. فانخرطتُ في العمل على مستوى أعلى. وأصبحتُ نوعًا ما -إذا جاز التعبير- مساعدته. الشاب الذي حدَّثتك عنه أصبح غيورًا. فبدأ

يتتبَّعني ويسألني عن علاقتي بويدر. وتلقَّى العميد رسالة مجهولة تتهمني أنا والبروفيسور بأننا عشيقان.

- ما اسم ذلك الشاب؟

- هل أنت متأكد أنك تريد أن تعرف؟

- أجل، متأكد.

- اسمه تيموثي ساندرز. لا يزال هنا، ويدرس للحصول على درجة الماجستير. هل تتذكَّر عندما كنا في بار روبرت في شارع لينكولنن بعد فترة قصيرة من لقائنا؟

- أذكر ذلك.

- لقد كان هناك برفقة فتاة.

- حسنًا، تابعي.

- غضب ويدر بشدة بعد تلك الرسالة إلى العميد. وأنا كنت متحمِّسة جدًّا لمواصلة العمل معه، حيث إنني كنتُ مشاركة بالفعل في برنامج بحثه. وهذه هي فرصتي لبناء مسار مهني في هذا المجال. ولم أكُن لأدع تيموثي يدمِّر هذه الفرصة. فاعترفتُ لويدر بأن لدي بعض الشكوك حول مرسل تلك الرسالة. وطلبَ مني أن أعده بإنهاء علاقتي بتيموثي، وهو ما نويتُ فعلهُ على أي حال. فتحدَّثتُ مع تيموثي، وأخبرته أنني لا أريد الاستمرار في المواعدة. وللمفارقة، أنه لم يبدأ في الوقوع في حبي بصدق إلا في تلكَ اللحظة.

بدأ يتبعني أينما ذهبت، وأرسل إليَّ رسائل تملؤها القصص الحزينة، يهدِّدُني فيها بأنه يفكِّر بجديَّة في إنهاءِ حياته، وأنني سأعيشُ مع هذا الذنب. أرسلَ إليَّ زهورًا في المنزل، وفي الجامعة،

وتوسَّل إليَّ أن أقابله ولو لبضع دقائق. لكنني تمسَّكتُ بقراري، ورفضتُ التحدُّث إليه. لقد سألني ويدر مرة أو مرتين عما إذا كان ذلك الشاب لا يزالُ جزءًا من حياتي، وبدا مرتاحًا عندما أخبرتهُ أنني انفصلتُ عن تيموثي نهائيًّا، وأنني لم يكُن لديَّ نية لتغيير رأيي مهما حدث.

لجأ تيموثي لاحقًا إلى تكتيكٍ مختلف، وبدأ في توجيه تهديدات مبطنة، وتلميحات قذرة. بدا وكأنه قد صارَ مهووسًا تمامًا. حتى إنني رأيتهُ في مرة يحومُ حول منزلِ ويدر، جالسًا في سيارته، والتي كانت متوقِّفة تحت عمود إنارة عند زاويةِ الشارع. وهو السبب في تركي لمكاني القديم والانتقال إلى هنا.

اختفى لفترة، ثم رأيتهُ تلكَ الليلةَ مجددًا كما أخبرتك، في بار روبرت. بعدها، أتى إليَّ في الحرم الجامعي، وارتكبت خطأً بالموافقة على مشاركته كوبًا من القهوة. كنت على يقين بتقبُّله أن الأمر قد انتهى، حيث إنه قد توقَّفَ عن مضايقتي.

قلت: «عذرًا على المقاطعة، لكن لماذا لم تتصلي بالشرطة؟».

- لم أكن أريدُ المشكلات. تيموثي لم يكن عنيفًا. إذ لم يحاول ضربي قط، لذا لم أشعر بأنني في خطرٍ جسدي. وأشك في أنَّ الشرطة كانت ستولِّي اهتمامًا كبيرًا لشاب مغرم بشدَّة، بطالبة دراسات عليا ويقتله الحنين، ما دام لم يخالف القانون. ولكن بعد تلك القهوة، بدأ كلُّ شيءٍ من جديد. أخبرني أنه متأكد أنني ما زلت أحبه، وأنني أرفُض الفكرة، لكن عاجلًا أم آجلًا سأدركُ ذلك. وقال: إنه استاءَ جدًّا بعد انفصالنا لدرجة أنه ذهب إلى جلسات علاج نفسي في نيويورك. وقلقت من أن يأتي إلى هنا ليثير المشكلات، وأن هذا سيغضبك.

باختصار، وافقتُ على الذهاب معه إلى إحدى جلسات العلاج النفسي، لأثبتَ للطبيب النفسي أنني شخص من لحم ودم، ولستُ مجرد خيال أو حبيبة مُختَرَعة، كما اشتبه الطبيب النفسي. ولهذا السبب ذهبتُ إلى نيويورك. وكان قد اكتشف بالفعل عنواني الجديد. وبعد زيارة الطبيب النفسي، قابلتُ دارما، وقضيتُ الليلة في منزل والديها، كما أخبرتك. وهذا كل شيء. وقد وعد تيموثي بألا يحاول العثور عليَّ مرة أخرى.

- لماذا لم تخبريني الحقيقةَ؟ ألم يكن ذلك أسهل؟

- لأن حينها كنتُ سأضطرُّ إلى إخبارك كلَّ ما أخبرتك إياه الآن، وأنا لم أرغب في ذلك. هذا الشخص ليس سوى ظلٍّ من الماضي، وأريدهُ أن يبقى هناك مع الظلال الأخرى. كلٌّ منا لديه أمورٌ يفضِّلُ نسيانها يا ريتشارد، ولا يمكننا فعل شيءٍ حيالها. وأشباحُ الماضي لا ينبغي عرضها على الملأ، لأن المعاني التي تكمُن خلفها قد تكون معقَّدة جدًّا، وربما مؤلمة جدًّا. لذا في غالب الأحيان، من الأفضل إبقاؤها مخفية.

- وهذا كل شيء؟ ذهبتِ إلى الجلسة، تحدثتِ مع الطبيب، ثم ذهب كلٌّ منكما في طريقه؟

نظرت إليَّ بدهشة.

- أجل، لقد أخبرتك، هذا كل شيء.

- وماذا قال الطبيب؟

- كان مقتنعًا بأن تيموثي يختلقُ قصَّة علاقتنا بأكملها. وأن هذه الحبيبة السابقة هي نوعٌ من الإسقاط الذي خلقه لنفسه، وأنه ربما ليس مرتبطًا بأي شخص حقيقي يدعى لورا. يعودُ هذا كلُّه إلى تربيته على يد زوجة أب لم تحبَّه قط، ولم يستطع هو تحمُّل فكرة الرفض. ولكن لماذا تهتم بكل هذا الهراء؟

بدأ الظلامُ يزحف، لكن لم يتحرَّك أيٌّ منا لإشعال الضوء. فجلسنا بين الظلال، مثل لوحة لرامبرانت بعنوان «لورا تتوسَّلُ غفران ريتشارد».

كنت أرغبُ فيها، تُقت لنزع ملابسها، والإحساس بجسدها يلامسُ جسدي، لكن في الوقت نفسه شعرتُ بأنني قد تعرَّضتُ للخيانة والكذب. فكان الطريقُ أمامي مسدودًا، ولم أعلم سبيلًا للمواصلة.

سألت: «هل كان ويدر يعرفُ كل هذا؟ هل كان يعلمُ السبب الحقيقي وراء ذهابك إلى نيويورك؟».

أخبرتني أنه يعلم.

- ولماذا شعر بضرورة تنبيهي للأمر؟

قالت بغضب: «لأنَّ هذه هي عادته فحسب. ربما لا يُعجبه كوننا على علاقة. وربما تأكلهُ الغيرة ولم يستطع مقاومة فكرة إشعالِ الفتيل، لأن هذا ما يجيده؛ التلاعب، والعبث بعقولِ الآخرين. حذَّرتك من قبل أنك لا تعرفُ حقيقته».

- لكنَّك وصفتِه بالعبقري، وأنه شبه إله، وأخبرتني أنكما صديقان مقرَّبان. والآن...

- حسنًا، يبدو أنه حتى العبقري يكون أحمق بحق أحيانًا.

كنتُ أعلم أنني أخاطر بشدة بطرح هذا السؤال، لكنني مضيتُ قدمًا على أي حال.

- لورا، هل سبق وكنتِ على علاقة مع ويدر؟

- لا.

كنت ممتنًّا أنها أجابتني بشكلٍ مباشر، دون استياءٍ مزيَّف، أو السؤال الذي لا مفرَّ منهُ (تقريبًا): كيف يمكنُ أن تخطر لك فكرة كهذه؟

وعلى الرَّغم من ذلك، فإنها بعد بضعِ لحظاتٍ أضافت: «أنا آسفة لأن شيئًا كهذا قد خطر ببالك يا ريتشارد. ولكن بالنظرِ إلى الظروف، فأنا أتفهَّمُ ذلك».

- لقد فوجئت قليلًا عندما علمتُ أنك تحتفظين بمفاتيح منزله. أخبرني ويدر ذلك.

- لو كنتَ قد سألتني، لكنتُ أخبرتك أيضًا. هذا ليس سرًّا. فهو يعيشُ بمفرده، وليس لديه شريكة. تأتي امرأة كل يوم جمعة لتنظيفِ المنزل، ويأتي أحدُ مرضاه السابقين، والذي يعيشُ بالقرب منه، كلَّما احتاجَ إلى عامل صيانة. وقد أعطاني المفاتيح كإجراءٍ احتياطي. ولم أستخدمها ولو مرة واحدة، صدِّقني. لم أذهب قط إلى هناك عندما لم يكن في المنزل.

كنتُ بالكاد أرى وجهها في الظلام المخيم على غرفة المعيشة، وتساءلتُ من تكون لورا باينز حقًّا. لورا باينز التي قابلتها قبل ذلك منذ بضعة أسابيع فقط، والتي لا أعرفُ عنها شيئًا في نهاية الأمر. ثم أجبتُ عن سؤالي بنفسي: *إنها المرأة التي أحبُّها، وهذا كل ما يهم حقًّا.*

في تلك الليلة، بعد أن اتفقنا على عدم ذكر ما حدث مرة أخرى، كنتُ صغيرًا بما يكفي لأتفوه بوعودٍ يستحيلُ الوفاء بها، أخبرتني لورا عن التجارب التي يقومُ بها ويدر. وحتى هي لم تكن تعرفُ كلَّ التفاصيل.

بدأت علاقات البروفيسور بالسلطات قبل نحو سبع سنوات، عندما استُدعى للمرة الأولى كشاهد خبير في قضية جريمة قتل. إذ أصرَّ محامي المتَّهم على أن موكِّله غير مؤهلٍ للمحاكمة، لأنه مصابٌ بالجنون. وفي مثل هذه الحالات، كما أوضحت لورا، يتمُّ تشكيل فريق من ثلاثة خبراء يتعاونون على إعدادِ تقرير عن الحالة العقلية للمتَّهم، ثم تقرِّرُ المحكمة ما إذا كانت حُجَّة الدفاع جائزة أم لا. وإذا أكَّد الخبراء أن المتهم يعاني

مرضًا عقليًّا يجعله غير قادرٍ على فهم طبيعة التهم الموجهة إليه، فإنه يتمُّ إرسالهُ إلى المستشفى الجنائية للأمراضِ النفسية. وبناءً على طلب المحامي، يمكن نقل المريض لاحقًا إلى مستشفى نفسي اعتيادي، أو حتى إطلاق سراحهِ إذا حكمَ القاضي لصالحه.

ويدر، والذي دَرَّسَ في جامعة كورنيل آنذاك، جادلَ أنَّ شخصًا يدعى جون تيبورن، يبلغ من العمر ثمانية وأربعين عامًا، ومتَّهم بقتلِ جاره، قد تظاهرَ بفُقدانِ الذاكرة، رغم أن الخبيرين الآخرين اعتقدا أنه مصاب بالذهان ويعاني الفصامَ، وأن فقدان ذاكرته المزعوم كان حقيقيًّا.

وقد ثبت أنَّ ويدر على حق في النهاية. إذ اكتشف المحققون مذكَّرات احتفظَ بها تيبورن، ووصفَ فيها أفعالهُ بالتفصيل. ولم يكن الجار ضحيَّتهُ الوحيدة. وعلاوةً على ذلك، فقد جمعَ معلوماتٍ عن أعراض شتى الأمراض النفسية التي قد تُشكِّل حُجَّةً للبراءة. بمعنى آخر، تأكَّد من أنه في حالة القبضِ عليه، سيكونُ قادرًا على التمثيل بشكلٍ مُتقَن بما يكفي، لإقناعِ الخبراء بأنه مريض عقلي بالفعل.

بعد تلك القضية، استمرَّ استدعاءُ ويدر كمستشار، وازداد اهتمامهُ بدراسة الذاكرة وتحليل الذكريات المكبوتة، والتي كانت موضوعًا شائعًا بعد نشر كتاب «ميشيل تتذكر Michelle Remembers»، الذي كتبهُ طبيب نفسي يزعُم أنه كان ضحية للمسِّ الشيطاني في الطفولة.

درسَ ويدر المئات من هذه الحالات، حتى إنه استخدم التنويم المغناطيسي لتعزيز أبحاثه. وزار السجون، ومستشفيات الأمراض النفسية الجنائية للتحدُّثِ إلى المجرمين الخطرين، ودرس عددًا لا يُحصى من حالاتِ فقدان الذاكرة.

وأخيرًا، توصَّلَ إلى استنتاجٍ مفادهُ أن بعض حالات الذكريات المكبوتة، تحدث عندما يبدأ نوع من النظام المناعي الذاتي بالعمل،

خاصةً عندما يكون الأشخاص قد عانوا صدمةً نفسية شديدة، ببساطة يمحو الشخص الذكريات المؤلمة، أو يرشحها لجعلها قابلة للتحمُّل، بالطريقة نفسها التي تهاجم بها خلية الدم البيضاء فيروسًا غزا الجسم. بمعنى أنَّ عقولنا مجهزة بسلة مهملات.

ولكن إذا كانت هذه العمليات تحدُث تلقائيًّا، فهل يمكن فكُّ شفرة آليتها للسماح بتحفيزها، والتحكُّم فيها بواسطة معالج نفسي؟ لأن التفعيل التلقائي لهذه الآلية غالبًا ما يسبِّب ضررًا لا رجعةَ فيه، وقد تُمحى الذكريات الحميدة برفقة الذكرياتِ المؤلمة. وبالتالي، فإن محاولة المريض التهرُّب من الصدمة قد تودي به إلى صدمةٍ جديدة، ربما تكون في بعض الحالات أعظم من الصدمة الأصلية. سيكونُ الأمرُ أشبه بحل مشكلة ندبة قبيحة، أو آثار حرق عن طريق بتر الذراع بالكامل.

استمرَّ ويدر في بحثه، وفي هذه الأثناء انتقلَ إلى برينستون.

وهناك تقرَّب منه ممثِّلوا وكالة ما، كما وصفها بشكلٍ مبهم في حديثٍ مع لورا، ليشرف على برنامج طورته تلك المؤسسة. ولم تكن لورا تعرف أكثر من ذلك، لكنها اشتبهت في أنَّ المشروع ربما يتضمَّن محو، أو «تنظيم» الذكريات المؤلمة التي عاناها الجنود، والعملاء السريُّون. وقد تردَّدَ ويدر في الحديث عن الأمر. إذ لم تسِر الأمور بسلاسة، وقد بدأت العلاقة بينهم وبين البروفيسور في التوتر.

ما كانت تخبرني إياه كان يبعثُ بالقشعريرة في جسدي. وبدا لي غريبًا أن أكتشف أنَّ ما آمنتُ بكونه حقيقة لا جدالَ فيها قد يكونُ في الواقع مجرَّدَ نتاجٍ لمنظوري الشخصي حول شيءٍ أو موقفٍ معين. إذ إنَّ ذكرياتنا ليست سوى نوع من شرائط الأفلام كما قالت، والتي يُمكن لمحرِّر ماهر أن يقصَّ ويلصق فيها كما يشاء، أو نوع من الجيلاتين الذي يمكنُ تشكيله بأي صورة.

أخبرتُها أنَّ من الصَّعب عليَّ الاتفاقَ مع نظريةٍ كهذه، لكنَّها عارضتني. فقالت: «ألم يحدث لك من قبل أن شعرت بأنَّك قد عِشت تجربة ما بالفعل، وأنك كنت في مكانٍ معين، ثم تكتشفُ أنك لم تكن هناك قط، ولكنك قد سمعت قصصًا عنها، ربما في طفولتك؟ ذاكرتك ببساطة محَتْ ذكرى رواية القصة لك، واستبدلتها بحدث».

تذكَّرتُ أنني لفترة طويلة اعتقدتُ أنني شاهدتُ مباراة السوبر بول لعام 1970 على التلفزيون، وأنني رأيتُ فريق كانساس سيتي تشيفز يتغلَّب على فريق مينيسوتا فايكنغز. لكن الحقيقة أنني كنتُ في الرابعة من عمري فقط آنذاك، واعتقدتُ أنني شاهدتها، لأنني سمعتُ أبي يروي قصصًا عن تلك المباراة مراتٍ عديدة فحسب.

- أرأيت؟ والمثالُ النموذجي هو مدى صعوبة تعامل المحققين مع شهاداتِ الشهود. إذ في معظم الأحيان يقدِّمون معلوماتٍ متناقضة، حتى في تفاصيل ينبغي أن تكون واضحة: لون السيارة التي استُخدمت في حادثة هروب مثلًا. فالبعضُ يقول: إنها حمراء، والبعض الآخر مستعدٌّ أن يقسم اليمين بأنها زرقاء، وفي النهاية يتضحُ أنها كانت صفراء. ذاكرتنا ليست كاميرا فيديو تسجِّل كل ما يمر أمام العدسة يا ريتشارد، بل هي أشبهُ بكاتب سيناريو ومخرج في شخصٍ واحد، والذي بدوره يصنعُ أفلامه الخاصة من أجزاء صغيرة من الواقع.

لا أعرفُ السبب، ولكنني أولَيتُ اهتمامًا أكبر من المعتاد لما قالتهُ في تلكَ الليلة. لم أكترث في النهايةِ لما كان يفعلهُ ويدر. لكنني تساءلتُ عما إذا كانت تقولُ الحقيقة بشأن تيموثي ساندرز.

كانت لورا على حقٍّ بشأن قوة الأسماء، ولهذا السبب أستطيعُ تذكُّر اسمه بعد ما يقارب الثلاثين عامًا. كما أنني تساءلتُ مرة أخرى في تلك

الليلة عما إذا كانت علاقتها مع البروفيسور مجرد علاقة مهنية بحتة. فالتحرُّش الجنسي قد صارَ شائعًا في الثمانينات، ولم تكن الجامعات محصَّنة ضد الفضائح. ففي بعض الأحيان مجردُ اتهام كان كافيًا لتدمير مسيرة مهنية، أو على الأقل إلقاء ظلالِ الشك. لذلك كان من الصعب عليَّ التصديق أن شخصية بمكانةِ ويدر قادرة على المخاطرة بكل شيء من أجل علاقة دنيئة مع طالبة، مهما كان مدى انجذابِهِ إليها.

غفونا معًا تلك الليلة على الأريكة في غرفة المعيشة، وبقيتُ مستيقظًا لفترةٍ طويلة بعد أن غرقت هي في النوم، أتأمَّلُ جسدها العاري، وساقيها الطويلتين، وانحناءة فخذيها، وكتفيها المستقيمتين. كانت تنامُ كالأطفال، بقبضتين مشدودتين. قرَّرتُ تصديقها: أحيانًا نحتاجُ ببساطة إلى أن نؤمن بإمكانية إخراج فيل من قبعة سحرية.

أربعة

قضينا عيد الشكر معًا في الخميس التالي. فاشترينا ديكًا روميًّا مطبوخًا من مطعم صغير تديرهُ عائلة في شارع إيرفينج، ودعونا بعضًا من أصدقاء لورا من زملائنا الطلاب. وكان أخي إدي مريضًا، إذ أُصيب بنزلةِ برد، وتملَّك الذُّعر من والدتي ذات صباح حين أصابتهُ نوبة من الحمى الشديدة، فتحدَّثتُ معهم لأكثر من ساعة عبر الهاتف، وأخبرتهم أني وجدتُ عملًا بدوام جزئي.

لم آتِ أنا أو لورا على ذِكر تيموثي ساندرز أو ويدر. وسهرنا حتى الصباح تقريبًا نستمتعُ بوقتنا، ثم ذهبنا إلى نيويورك، حيثُ قضينا عُطلة نهايةِ الأسبوع في نُزُل صغير في بروكلين هايتس.

في الأسبوع التالي ذهبتُ إلى منزل ويدر مرتين بينما كان في الجامعة، مُستخدمًا المفاتيح التي تركها للورا.

أحببتُ ذلك المكان الهادئ والواسع، الذي كان أشبهَ بمنزلٍ سحريٍّ بالنسبة لشخصٍ مثلي قضى حياتهُ كلها في أكواخٍ مظلمة وصاخبة. والصمتُ داخل المنزل بدا استثنائيًّا، وأطلَّت نوافذ غرفة المعيشة على

البحيرة. كان باستطاعتي الوقوفُ هناك لساعات، أتأمَّلُ ظلالَ أشجار الصفصاف تتمايلُ فوق الماء كلوحةٍ تنقيطية.

استكشفت محيطي. ففي الطابقِ السفليِّ توجد غرفة معيشة، ومطبخ، وحمام، ومخزن. وفي الطابق العلوي توجد مكتبة، وغرفتا نوم، وحمام آخر، وغرفة ملابس كبيرة بما يكفي لتُستخدم كغرفة نوم إضافية عند الحاجة. وفي السرداب كان يوجد قبو نبيذ صغير، وصالة رياضية، ومجموعة أثقال متناثرة على الأرض. وكان هناك كيس ملاكمة أحمر يتدلى من السقف، وزوجان من قفازات الملاكمة مُعلَّقان على مسبار في الجدار. وتفوح رائحةُ العرق، ومعطِّر الرجال من الصالة الرياضية.

لطالما كنتُ شغوفًا بالكتب، لذا فتنظيمُ مكتبة ويدر كأنه منحة أكثر منه مجرَّد وظيفة. اكتظَّت الأرفف بإصدارات نادرة وعناوين لم أسمع بها من قبل. قرابة نصفها عبارة عن كتب طبية، ونفسية، ونفسية-عصبية، أما البقية فكانت عن الأدب والفن والتاريخ. وكنت قد نظَّمت وقتي بحيثُ يتبقَّى لي بعض الوقت للقراءة، إذ شككتُ في استعداد البروفيسور لإعارتي أيًّا من كتبه الثمينة.

كنت هناك للمرة الثانية في ذلك الأسبوع، آخذُ استراحة غداءٍ قصيرة، وأتناول شطيرة أحضرتها معي بينما أتأمَّل البحيرة من خلال النافذة، حينها أدركت كم أن لهذا المنزل تأثيرًا غريبًا عليَّ، تمامًا مثل صاحبه. إذ كان يجذبني وينفِّرني في الوقت ذاته.

يجذبني لأنه من النوع الذي تمنيتُ العيش فيه لو كنتُ كاتبًا ناجحًا، ولو أنَّ هذا النجاح قد ملأ جيوبي ذهبًا. ومع اقتراب نهاية مسيرتي الدراسية في برينستون، كنتُ قد بدأتُ التفكير بجديَّة فيما سأفعله بعد ذلك، وشعرتُ بقلقٍ متزايد إزاء أن الأمور قد لا تسيرُ بالطريقة التي

أريدها. فالقصص القصيرة القليلة التي أرسلتها إلى المجلات الأدبية حتى ذلك الحين قوبلت بالرفض. رغم أن بعضها تلقَّى بضعَ كلماتٍ تشجيعية من المحررين. وكنت أعملُ على رواية، لكن لم يتَّضح لي ما إذا كانت تستحقُّ المثابرة.

أما البديل فكان حياة مملة كمدرِّس للغة الإنجليزية، فقير ومتشائم، في بلدة صغيرة، ومحاط بمراهقين ساخرين. كنتُ سأجد نفسي مرتديًا سترات من الصوف الخشن مرقَّعة بالجلد عند المرفقين، وأحملُ في حقيبتي كطاحونةٍ حول عنقي، مشروع كتاب لن يكتمل أبدًا.

ذلك المنزل كان أيقونة عالمية متعارف عليها للنجاح، ولعدة دقائق تخيَّلت أنه منزلي، وأعيشُ فيه مع المرأة التي أحبُّها، والتي صارت الآن زوجتي. أستريحُ بعد كتابة كتابي -الأكثر مبيعًا- القادم، وأنتظرُ في هدوء واسترخاء وصول لورا كي نخرجَ لقضاء أمسيتنا معًا في «تافيرن أون ذا جرين» أو «فور سيزونز»، حيث يعرفنا الناس، ويراقبوننا بفضولٍ وإعجاب.

لكنَّ هذه الصورة سرعان ما بدأت تتلاشى. كما لو لمستها مادة كيميائية شديدة التدمير، وذلك عندما تذكَّرت أنَّ هذا المنزل، يملكه رجلٌ لم أكن أثقُ به على الإطلاق. وعلى الرغم من ميلي إلى تصديق أن لورا تخبرني الحقيقة، وأن علاقتها به مهنية بحتة، فإنني في كل مرة أحضر إلى هذا المنزل أفشلُ في منعِ خيالي من التوحُّش. الأمر كان أشبه برؤيتي لهم بالفعل يتعانقون هناك فوق أريكة غرفة المعيشة، أو يصعدون إلى غرفة النوم، يتواثبون معًا قبل حتى أن يصلوا إلى السرير. تخيلتُ كل الألعاب الشاذة التي تخضع لها لورا، لإثارة الرجل العجوز، وبينما يستعد معلنًا نوايا بذيئة، تزحف هي تحت مكتبه، وتعلو وجهها ابتسامة ماكرة.

استطاعَ ويدر فرض مساحته الخاصة، حتى عندما لم يكن موجودًا، كما لو أن كلَّ شيءٍ في المكان جزء من ضريحه المقدَّس.

اتفقت مع لورا في ذلك الصباح، على اللقاء عند نُصب المعركة في الحديقة الساعة 3 مساءً، حتى نتمكَّن من اللحاق بالقطار إلى نيويورك. وفي الساعة 2 مساءً، أغلقتُ باب المكتبة، ونزلت إلى الطابق السفلي استعدادًا للمغادرة. وكدتُ أفقد وعيي عندما رأيتُ رجلاً طويل القامة جالسًا في وسط غرفة المعيشة. ممسكًا بجسمٍ ما استطعت تحديد ماهيته في اللحظة التالية على أنه مطرقة.

لم يكن هذا الحيُّ خطِرًا، ولكن في تلك السنوات اكتظَّت الصحف دائمًا بقصص عن السرقات وجرائم القتل. وقفَ الرجل وحدَّق إليَّ، وكان يرتدي معطفًا من الفرو، وكنزة قطنية، وبنطال جينز. جفَّ حلقي، وعندما حاولتُ التحدث، بالكاد ميَّزتُ صوتي.

- من أنت بحق الجحيم، يا رجل؟

ظلَّ متسمرًا في مكانه لبضع لحظات، وكأنه لا يعرف ماذا يقول. وكان وجهه كبيرًا ومستديرًا وباهتًا بشكلٍ غير طبيعي، وشعرهُ أشعث، وعلى خديهِ لحيةٌ خفيفة.

نطق أخيرًا كما لو أنني بالتأكيد سمعتُ عنه: «أنا ديريك. چو؛ أعني البروفيسور ويدر، طلب مني إصلاح تلك الزخرفة». وأشار بمطرقتهِ نحو إحدى النوافذ، ولاحظتُ صندوق أدواتٍ على الأرض.

سألت: «كيف دخلت؟».

أجاب مشيرًا إلى طاولةِ القهوة بجانب الأريكة حيث كانت المفاتيح موجودة: «لديَّ مفاتيح. أنت رجل المكتبة، أليس كذلك؟».

استنتجتُ أن هذا هو المريض السابق الذي ذكرتهُ لورا، والذي يهتمُّ بالإصلاحات في منزل ويدر.

كنتُ في عجلةٍ من أمري، لذا لم أبقَ لأطرحَ عليه المزيد من الأسئلة، ولم أتصل بويدر للتأكُّد من ادعاءات ديريك. وعندما التقيتُ لورا بعد نحوِ ساعة، أخبرتها عن اللقاء الذي كاد يصيبني بنوبة قلبية.

أخبرتني: «الرجل اسمه ديريك سيمونز. لقد كان مع البروفيسور لبضعِ سنوات. وفي الواقع، فإن ويدر هو الذي يعتني به».

أخبرتني لورا قصة ديريك في طريقنا إلى محطة تقاطع برينستون، حيث سنستقلُّ القطار إلى نيويورك:

قبل أربع سنوات، اتُّهم بقتل زوجته. كانا يعيشان في برينستون، ومتزوجين لمدة خمس سنوات، ولم يكن لديهما أطفال. عمل ديريك فنيًّا للصيانة، وعملت زوجتهُ آن نادلةً في مقهى بشارع ناسو. وكما صرَّحَ الجيران وأصدقاء العائلة لاحقًا، فإنهما لم يحدث أن تشاجرا قط، وبدا أنهما يعيشان حياة زوجية سعيدة.

في وقتٍ مبكِّر من صباح يومٍ ما، اتصل ديريك بالإسعاف من منزله، وأخبر المناوب أن زوجته في حالة خطِرة. وعندما وصل المسعفون، وجدوها ملقاةً في الردهة، جثة هامدة في بركة من الدماء، بعد أن طُعنت عدة مرات في الرقبة والصدر. وأعلن طبيب شرعي مساعد وفاتها في مكان الحادث، وتمَّ استدعاء المحققين إلى مسرح الجريمة.

رواية ديريك عن المأساة جاءت كما يلي: عاد إلى المنزل في الساعة 7 مساءً تقريبًا، بعد أن تسوَّقَ في متجرٍ بالقربَ من مكان سكنهم. تناولَ الطعام، وشاهد التلفزيون، ثم ذهبَ إلى الفراش، واثقًا بعمل آن في الوردية المسائية، وأنها لن تعود حتى وقت متأخر.

استيقظ في السادسة صباحًا كالمعتاد، ولاحظ أن زوجته لم تكن إلى جانبه في السرير. فخرج من غرفة النوم ليجدها ملقاةً في الردهة، ومغطَّاةً بالدماء. ولم يعلم ما إذا كانت على قيد الحياة أم لا، فاتصل بالإسعاف.

في البداية اعتقدَ المحقِّقون أنه من المحتمل أن الرجل يقولُ الحقيقة. لم يكُن الباب مقفلًا، ولم يجدوا أيَّ دليل على اقتحام، لذا ربما تبعها شخصٌ ما، وهاجمها عندما كانت تدخُلُ الشقة. وربما أدرك المعتدي بعد ذلك أن هناك شخصًا آخر في المنزل، فهرب دون سرقةِ أي شيء. (عُثِرَ على حقيبة الضحية بجوارِ جثتها، وبداخلها نحو أربعين دولارًا نقدًا). وحدَّد الطبيب الشرعي موعد وفاتها قرابة الثالثة صباحًا. لم يكن لدى سيمونز دافعًا لقتلِ زوجته، وبدا متأثرًا بشدة لفقدانها. لم يكن مديونًا، ولا في علاقة غرامية، وكان يركِّزُ على عمله. واعتُبِرَ شخصًا مجتهدًا وهادئًا بشكلٍ عام.

علِمَت لورا كافَّةَ التفاصيل من ويدر، والذي كان بدورهِ أحد الخبراء الثلاثة الذين استُدعُوا لتقييم الحالة العقلية لديريك بعد أن اتُّهم بقتلِ زوجته، إذ طالب محاميه بإعلان براءته بحجَّة الجنون. ولسببٍ أو آخر، أولى ويدر هذه القضية اهتمامًا بالغًا.

اكتشف المحققون لاحقًا عدَّة أمور ألقت بظلالٍ قاتمة على ديريك.

أولًا، بدأت آن سيمونز إقامة علاقة غرامية قبل بضعةِ أشهرٍ من مقتلها. ولم يُكشَف عن هوية عشيقها قط -أو على الأقل لم يُعلَن عنها- ولكن يبدو أن العلاقة كانت جادَّة، وأنهما خططا للزواج بعد أن طلبت آن الطلاق.

أنهت آن مناوبتها مساء الجريمة، وأغلقت المقهى قرابة العاشرة مساءً. ثم ذهب العاشقان إلى شقة صغيرة استأجرتها آن قبل شهرين،

في نفس الشارع الذي فيهِ المقهى، وظلّا هناك حتى منتصف الليل تقريبًا، ثم استقلت سيارة أجرة للعودة إلى المنزل. ووَفقًا للسائق والمعلومات المسجَّلة على العداد، أُنزِلَت آن سيمونز أمام مبنى سكنها في الساعة 1:12 صباحًا.

زعم ديريك أنه لم يكُن لديه أدنى فكرة عن علاقة زوجته الغرامية، لكن المحققين اعتقدوا أن هذا أمر غير وارد على الإطلاق. وهكذا، أصبحَ لديهم الآن دافع -وهو الغيرة- وأن الجريمة يمكن بسهولة أن تكون جريمة شرف.

ثانيًا، كان يوجد جروح على ذراعَي المرأة، سمَّاها المحققون «جروحًا دفاعية». بمعنى آخر، رفعت ذراعيها محاولةً الدفاع عن نفسها ضدَّ المعتدي، الذي استخدم سكينًا كبيرًا على الأرجح. فحتى لو كان ديريك نائمًا في الطابق العلوي بينما زوجتهُ تكافحُ من أجل حياتها، فمن غير المحتمل ألا يسمع أيَّ شيء. من المؤكَّد أن آن غالبًا قد صرخت طلبًا للمساعدة. (ادَّعى اثنان من الجيران لاحقًا أنهما سمعا صراخها، لكنهما فشلا في الاتصال بالشرطة لأن الصُّراخ توقَّف قبل أن تتاحَ لهما الفرصة للاستيقاظ تمامًا).

ثالثًا، أكَّدت صديقة للضحية أن هناك سكينًا مفقودًا من مطبخ عائلة سيمونز، وهو سكِّين تتذكَّره جيدًا، لأنها ساعدت آن قبل بضعةِ أسابيع في تحضيرِ الطعام لحفلِ عيد ميلاد. وعندما سُئل ديريك عن السكين المعنيِّ، والذي وضَّحت أوصافه أنه ربما كان أداة الجريمة، لم يفعل سوى رفعِ كتفيه. أجل كان هناك سكين كهذا، لكنه لا يعلَم ما حدث له، لأن زوجته كانت تتولَّى مسؤوليةَ المطبخ.

وأخيرًا، اكتشف المحققون أن ديريك قد عانى أيضًا انهيارًا عصبيًّا حادًّا قبل سنوات عديدة، عندما كان مراهقًا. وأودِعَ في مستشفى مارلبورو

للأمراض النفسية، وظلَّ هناك مدة شهرين، مما تسبَّب في تفويته لعامه الأخير في المدرسة الثانوية. وشُخِّصَ حينها بمرض الفصام، وهو تحت العلاج بالأدوية منذ خروجه. وعلى الرغم من أنه كان طالبًا متفوقًا حتى ذلك الحين، فقد تخلَّى لاحقًا عن فكرة الالتحاق بالجامعة، وتخصَّص ككهربائي، وحصل على وظيفة منخفضة المستوى في شركة سيمنز.

بنى المحققون حُجَّة دامغة بالاستنادِ إلى هذه الاكتشافات، واستنتجوا أن التسلسل الزمني للأحداث كان كالتالي:

وصلت آن إلى المنزل في الساعة 1:12 صباحًا، واندلع شجارٌ بينها وبين زوجها. حيث اتهمها زوجها بالخيانة، ومن المحتمل أنها أخبرتهُ بنيَّتها طلب الطلاق. وبعد ساعتين، أخذ ديريك سكينًا من المطبخ وقتلها. ثم تخلَّصَ من أداةِ الجريمة، واتَّصلَ بالإسعاف كما لو أنه اكتشف جثة زوجته للتو. ربما كان يعاني انهيارًا عصبيًّا أو نوبةَ فصامٍ، لكن فقط الأطباء يمكنهم الوصول إلى استنتاجٍ حول ذلك.

تمسَّكَ محامي سيمونز بنظرية الانهيار العصبي بعد القبض على موكِّله بتهمة القتل، وطلب إعلان براءته بحجَّة الجنون. وفي هذه الأثناء، استمرَّ المتهم في الادِّعاء بعنادٍ أنه بريء، رافضًا أي نوعٍ من التسويات.

توصَّل جوزيف ويدر بعد فحصه عدَّة مرات، إلى أن ديريك سيمونز كان يعاني نوعًا نادرًا من الاضطرابِ الانشقاقي، وقد شُخص في شبابه خطأً بالفصام. والذهان المقصود هنا يتضمَّن حدوث ما يسمَّى بحالات الشرود المتكررة، والتي يفقدُ خلالها المريض ذكرياته وكل إحساسٍ بالوعي الذاتي أو الهوية. وفي الحالاتِ القصوى، قد يختفي هؤلاءِ الأشخاص من منازلهم، ويُعثَر عليهم بعد سنواتٍ يعيشونَ تحت هويةٍ جديدة تمامًا في مدينةٍ أو ولايةٍ أخرى، دون أي ذكريات عن حياتهم السابقة. وبينما يعود البعض إلى هويَّاتهم القديمة، وينسونَ تمامًا

الهويات الأخرى التي بنوها في تلك الأثناء؛ يظلُّ آخرون أسرى تمامًا لحياتهم الجديدة.

إذا كان تشخيص ويدر صحيحًا، فمن المحتمل أن سيمونز لم يتذكَّر أيَّ شيء مما فعلهُ تلك الليلة، عندما تصرَّف كما لو كان شخصًا مختلفًا تمامًا، تحت وطأة التوتر والوعي المتغير الناجم عن الانتقالِ المفاجئ من النومِ إلى الاستيقاظ.

استطاعَ تقريرُ ويدر إقناعَ المحكمة، وحكم القاضي بإيداع سيمونز في مستشفى ترينتون للأمراض النفسية، بجانب مرضى عقليين آخرين يعتبرون خطرين. وواصل ويدر تقديم العلاج لسيمونز، باتفاق المؤسسة ومحامي المريض، مستخدمًا التنويم المغناطيسي وعلاجًا ثوريًّا يتضمَّنُ مزيجًا من الأدوية المضادة للتشنجات.

للأسف، تعرَّض سيمونز بعد بضعة أشهر في المستشفى، لهجوم من قِبَل مريض آخر، وأصيبَ بجروحٍ خطِرة في رأسه، مما أدَّى إلى تدهورِ حالته بشكل كبير. وفقد ديريك سيمونز ذاكرته تمامًا، ولم يستعدها قط. وبينما كان دماغهُ قادرًا على تكوين وتخزين ذكريات جديدة، ظلَّت الذكريات القديمة مستحيلة الاسترجاع. أوضحت لي لورا أن هذا النوع من الصدمات يسمى فقدان الذاكرة الرجعي.

بعد عام، وبإصرارٍ من ويدر، نُقلَ ديريك إلى مستشفى مارلبورو للأمراضِ النفسية، حيثُ النظام أقلُّ صرامة. وهناك ساعدهُ البروفيسور على إعادة بناء شخصيته. في الواقع، قالت لورا: إن هذا نصف الحقيقةِ فحسب: إذ أصبح المريض ديريك سيمونز مرةً أخرى، لكن بمعنى أنه فقط يحملُ نفس الاسم والمظهر الجسدي. كان يعرفُ كيفية الكتابة، لكنه لم يملك أدنى فكرة عن المكان الذي تعلَّمَ فيه القيام بذلك، نظرًا لعدم وجود أي ذكريات لديه عن ذهابه إلى المدرسة. وظلَّ قادرًا على

أداء عمله كهربائيًّا، لكن مرة أخرى، لم يكن لديه فكرة عن المكان الذي تعلَّم فيهِ حرفته. لقد كانت كل ذكرياته حتى اللحظة التي تعرَّضَ فيها للهجوم في المستشفى محبوسة في مكان ما في نقاط الاشتباك العصبي في دماغه.

في ربيع عام 1985، وافقَ قاضٍ على طلبِ محامي سيمونز بإخراجِهِ من المستشفى النفسي، نظرًا لمدى تعقيدِ القضية، وافتقارِ المريض لأي ميول عنيفة. ولكن، كما قالت لورا، كان من الواضح أن ديريك سيمونز لن يستطيعَ العيشَ بمفرده. لم يملك أيَّ فرصة في الحصول على وظيفة، وكان سينتهي به المطاف عاجلًا أم آجلًا في مؤسسة عقلية. كان الابن الوحيد لوالديه، وتوفيت والدتهُ بالسرطان عندما كان طفلًا صغيرًا. أما والده، الذي لم يكن ديريك قريبًا منه، فقد غادرَ المدينة بعد المأساة دون تركِ عنوان للتواصل، ولم يبدُ مهتمًّا بمصيرِ ابنه.

لذا قام ويدر باستئجارِ شقة صغيرة بغرفةِ نوم واحدة له بالقرب من منزله، ودفع له راتبًا شهريًا ليقوم بصيانة المنزل. وعاش ديريك وحده، ونظرَ جيرانهُ إليه باعتباره غريب الأطوار. وبين الحين والآخر كان يقفلُ على نفسه ولا يخرج لأيام أو أسابيع. وخلال هذه الفترات، كان ويدر هو من يجلبُ له الطعام، ويتأكَّد من تناوله الأدوية.

أثرَت بي قصة ديريك سيمونز، وكذلك موقف ويدر تجاهه. لقد تمكَّن هذا الرجل -سواء كان قاتلًا أم لا- من عيش حياة كريمة بفضل ويدر. وكان حرًّا، حتى وإن كانت حريَّته مقيَّدة بمرضه. لولا ويدر، لانتهى بِهِ الأمرُ في مصحَّة عقلية، حطامًا غيرَ مرغوبٍ فيه، ومحاطًا بحراس عنيفين، ومرضى خطرين.

أخبرتني لورا أنها زارت المستشفى في ترينتون مع البروفيسور عدَّة مرات من أجلِ أعمال ميدانية؛ وارتأت أن المستشفى النفسي هو على الأغلب المكان الأكثر شؤمًا على وجه الأرض.

في الأسبوع التالي، وعندما بدأ هطول الثلوج للمرة الأولى، زرت منزل ويدر ثلاث مرات، وفي كل مرة كنت أجدُ ديريك هناك يقومُ ببعضِ الإصلاحات البسيطة. وتحدَّثنا ودخَّنا معًا، بينما ننظرُ إلى البحيرة التي بدت كأنها منسحقة تحت ثقل السماء الكئيبة. لو لم أعرف عن حالته، لظننتُ أنه شخص عادي، وإن كان خجولًا، ومنعزلًا، وقليل الذكاء. لكنهُ بدا لطيفًا، وغيرَ قادرٍ على إيذاءِ أحدٍ على أي حال. وقد تحدَّث عن ويدر بامتنانٍ كبير وكان مدركًا كم يدين له. وأخبرني أنه تبنَّى جروًا من ملجأ للحيوانات مؤخرًا. وأطلق عليه اسم جاك وكان يأخذهُ كلَّ مساءٍ في نزهةٍ في الحديقةِ المجاورة.

أذكر ديريك وقصَّتهُ هنا لأنهُ سيؤدِّي دورًا مهمًّا في المأساةِ القادمة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

خمسة

كنا في أوائل ديسمبر، حين تلقيتُ واحدًا من أهم الأخبار في حياتي آنذاك. إذ أخبرتني إحدى أمينات مكتبة فايرستون، وهي صديقة لي تُدعى ليزا ويلر، أنَّ محررًا من مجلة «سيجنتشر» الأدبية النيويوركية سيقدِّم محاضرة في قاعة ناسو، وهي المجلة التي صارت الآن من الماضي؛ وكان لها آنذاك مكانة مرموقة رغم توزيعها المحدود. وبما أنَّ ليزا كانت تعرفُ أنني أرغبُ في النشر، فقد حصلت على دعوة لأجلي، ونصحتني بأن أتحدَّث مع المحرر بعد المحاضرة وأطلبَ منه قراءة قصصي. لم أكن خجولًا، ولكنني لم أكن كذلكَ شخصًا متطفلًا، لذا كنتُ في حالةٍ من التوتر طوال الأيام الثلاثة التالية حول ما يجبُ عليَّ فعله. وفي النهاية، غالبًا بفضلِ إصرارِ لورا، فقد اخترتُ ثلاث قصصٍ قصيرة، وضعتها في مظروف مع سيرتي الذاتية، وذهبتُ إلى المحاضرة، ومعي الحزمةُ تحت ذراعي.

وصلتُ مبكرًا جدًّا، فانتظرتُ أمام المبنى وأنا أدخِّن سيجارة. وكان الهواءُ خارج القاعة رماديًّا ثقيلًا، ومُحمَّلًا بصراخِ الغربان التي تعشِّش في الأشجار القريبة.

تساقطَ الثلجُ مرة أخرى، والنمور البرونزية التي تحرس مدخل القاعة بدت كتماثيل من المارزيبانِ على كعكة ضخمة، مغطاة بالسكر البودرة. اقترب مني رجلٌ نحيف، يرتدي سترة من القماش المخمليِّ، مع رقع جلدية على المرفقين وربطة عنق متناسقة، وطلبَ مني ولاعة. كان يدخِّن سجائره الملفوفة في حامل طويل من العاج أو العظم، يمسكهُ بين الإبهام والسبابة مثل دانديس من العصر الإدواردي.

بدأنا الحديث، فسألني عن رأيي في موضوعِ المحاضرة. فاعترفتُ بأنني لم أكن أعلمُ حقًّا عما تدور، ولكنني تمنيتُ لو أعطي بعض قصصي القصيرة للمتحدِّث، وهو محرر في مجلة «سيجنتشر».

قال لي بابتسامة، وهو ينفثُ سحابة من الدخانِ المزرق في الهواء: «رائع. وحول ماذا تدورُ قصصك؟».

هززتُ كتفي.

- من الصعب القول.. أُفضِّلُ أن تُقرأ القصص بدلًا من التحدُّثِ عنها.

- هل تعلم أن وليام فوكنر قال الشيء ذاته؟ إن الكتاب الجيِّد يمكنُ قراءتُه فحسب، ولا يمكن الحديثُ عنه. حسنًا، أعطني القصص. أراهنُ أنها في هذا المظروف.

كان فمي فاغرًا من فرط الدهشة.

قال الرجل بينما ينقل حامل السيجارة إلى يده اليسرى، ويمدُّ يده اليمنى: «جون إم. هارتلي».

صافحته وأنا أشعرُ بأنني بالفعلِ قد بدأتُ بدايةً سيئة. لاحظ ارتباكي، فابتسمَ لي ابتسامةً تشجيعية، كاشفًا عن صفَّينِ من الأسنانِ المصفرَّة من أثرِ التَّبغ. وسلَّمتهُ الظرف الذي يحملُ قصصي وسيرتي الذاتية. فأخذهُ ودسَّهُ في الحقيبةِ الجلدية المهترئة التي كانت متَّكئةً على ساقِ

الطاولة المعدنية بجانبنا. أنهينا سجائرنا، ودخلنا إلى القاعة دون أن نقولَ كلمةً أخرى.

وفي نهاية المحاضرة، وبعد الرَّد على جميعِ أسئلةِ الجمهور، أشار لي بلباقة، وعندما اقتربتُ منه سلَّمني بطاقةَ عمل، وطلب مني التواصلَ معه بعد أسبوع.

أخبرتُ لورا بما حدث.

قالت، منتصرةً وعلى تمامِ الاقتناع: «إنها علامة».

كانت تجلسُ عارية، جاثمةً على المكتبِ المؤقت الذي جمَّعتهُ في زاوية من غرفةِ المعيشة. تلوِّحُ بساقيها جيئةً وذهابًا لتجفيفِ أظفارها المطلية حديثًا، وتمسحُ عدسات نظارتها بقطعة من الجلد في الوقت نفسه.

تابعَت: «هذا ما يحدث عندما يكون الأمر مقدرًا. كل شيء يجتمع ويتدفَّق بطريقة انسيابية، مثل نصٍّ نثريٍّ جيد. مرحبًا بك في عالم الكتابة سيد ريتشارد فلين».

قلت بتشكُّك: «دعينا ننتظر ونرَ ما سيحدث. أتساءلُ ما إذا اخترتُ القصص بشكلٍ جيد، وهل سيتكلَّف حتى عناء تفحُّصها. ربما تكونُ بالفعل في سلَّة المهملات».

كانت قصيرةَ النظر، وعندما لا ترتدي نظَّارتها كانت تُضطَرُّ إلى تضييق عينيها لتستطيع الرؤية، مما جعلها تبدو غاضبة. رمقتني بهذه الطريقة، مع تقطيبِ حاجبيها، وأخرجت لسانها لي.

- لا تكن متشائمًا عنيدًا! المتشائمون يثيرون أعصابي، خاصةً عندما يكونون شبابًا. كلَّما جرَّبتُ شيئًا جديدًا في طفولتي، كان والدي لا

يكفُّ عن الحديث عن كم الصعوبات التي تقفُ بيني وبين حلمي، والتي لن أتمكَّن من تجاوزها.

أعتقد أن هذا هو السبب في أنني تخلَّيت عن الرسم في الخامسة عشرة، رغم أنّ مُعلِّمي قال: إنني موهوبة للغاية. وعندما ذهبتُ إلى أول مسابقة رياضيات دولية، والتي أُقيمت في فرنسا، حذَّرني من أن لجنة التحكيم ستنحازُ لصالح المشاركين الفرنسيين، لذا لا ينبغي أن أرفع آمالي.

- وهل كان مُحقًّا؟ هل انحازوا لصالحِ أكلة الجُبن؟

- إطلاقًا. لقد فزتُ بالمركزِ الأول، وجاء في المركز الثاني طفل من ماريلاند.

تركَت قطعة الجلد على المكتب، ووضعت نظارتها على أنفها، ورفعت ركبتيها إلى صدرها، وضمتهما بذراعيها، كما لو أنَّها شعرت بالبرد فجأة.

- لديَّ شعورٌ بأن الأمور ستسيرُ على ما يرام يا ريتشارد. لقد وُلدت لتكون كاتبًا، فأنا أعلمُ ذلك وأنت أيضًا تعلمه. لكن لا شيء يأتي على طبقٍ من فضة. عندما كنت في السادسة عشرة من عمري، وبعد وفاة والدي، نظرتُ إلى كلِّ الأشياء التي احتفظَ بها في أدراجِ مكتبهِ خلف القفلِ والمفتاح -المكتب الذي رغبتُ دائمًا في التفتيشِ فيه- وجدتُ بين أوراقهِ صورة صغيرة بالأبيض والأسود لفتاةٍ في مثل عمري تقريبًا، بشعرٍ مربوط.

لم تكن فائقة الجمال -بدت عادية- لكنها امتلكت عينين جميلتين. عرضتُ الصورةَ على أمِّي، فأخبرتني بلهجةٍ حادَّة أنها كانت حبيبةَ والدي في المدرسة الثانوية. وقد احتفظ بالصورة لسببٍ ما طوالَ تلك السنوات. هل تفهم ما أقصده؟ بدا الأمر كأنهُ لم يملك الشجاعة الكافية

للاستمرارِ مع تلك الفتاة، والرب يعلم ما السبب، وقد تراكم في داخله الكثير من التعاسة لدرجةِ أنه نشرها من حوله، مثل الحبار الذي يرش الحبر ليخبئ نفسه. والآن، اخلع هذا البنطال، أيها الكابتن. ألا ترى أن هناك سيدة عارية تنتظرك؟

تبيَّن أن لورا على حق.

بعد أسبوعٍ وبينما نتناولُ البيتزا في مطعم إيطالي في شارع ناسو، خطر لي فجأة أن أتصلَ بمكتب «سيجنتشر» في تلك اللحظة. فذهبتُ إلى كشك الهاتف بجوارِ بابِ المرحاض، ووضعتُ بعض القطعِ النقدية في الفتحة، واتصلتُ بالرَّقم الموجود على بطاقة العمل التي احتفظتُ بها منذ المحاضرة. أجابتني شابة فطلبتُ السيد هارتلي، وأخبرتها من أكون. وبعد بضعِ ثوانٍ، سمعتُ صوتَ المحرِّر في الطرف الآخر من الخط.

ذكَّرتهُ بنفسي، ودخل في صُلبِ الموضوع مباشرةً: «أخبار جيدة يا ريتشارد. سأدرجكَ في العددِ القادم، والذي سيصدُر في يناير. سيكونُ عددا قويًّا. إذ يزدادُ لدينا عددُ القراء بعد العطلات. لم أغيِّر حتى فاصلة واحدة».

شعرتُ بالذُّهول.

- أيَّ قصةٍ اخترت؟

- القصص قصيرة، لذا قرَّرتُ نشرَ الثلاث كلها. سأخصِّصُ لكَ خمسَ صفحات. وبالمناسبة، سنحتاجُ إلى صورةٍ لك، بالأبيض والأسود، وبصيغة بورتريه. كما نحتاجُ إلى سيرة ذاتية مختصرة.

قلت: «يبدو الأمر لا يصدَّق....»

ثم تمتمتُ بشكري.

- لقد كتبت قصصًا جيدة جدًّا، ومن الطبيعي أن يتمَّ قراءتها. أودُّ أن نلتقي بعدَ العُطلات حتى نتعرَّف على بعضِنا البعض بشكلٍ أفضل. إذا واصلتَ على هذا المنوال، فمستقبلكَ سيكونُ واعدًا يا ريتشارد. أتمنَّى لكَ عطلة سعيدة. مسرورٌ أنني استطعتُ أن أقدِّم لك بعضَ الأخبارِ الجيِّدة.

تمنيتُ له عطلة سعيدة، وأغلقتُ الهاتف.

قالت لورا عندما جلست مجددًا إلى طاولتنا: «أنت مشرق. أخبار جيدة؟».

قلت: «سوف ينشرون القصص الثلاث كلها في يناير. الثلاث كلها، هل تتخيلين! في سيجنتشر!»

لم نحتفل بالشمبانيا. ولم نذهب حتى إلى مطعمٍ فاخر. قضينا المساء في المنزل، كلانا فحسب، نضعُ خططًا للمستقبل. شعرتُ وكأنَّ النجوم قريبة بما يكفي لنمدَّ أيدينا ونلمسها. وكلمات مثل «مجلة سيجنتشر»، «ثلاث قصص قصيرة»، «صورة بالأبيض والأسود»، و«كاتب ينشر أعماله» دارت في رأسي كالدوامة، وشكَّلت هالةً غير مرئية من المجدِ والخلود.

اليوم، أُدركُ أنني في تلكَ اللحظة كنت غارقًا في التغييرِ المفاجئ الذي حدث في حياتي، وأنني بالغت في أهمية ذلك من كل النواحي – فلم تكن مجلة سيجنتشر بقيمة مجلة نيويوركر، وكان كتَّابها يُدفع لهم بالنسخ المجانية بدلًا من الشيكات. ما لم ألحظهُ في ذلك الوقت هو أن شيئًا ما في لورا أيضًا قد تغيَّر في الأيامِ القليلة السابقة. وبالنظر إلى الوراء، فقد بدت بعيدة، ومنشغلة دائمًا بشيءٍ ما، وبدأ حديثُها معي يقلُّ شيئًا فشيئًا. وضبطتُّها مرتين أو ثلاثًا، تتحدَّثُ عبر الهاتف بصوتٍ منخفض، وفي كل مرة تغلقُ الخط بمجرد أن تلحظ وجودي في الغرفة.

واصلتُ الذهاب إلى منزلِ ويدر كل يومٍ تقريبًا، أعملُ في كل مرة لمدة ثلاث أو أربع ساعات في المكتبة، والتي بدأت تدريجيًّا تأخذُ شكلًا منظَّمًا، وقضيتُ أمسياتي مع لورا، متخليًّا عن أيِّ نشاطٍ آخر. لكن معظم الوقت كانت تُحضر عملها إلى المنزل، وتجلسُ محنيَّةً على الأرض محاطةً بالكتب، وأكوام من الأوراق والأقلام، مثل شامان يمارسُ طقوسًا سرية. لم نعُد حتى نمارسُ الحب إذا كنتُ أتذكَّر بشكلٍ صحيح. وعلى الرغم من استيقاظي مبكرًا في الصباح، فإنني غالبًا ما وجدتها قد غادرت بالفعل دون إيقاظي.

ثمّ في أحدِ الأيام عثرت على المخطوطة في مكتبة ويدر.

كان هناك خزانة صغيرة أسفل الرفوف المقابلة للباب، وحتى تلكَ اللحظة، لم تُثِر فضولي بما يكفي لفتحها. كنتُ أبحث عن ورق كتابة، لأرسم مخطط الترتيب النهائي للرفوف بجانب الباب، حيث بدأت عملي، ولذلك بدلًا من النزول إلى الأسفل لإحضارِ بعض الورق من مكتب البروفيسور، قررتُ البحث في الخزانة. ففتحتها ووجدتُ رزمةً من الورق، وعدة مجلات قديمة، ومجموعة من الأقلام الرصاص، وأقلام الحبر الجاف، وأقلام التحديد.

بينما أسحبُ ورقة من كومةِ الأوراق، أسقطتها، وتناثرت الأوراق على الأرض في كل مكان. وعندما انحنيتُ لالتقاطها، لاحظتُ أن رأس أحد الأقلام الرصاص في الخزانة بدا كأنهُ محشورٌ في الجدار، مغروسًا في المكان الذي كان من المفترض أن يلتحم فيه جانبان. فانحنيتُ للأمام لألقي نظرة أفضل، وحرَّكتُ الأشياء الأخرى بعيدًا، فاكتشفت أن الجانب الأيسر من الخزانة به جدارٌ مزيف، يفتح ليكشف عن مساحة بحجم دليل هاتف. وفي تلك الفجوة وجدتُ مجموعة من الأوراق داخل ملف من الورق المقوى.

سحبتهُ للخارج، ورأيت أنه لا توجد أي نقوش على الغلاف قد تُعرِّف المخطوطة. وبينما قلَّبتُ الصفحات، لاحظتُ أنها تتعلَّق بعلمِ النفس أو الطب النفسي، لكن لم يكن هناك صفحة تحملُ العنوان أو اسم المؤلف. وبدت الصفحات كأنها كُتبت بأيدي شخصينِ مختلفين على الأقل. وكُتِبَ بعضها بالآلة الكاتبة، والبعض الآخر بخط يدٍ صغير جدًّا بالحبر الأسود، وبعضها كُتِبَ بخطوط يد أخرى مختلفة، بقلم أزرق جاف، وبأحرف كبيرة مائلة إلى اليسار. الصفحات المكتوبة بالآلة الكاتبة، والأخرى المكتوبة باليد جميعها مكتظَّة بالتصحيحات، وفي بعض الأماكن، أُرفِقَت إضافات لفقرة أو اثنتين على الصفحات بشريط لاصق شفاف.

تساءلت عما إذا كانت هذه مسودة (أو إحدى المسودَّات) لكتاب البروفيسور ويدر الشهير الذي أخبرتني عنه لورا، أو مخطوطة لعمل أقدم نُشر بالفعل. قرأتُ أول صفحتين بسرعة، واللتين كانتا زاخرتين بالمصطلحات العلمية غير المألوفة بالنسبة لي، ثم أعدتُ المخطوطة إلى مكانها، مع الحرصِ على ترتيب الأشياء بنفس الطريقة التي وجدتها بها تقريبًا. حيث لم أرغب أن يلاحظَ ويدر اكتشافي لمخبئه السرِّي أو عبثي بمنزله.

فقدتُ الإحساسَ بالوقت في أحد المساءات. وعندما نزلتُ إلى الطابق السفلي اصطدمتُ بالبروفيسور، يتحدَّثُ مع ديريك. ثمَّ غادر ديريك، ودعاني ويدر للبقاء لتناول العشاء. كان متعبًا، وبدت عليهِ الكآبة والانشغال. هنَّأني مرارًا على قبول قصصي للنشر، وهو ما علمه من لورا على الأرجح، لكنه لم يسألني عن مزيد من التفاصيل، وكان ليسعدُني مشاركتها. بدأ الثلج في التساقط بكثافة، وفكَّرتُ أنه من الأفضل أن أرحل، حيث قد تُغلق الطرق، لكنني لم أستطع رفض دعوته.

اقترح ويدر: «لماذا لا تطلب من لورا المجيء؟ هيا، أنا مُصرٌّ. لو علمتُ أنك هنا، لدعوتُها بنفسي. لقد كنا نعملُ معًا اليوم».

وبينما يبحثُ عن بعضِ شرائح اللحم في الثلاجة، خرجتُ إلى الردهة واتصلتُ بالمنزل. أجابت لورا على الفور تقريبًا، وأخبرتها أنني في منزل ويدر، وأنه دعانا لتناولِ العشاء. مكتبة سُر مَن قرأ

سألت بنبرةٍ عدوانية: «هل هو من اقترحَ أن تتصلَ بي؟ أين هو الآن؟».

- في المطبخ. لماذا؟

- لا أشعرُ أنني بخير يا ريتشارد. الطقسُ سيء، وأنصحك بالعودة إلى المنزل بأسرع ما يمكن.

لم أصِرَّ. وأخبرتُها قبلَ أن أُنهي المكالمة أنني سأعودُ بأسرعِ ما يمكن.

رمقني ويدر بنظرةِ استغرابٍ عندما عُدتُ إلى غرفة المعيشة. وقد خلعَ سترته، وارتدى مئزرًا أبيضًا، مكتوبًا عليه بالأحمر: «لا أعرفُ ماذا أفعل». وبدا لي أنه فقد وزنًا، وكانت الهالات السوداء تحت عينيه أغمق من أيِّ وقتٍ مضى. وبدا وجهه، الذي اكتسى بأضواء النيون الحادة القادمة من المطبخ، أكبر بعشر سنوات، وكأن الهدوء والثقة اللذان كانا يميِّزانه ليلةَ لقائنا للمرة الأولى تلاشيا لتحلَّ محلهما ملامح أشبه بشخصٍ مطارد.

- حسنًا، ماذا قالت؟

- قالت: إنها لا تشعرُ برغبةٍ في الخروج في هذا الطقس. و.

قاطعني بإشارة: «كان بإمكانها على الأقل التعلل بعُذرٍ أفضل».

أخذ واحدة من شرائح اللحم، وأعادها إلى الثلاجة، ثمَّ أغلقَ الباب بعنف.

- يمكن للنساء أن يقلن إنَّهن متوعِّكات، أليس كذلك، دون الخوض في التفاصيل؟ إنه أحد امتيازاتهن الكبرى في الحياة. اذهب إلى القبو من فضلك، واختر زجاجة نبيذٍ أحمر. فنحنُ على وشكِ أن نعيشَ عشاءً حزينًا لعازبين وحيدين. لا أحد منا يشجِّعُ كرة القدم، لكن يمكننا مشاهدة مباراة بعد العشاء، بينما نشربُ الجعَّة، ونتجشَّأ، لنفعل كل ما يُفترض بالرجالِ السعداء فعله.

عندما عُدتُ من القبو مع زجاجةِ النبيذ، كانت شرائحُ اللحمِ تُصدرُ صوت أزيزٍ في مقلاةٍ كبيرة، وويدر يحضِّرُ بعض البطاطس المهروسة الفورية. وإحدى النوافذ مفتوحة على مصراعيها، والرياحُ تهبُّ ناثرةً رقاقات الثلج الكبيرة داخلَ الغرفة، والتي تذوبُ فورًا في الهواء الدافئ. فتحتُ زجاجة النبيذ، وسكبتها في دورق، وفقًا لتعليماته.

قال بعد أن تجرَّع رشفةً كبيرة من الويسكي: «لا أقصدُ الإساءة، لكن لو دعوتُ لورا منذ عام، لجاءت على الفور، حتى لو كانت تُمطرُ حممًا في الخارج. فاستمع إلى نصيحة رجل عجوز يا ريتشارد. عندما تشعر المرأة أن لديك شيئًا تجاهها، ستبدأُ في اختبارِ قوَّتها، وتحاولُ السيطرة عليك».

سألت: «ماذا تقصدُ بـ ‹شيء›؟».

لم يُجب، بل اكتفى بالتحديق إليَّ مطوَّلًا.

تناولنا الطعامَ بصمت. وكان قد طهى شرائح اللحم بسرعة، مما جعلها شبه نيئة، والبطاطس المهروسة متكتِّلة. أنهى زجاجة النبيذ بأكملها تقريبًا وحده، وعندما انتقلنا إلى القهوة، أضاف جرعة كبيرة من

البوربون إلى كوبه وشربها. وفي الخارج، تحوَّلت الزوبعة إلى عاصفة ثلجية عنيفة، تتلاطم بالنوافذ.

بعد العشاء، وضع الأطباق في غسالة الصحون، وأشعل سيجارًا تناوله من صندوقٍ خشبي. ورفضتُ عرضهُ لي، وأشعلتُ سيجارة مارلبورو. دخَّن بتراخٍ لفترةٍ من الوقت، وكأنه نسي وجودي. وبينما أستعدُّ لشكره على العشاء، وإخباره أنني سأغادر، بدأ يتحدَّث.

- ما هي أقدم ذكرى لديك يا ريتشارد؟ أعني من حيث التسلسل الزمني. عادة ما تبدأ ذكريات الشخص من عمر سنتين ونصف، أو ثلاث سنوات.

كان ضوء النيون في المطبخ مضاءً، لكن غرفة المعيشة كانت شبه مظلمة. كان يلوِّح بيديه بينما يتحدَّث، وطرفُ السيجار المشتعل يرسمُ أنماطًا معقدة في الظلام. مَنَحتهُ لحيته الطويلة مظهر نبي توراتي استُنزف منه الوحي، ويحاولُ سماعَ الصوتِ من السماء مرة أخرى. وكان يرتدي حجرًا كريمًا أحمر في بُنصر يده اليمنى، يتلألأ بشكلٍ غامض حينما ينفث من سيجاره. والطاولة بيننا مغطاة بشرشفٍ أبيض كبير، فبدت كسطح بحيرةٍ عميقة وباردة، تفصلُ بيننا بشكلٍ صارخ أكثر من الحائط.

لم أفكر قط في أولى ذكرياتي «بالترتيب الزمني»، كما وصفها. ولكن بعد لحظاتٍ قليلة، بدأت الذاكرة التي أشار إليها تتشكَّلُ في ذهني وشاركتها معه.

- كنت في فيلادلفيا، في بيت عمتي كورنيليا. أنت محق: لا ريب أنني كنتُ في الثالثة من عمري، أو قبل ذلك بشهرٍ، أو نحوه من عيد ميلادي الثالث، في بداية صيف عام 1969. كنتُ في شرفة، بدت لي كبيرة جدًّا، أحاولُ نزعَ لوح خشبي من خزانة خضراء.

وكنتُ أرتدي شورتًا وصندلا أبيض. ثم جاءت أمي وأخذتني من هناك. لا أتذكَّرُ الرحلة بالقطار أو السيارة، ولا داخل بيت عمتي، أو كيف كان شكلها وشكل زوجها في ذلك الوقت. أتذكَّرُ فقط ذلك اللوح والخزانة والشرفة التي كانت أرضيتها من بلاطٍ بلون الزبدة، وأيضًا رائحة طهي قوية، لا ريب أتت من المطبخ، بالقُرب من الشرفة.

- إذًا كنت في الثالثة تقريبًا من عمرك عندما سار أرمسترونج على القمر. هل كان لديكم تلفزيون في منزلكم في ذلك الوقت؟ حدث ذلك خلال ذلك الصيف الذي تتحدث عنه.

- أجل، بالتأكيد. كان لدينا تلفزيون صغير ملون، على حامل في غرفة المعيشة بجوار النافذة. واشترينا لاحقًا واحدًا أكبر، من نوع سوني.

- من المرجَّح أن والديكَ شاهدا هبوطَ القمر، وهو واحدٌ من أهمِّ اللحظات في التاريخ منذ بدءِ الخليقة. هل تتذكَّر أي شيء عن ذلك؟

- أعلمُ أنهم شاهدوا التغطية؛ لأنهم تحدَّثوا عنها لسنواتٍ بعد ذلك. وفي ذلك اليوم، ذهب والدي إلى طبيب الأسنان، وأعدَّت لهُ أمي شاي البابونج ليغرغر به. وبطريقةٍ ما، فقد استطاع أن يحرقَ فمه بالشاي. سمعتُ هذه القصة عشرات المرات. لكنني لا أتذكَّرُ نيل أرمسترونج وهو يقولُ كلماتِهِ الشهيرة، أو وهو يتنقَّلُ كدمية بيضاء كبيرة على سطح القمر. رأيتُ ذلك المشهد لاحقًا، بالطبع.

- أرأيت؟ لم يكن الهبوط يعني أي شيءٍ على الإطلاق بالنسبة لك في ذلك العمر. قطعة صغيرة من الخشب كانت أكثر أهمية بالنسبة لك، أيًّا كان السبب. ولكن ماذا لو اكتشفت أنَّك لم تذهب قط إلى

فيلادلفيا، وأن كل ذلك كان مجرد صورة اختلقها عقلك بدلًا من كونها ذكرى حقيقية؟

- لقد خُضتُ مثل هذه المحادثات مع لورا. ربما تكونُ بعض الذكريات نسبية، وربما تتغاضى ذكرياتنا عن بعض الأمور أو حتى تغيِّرها، لكنني أعتقدُ أنها مسألة نسبية بدرجةٍ ما فحسب.

قال لي: «ليست نسبية بدرجةٍ ما، دعني أُعطيكَ مثالًا. في صِغَرِك، هل ضعت يومًا في مركز تسوِّق بينما والداك يتسوَّقان؟».

- لا أتذكَّر شيئًا كهذا.

- حسنًا، في الخمسينات والستينات، عندما بدأت المراكز التجارية تظهر في كل مكان لتحلَّ مكان محلات الحي، كانت إحدى المخاوف الدائمة لدى الأمهات هو أن يفقدنَ أطفالهنَّ في الزحام. لذا فالأطفال من ذلك الجيل تربَّوا في ظِل ذلك الشبح، وكان يُطلَب منهم على الدوام أن يبقوا قريبين من أمهاتهم خلال التسوُّق خارجَ المنزل. وظلَّ الخوف من الضياع أو الاختطاف في المول مطبوعًا في أعمقِ ذكرياتهم، حتى لو لم يتمكَّنوا من تذكر أي شيء عن ذلك بوعي.

نهضَ وسكبَ كوبين من البوربون، ووضعَ أحدهُما أمامي قبلَ أن يجلسَ مرَّة أخرى. ومج سيجاره، وشرب رشفة من الويسكي، ناظرًا إليَّ وكأنه يدعوني لفعل الشيء نفسه، ثم تابع: «قبلَ بِضعِ سنوات، أجريتُ تجربة. فأخذتُ عيِّنة من الطلاب المولودين في تلكَ الفترة. لم يستطع أيٌّ منهم تذكُّر أنه ضاع في مركز تسوق عندما كان طفلًا. ثم اقترحتُ عليهم تحت التنويم المغناطيسي أنهم ضاعوا بالفعل. ماذا الذي تظن أنه حدث؟ ثلاثة أرباعهم أعلنوا فيما بعد أنهم يتذكرونَ ضياعهم في مركز تسوِّق، بل ووصفوا التجربة: كيف كانوا خائفين، وكيف عثر عليهم الموظفون،

وأعادوهم إلى أمهاتهم، وكيف كانت هناك إعلانات بمكبِّرات الصوت عن العثور على تومي أو هاري بالقربِ من الكافيتيريا. ومعظمهم رفضوا التصديق أن الأمر كان مجرد اقتراح تنويمي مقترن بمخاوف طفولتهم القديمة. لقد «تذكَّروا» الحدث بشكل جيد للغاية لدرجة أنهم لم يتمكنوا من تصديق أنه لم يحدُث قط. أما إذا اقترحتَ على شخصٍ ولد وترعرعَ في مدينة نيويورك تعرُّضهُ لهجومٍ من تمساحٍ في طفولته، على سبيل المثال، فإن النتيجة على الأرجح ستكون معدومة، لأنه ليس لديه ذكرى من الطفولة عن الخوف من التماسيح».

سألت: «ما الذي تحاولُ الوصول إليه؟».

لم أشعر برغبةٍ في شرب المزيد، وكانت رائحة الخمر وحدها كافية لجعلي أشعر بالغثيان بعد العشاء الذي أجبرتُ نفسي على تناوله. وكنت متعبًا، وأتساءل باستمرار ما إذا كانت الحافلات لا تزالُ تعمل.

- ما الذي أحاولُ الوصولَ إليه؟ حسنًا، ما أحاول الوصول إليه هو أنه عندما سألتك عن ذكرى من طفولتك، أخبرتني عن شيءٍ آمن وعادي، طفل يلعب بقطعة خشب على شرفة. لكن العقل لا يعمل هكذا مطلقًا. لا ريب أنّ هناك سببًا قويًّا يجعلكَ تتذكَّر ذلك، وليس شيئًا آخر، إذا افترضنا أنه حقيقي. ربما كان في اللوح مسمار وجرحت نفسك، حتى لو لم تعد تتذكَّر ذلك الجزء بعد الآن. وربما كانت الشرفة في طابق علوي وهناك خطر سقوطك، وصرخت والدتك حين وجدتكَ هناك. عندما بدأت التعامل مع...

توقف، وكأنه كان يتساءل عما إذا كان ينبغي له الاستمرار. وعلى الأغلب قرَّر أنه يجب أن يستمر، فقال: «بعضُ الناس يمرُّون بتجارب مؤلمة للغاية، والتي تتحوَّلُ مع مرورِ الوقت إلى عوائق حقيقية. وهو ما يمكن تسميته بـ ‹متلازمة الملاكم›: بعد أن تكادُ تفقد حياتك في

الحلبة، يصبح من المستحيل أن تجد الحافز الكافي لتصبحَ بطلًا إذ أنَّ غريزةَ الحفاظِ على النفس تصبح مُثبِّطًا قويًّا. لذا، إذا أمكَنَ إقناعُ مجموعة من الطلاب بأنهم ضاعوا مرة في مركز تجاري، فلماذا لا يمكن إقناع شخص مرَّ بتجربة حقيقية بأنَّ الحدث المؤلم لم يحدُث فعليًّا، وأن والدتهُ اشترت لهُ لعبة جديدة في ذلك اليوم؟ أنت لا تلغي تأثير الصدمة، ولكنك تزيلُ الصدمة نفسها».

قلت: «بعبارةٍ أخرى، أنتَ تذبحُ ذاكرة شخصٍ ما». لكنني ندمتُ فورًا على الطريقة الصريحة التي قلتها بها.

- إذا وافق عددٌ كبير من الناس بإخضاعِ أنفسهم لمشرط الجراح من أجل الحصول على صدور، وأنوف، ومؤخرات أكثر جاذبية، فما الخطأ في الجراحة التجميلية للذاكرة؟ خاصةً إذا كنا نتعامل مع أشخاص ليسوا أفضل حالاً من ألعاب مكسورة، وغير قادرين على أداء وظائفهم بعد الآن، أو العمل بشكل صحيح.
- أليس ما تتحدَّثُ عنه هو غسيل الدماغ؟ وماذا يحدث عندما تعودُ الذكريات إلى السطح في الوقتِ الخطأ؟ ماذا لو عادَ فجأةً الانسداد الذي عانى منهُ متسلِّق الجبال، وهو معلَّق بحبلٍ على ارتفاع ثلاثة آلاف قدم؟

نظر إليَّ بدهشة وقليلٍ من القلق. فحتى تلكَ اللحظة كانت نبرتهُ متعالية إلى حدٍّ ما، ولكن بعد ذلك لاحظتُ نبرة خوفٍ اختلطت مع دهشته.

- هذا سؤالٌ جيد جدًّا. أرى أنك أذكى مما اعتقدت - لا أقصدُ الإساءة. إذًا، أجل، ماذا يحدثُ في مثلِ هذا الوضع؟ ربَّما سيُحمِّلُ البعض الشخص الذي ‹ذبح› عقل المتسلِّق المسؤولية، على حد قولك.

رنَّ الهاتف فجأةً، لكنه لم يُجِب عليه، وتساءلتُ ما إذا كانت لورا. ثمَّ غيَّرَ الموضوع فجأة، بطريقته المعتادة. ربما اعتقَدَ أنه أفصحَ عن تجاربِهِ أكثرَ من اللازم.

- يؤسفُني أنَّ لورا لم تستطع المجيء. ربَّما كنا سنخوضُ محادثةً ألطف. كما تعرف، أنا على علمٍ بعلاقتك، لذا لا داعي للكذب عليَّ بشأنها بعد الآن. أنا ولورا لا نخفي أسرارًا عن بعضنا البعض. لقد أخبرتك عن تيموثي، أليس كذلك؟

كنتُ أعلم أنه لا يخادعُني، لذلك أخبرتهُ أنه على حق. وشعرتُ بالحرج لأنني قُبِضَ عليَّ متلبسًا، وقلتُ لنفسي: إن الرابط بينه وبين لورا أعمق مما ظننت، ويجمعهم مكانٌ سرِّي لم يُسمح لي بدخوله حتى كضيف، رغم توهُّماتي.

قال: «عندما سألتُك عن طبيعةِ علاقتك، كنتُ قد علمتُ بالفعل أنكما على علاقة. كان الأمر مجرد اختبار».

- وقد فشلت فيه.

قال لي مطمئنًا: «لنقل إنك اخترتَ أن تكونَ متحفِّظًا، وأنني تعديتُ حدودي. ما مدى أهمية لورا بالنسبة لك؟ أو بالأحرى، ما مدى أهميتها في اعتقادك؟».

- في غاية الأهمية.

لاحظ: «لم تتردَّد. فلنأمل إذًا أن تسير الأمور على ما يرام بينكما. هل سألك أي شخص عن زياراتك إلى هنا حتى الآن؟».

- لا.

- إذا سألَ أيُّ شخص، أخبرني على الفور، مهما يكُن السائل، هلا فعلت ذلك؟

- بالتأكيد.

- عظيم، شكرًا.

قررتُ أن ألعب لعبته، لذا هذه المرة غيَّرتُ الموضوع فجأة.

- هل سبق لك الزواج؟

- سيرتي الذاتية معلنة يا ريتشارد. أنا مندهش أنك لم تقرأها من قبل. لا، لم أتزوَّج قط. لماذا؟ لأنني في شبابي كانت الدراسة وبناء مسيرة وظيفية هو كل ما يهمُّني، وهو شيءٌ حدثَ متأخرًا بعض الشيء. عندما يلتقي شخصان في شبابهم ويكبُرانِ معًا، يصبحُ من السهل عليهما التعايش مع عادات وزلّات بعضهم البعض. بينما يصبح الأمر شبهَ مستحيل عندما تكبر. أو ربما لم ألتقِ بالشخص المناسب فحسب. كنتُ مغرمًا بفتاةٍ، بدرجةٍ لا توصف، لكنَّ الأمرَ انتهى على نحوٍ سيئ.

- لماذا؟

- هل تودُّ لو أخبركَ أيضًا بالرَّمزِ السرِّي للخزنة؟ هذا يكفي لهذه الليلة. هل تريدُ أن تعرفَ ما هي أولى ذكرياتي؟

- أشعر أنني على وشكِ المعرفة.

- شعوركَ صحيح، يا صديقي. يبدو أنك تصلحُ وسيطًا روحيًّا. حسنًا، لم أكن جالسًا في شُرفة أحاولُ كسرَ لوحٍ خشبي. كنت في فناءٍ كبير مليء بالورود، في بدايةِ صيفٍ جميل والشمسُ مشرقة. كنتُ واقفًا بجوارِ شجيرات ورد، ذات زهورٍ حمراء كبيرة، وعند قدمي قطة مخططة. وكان هناكَ رجلٌ طويل ووسيم - جميع البالغين يبدون طويلين جدًّا حين تكونُ طفلًا صغيرًا - انحنى باتِّجاهي وقال لي شيئًا. كان يرتدي زيًّا داكنًا، ومعلقًا على صدره

عدة ميداليات، وجذبت واحدة منها انتباهي أكثرَ من غيرها، ربما لأنها كانت لامعة جدًّا. أظنُّها كانت فضية، وعلى شكل صليب. ذلك الشاب، بشعره الأشقر ذو القَصَّة العسكرية، اهتمَّ بي وكنتُ فخورًا بذلك للغاية.

هذه هي ذكراي، التي لازلتُ أراها بوضوح أمام عينيَّ. ولدت في ألمانيا، إذا كنت لا تعلم، وأنا يهودي. وجئتُ إلى أمريكا مع أمي وأختي في الرابعة من عمري. وأختي إنجي كانت لا تزالُ طفلة رضيعة. أخبرتني أمي فيما بعد أنه في ذلك اليوم «زارنا» بعض جنود كتيبة العاصفة، وضربوا والدي بعُنفٍ شديد؛ وتوفي في المستشفى بعد بضعة أيام. ولكن تلك الذكرى، التي أخفت حدثًا مؤلمًا للغاية، بقيت قابعة في ذهني. أفضِّلُ الاحتفاظ بذكرياتي، كما تعلم، مهما كانت مؤلمة. أحيانًا أستخدمُها كما يستخدمُ الكاثوليك حزام الشعر: إنهُ قاسٍ، وتربطه حول خصرك أو فخذك. يساعدني ذلك على ألا أنسى أبدًا ما يمكن أن يفعلهُ بعضُ البشر الذينَ يبدونَ طبيعيين، وأنه خلف المظاهر تختبئ الوحوش أحيانًا.

نهض، وأشعلَ الضوء الذي أذهل عيناي وجعلني أقشَعِر. وتوجَّه نحو النافذة، وأغلق الستارة.

قال: «إنها جحيمٌ في الخارج. والساعة تقترب من منتصفِ الليل. هل أنت متأكِّد أنك لا تريدُ المبيت الليلة؟».

قلت: «لورا ستقلق».

أجاب مشيرًا إلى الرُّدهة: «يمكنك الاتصال بها. أنا متأكِّد أنها ستتفهم».

- لا، لا بأس، سأتدبَّر الأمر.

- سأطلب لك سيارة أجرة إذًا. وسأدفعُ الحساب. إنه خطئي أنك بقيتَ حتى هذه الساعة.

قلت: «كانت محادثة مثيرة للاهتمام».

قال وهو يتوجَّهُ نحو الردهة للاتصال بسيارة أجرة: «كما قلتُ لكَ من قبل، لا داعي للكذب».

في الحقيقة، لم أكذب. غالبًا كان أكثر الأشخاص الذين قابلتهُم إثارةً للاهتمام حتى ذلكَ الوقت، ليس بسبب سمعته وشهرته فحسب، بل أيضًا بسبب جاذبيتِهِ الشخصية التي لا يُمكن إنكارها. ولكن في الوقت نفسه، بدا دائمًا محبوسًا داخل نوعٍ من الكبسولاتِ الزجاجية، مسجونًا فيها بسبب عدم قدرته على تقبُّل أن الآخرين ليسوا مجرد دمى جورب في ألعاب عقله الملتوية.

توجَّهت نحو النافذة. حيث بدا الثلج كمجموعةِ أشباحٍ تدورُ في وهَجِ الضوء في الشرفة. ثمَّ، فجأة، ظننتُ أنني رأيتُ هيئة ما في الظلام، على بُعد عشرة أقدام من النافذة، يندفعُ إلى اليسار، خلف أشجار الماغنوليا العالية، التي كانت أغصانها مُثقلةَ بالثلج. كنتُ شبه متأكِّد أنني لم أتخيَّله، رغمَ أنَّ الرؤية كانت ضعيفة جدًّا بسببِ الظلام، لكنني قررتُ ألا أذكرَ الأمر لويدر: بدا عليهِ التوتر بما يكفي بالفعل.

استطاعَ العثور على سيارة أجرة بعد عدة محاولات، واستغرقَ وصولي أمام منزلي أكثر من ساعة. حيثُ ألقتني سيارةُ الأجرة في الثلج قرب النصب التذكاري، ومن هناك تابعتُ سيرًا على الأقدام، غارقًا حتى رُكبتَيَّ في أكوامِ الثَّلج، والرياح الباردة تضربُ وجهي.

بعد عشرينَ دقيقة كنت جالسًا على الأريكة مع لورا، ملفوفًا ببطانية، وأمسكُ بكوب شاي ساخن.

فجأةً قالت: «جاء تيموثي قبل ثلاثِ ساعات. لم تستخدم قط الأسماء المختصرة - تيم أو تيمي - كما لم تنادني ديك أو ريتشي قط. وأعتقدُ أنه ينوي الاستمرار في المضايقات. لا أعرفُ ما الذي عليّ فعله».

- سأتحدَّثُ معه. أو ربما علينا الاتصالُ بالشرطة كما أخبرتك من قبل.

قالت بسرعة، دون أن تحدِّد الخيار الذي كانت تُشيرُ إليه: «لا أعتقدُ أنه سيُفيد».

- من المؤسفِ أنَّك لم تكُن في المنزل. كان بإمكاننا حلُّ الأمر في الحال.

- أصرَّ ويدر أن أبقى لتناولِ العشاء.

- وكان عليك الموافقة، أليس كذلك؟ عماذا تحدثتم؟

- أشياء عن الذاكرة، شيءٌ من ذاك القبيل. ما رأيك أن تشرحي لي لماذا انقلبتِ عليه مؤخرًا؟ لولاكِ، لما تعرَّفتُ إليه. لقد عرضَ عليَّ وظيفة. إنه بروفيسور محترم، وكل ما فعلته هو أني كنتُ مهذبًا، خاصةً مع علمي أنكِ تقدِّرينَ علاقتكِ به. أنتِ من أصرَّ أن ألتقيه، أليس كذلك؟

كانت تجلسُ على السجادة الصغيرة أمام الأريكة، وساقاها متقاطعتان، كما لو أنها على وشكِ ممارسة التأمُّل. وارتدت إحدى قمصاني، ذلك الذي يحملُ شعارَ فريقِ جاينتس، ولاحظتُ لأوَّل مرة أنها فقدَت بعضَ الوزن.

اعتذرت عن نبرتها، ثم أخبرتني أن والدتها اكتشفت كتلة في ثديها الأيسر. وذهبت إلى الطبيب، والآن تنتظرُ نتائجَ التصوير الشعاعي للثدي. لم تخبرني بالكثيرِ عن عائلتها - بضعُ مقتطفات وذكريات

متفرِّقة فحسب- ولم أتمكَّن قط من تكوين صورة واضحة من القطع المتناثرة التي أظهرتها لي، رغم أنني أخبرتُها بكلِّ شيءٍ عن عائلتي. كنتُ أفكِّر في قضاءِ العطلة مع أمي وأخي، عيد الميلاد الأول من دون أبي. فدعوتُها، لكنَّها قالت: إنها تفضّلُ الذهاب إلى إيفانستون. لم يتبقَّ سوى بضعةِ أيام، وكنتُ أشعرُ بالفعل بالطَّعم المُر للفُراق؛ ستكونُ هذه أطولَ فترةٍ نقضيها متباعدين منذُ لقائنا.

في اليوم التالي، قمتُ بالتقاط صورةٍ لي لمجلة «سيجنتشر» في استوديو صغير في وسط المدينة. وبعد بضع ساعات تسلمتُ الصور، وأرسلتُ اثنتين منها إلى عنوانِ المجلة، واحتفظتُ بالصورتينِ الأخريين: واحدة لأجلِ لورا وواحدة لأمي. ولكنني نسيتُ إخراجهم من حقيبة كتفي قبل أن أغادرَ لقضاءِ العطلة، لذا لم أتمكَّن قط من إعطاءِ لورا الصورة التي نويتُ إهداءها إليها. ولاحقًا، في إيثاكا، عندما تذكرتُ الصور، اكتشفتُ اختفاءها.

بحلولِ الوقت الذي صدرت فيه المجلة، في نهاية يناير، كنتُ قد بدأتُ التعرُّض للمضايقة من قِبَل المحقِّقين والصحفيين، لذلك غيرتُ عنواني، ولم تصلني النُّسخ المجَّانية من المجلة، والتي أُرسلت إليَّ عبرَ البريد. لم أرَ ذلك العدد من مجلة «سيجنتشر» إلا بعد خمسة عشر عامًا، عندما أهداني أحدُ أصدقائي نسخة منها. عثرَ عليها في مكتبة للكتب المستعملة في مورتل أفنيو، في بروكلين. ولم أتحدَّث إلى المحرِّر مرة أخرى. ولم أعرف إلا مصادفةً في بداية الألفينات، أنه توفي في حادث سيارة على الساحل الغربي في صيف 1990.

كما قد تقولُ لورا، ربما كان تلاشي المجلة ومسيرتي الأدبية من يدي علامة. بعد ذلك، لم أنشر أي شيء مرة أخرى، رغم أنني واصلتُ الكتابة لفترة.

أُغتيلَ البروفيسور جوزيف ويدر في منزله بعدَ بضعةِ أيامٍ من العشاء الذي تناولناهُ معًا، في ليلة 21-22 ديسمبر 1987. ولم تتمكَّن الشرطة من العثور على الجاني، رغم التحقيقات الواسعة، ولكن لأسبابٍ ستكتشفُها أدناه، كنتُ واحدًا من المشتبهِ فيهم.

ستة

قال أحدهم ذات مرة: إن بداية القصة ونهايتها لا وجود لهما حقًّا. إنهما مجرد لحظات يختارُها الراوي بشكل شخصي، ليُتيحَ للقارئ الاطِّلاع على حدثٍ بدأ في وقتٍ ما مضى، وسينتهي في وقتٍ ما لاحقًا.

بعد مرور ستة وعشرين عامًا، تغيَّرت وجهةُ نظري. إذ كنتُ على وشك اكتشاف الحقيقة حول أحداث تلك الأشهر... لم أكن أبحثُ عن هذا التغيير، لكنه أصابني كرصاصةٍ طائشة.

تساءلتُ لفترةٍ من الزمن، متى بالضبط تحطَّمت علاقتي مع لورا، وربَّما تحطَّمت معها حياتي بأكملها، أو على الأقل الطريقة التي حلمتُ دائمًا بالعيش بها حتى ذلك الحين. بشكلٍ ما، كان ذلك عندما اختفت من المنزل، في صباحِ اليومِ التالي لاغتيالِ ويدر، دون أن تقولَ وداعًا، ولم أرها مجددًا.

لكن في الحقيقة، كانت الأمور بدأت تتدهور بعد الليلةِ التي تناولتُ فيها العشاء في منزل البروفيسور مباشرةً.

تمامًا كما يحدُث في الجبالِ المغطاة بالثلوج، حيثُ يمكن لصوتٍ واحد، أو حجرٍ يسقط أن يثير انهيارًا جليديًّا كبيرًا يجرفُ كلَّ شيء في طريقه، كان لواقعة تبدو تافهة أن تنسف كلَّ ما اعتقدتُ أنني أعرفهُ عن لورا، وفي نهاية المطاف، عن نفسي.

في عطلة نهايةِ الأسبوع تلك، قرَّرتُ الذهاب إلى نيويورك مع أحد المعارف، بيني ثورن، والذي كان قد طلبَ مني مساعدتهُ في نقل بعض أغراضه، والمبيت في منزلِه هذه الليلة. كان ينتقلُ إلى شقة مفروشة من غرفة نومٍ واحدة، وعليه التخلُّص من بعض المتعلَّقات الفائضة التي لم يتمكَّن من بيعها. أخبرتني لورا بأنها لا تريدُ قضاء الليلة وحيدة، لذا ستبيتُ عند صديقةٍ لها، وتعملُ على أطروحتها. واسمُ الصديقة كان سارة هاربر، وتعيشُ في روكي هيل. كنتُ قد أحرزتُ تقدمًا أسرع من توقعاتي في مكتبة ويدر، لذا ظننتُ أن باستطاعتي الاستغناءَ عن الذهاب إلى هناك في عطلة نهاية الأسبوع التي تسبق أعياد الميلاد.

لكن بيني انزلق على الجليد، وكسر ساقهُ وهو يُحمِّل أغراضه في شاحنة مستأجرة، قبل ساعة من موعد أخذه لي. لذا لم يظهر للقائي، ولم يُجب هاتفه عند اتصالي به. فتركتُ له رسالة، وعُدتُ إلى المنزل، وانتظرتُ مكالمته. بعد ساعة، وبعد أن وضع الأطباء جبيرة لساقه، اتصلَ من المستشفى، وأخبرني أننا سنُضطَّر إلى تأجيلِ الرَّحيل، واللجوءِ للخطة ب، والتي تضمَّنت استئجارَ وحدة تخزين بالقربِ من المطار ونقلَ أغراضه إلى هناك.

اتصلتُ بشركة التخزين، ووجدت أنه من الممكن استئجار وِحدة بمبلغ عشرين دولارًا في الشهر، لذا قضيتُ بقية اليوم في تحميل الصناديق في الشاحنة، ونقلها إلى وحدة التخزين، ثم إعادة الشاحنة إلى شركة التأجير. وفي الوقت نفسه، عاد بيني إلى المنزل في سيارة

أجرة، وطمأنتهُ أن كل شيءٍ على ما يرام. ووعدتهُ بإحضارِ بعض البقالة لاحقًا في تلك الليلة.

لم تترك لورا رقم هاتف صديقتها، لذا لم أتمكّن من إخبارها بأنني ألغيتُ الرحلة إلى نيويورك. بحثتُ عنها في الجامعة، لكنها كانت قد غادرت بالفعل. لذا فالشيء الوحيد الذي أمكنني فعله هو العودة إلى البيت. ولكن بمجرَّد وصولي إلى المنزل، قرَّرتُ الذهاب إلى منزلِ ويدر فتركتُ لها ملاحظة، في حال عادت إلى البيت. كانت مفاتيحُ منزل البروفيسور محفوظة في جرَّة فارغة على البوفيه، إلى جانب بعض العملات المتناثرة، وبينما أستعدُّ للمغادرة، رنَّ جرسُ الباب.

عندما فتحتُ الباب، رأيتُ رجلًا في مثل سني تقريبًا، طويلًا، ونحيفًا وهزيلًا. وكان يرتدي سترةً من التويد، وشالًا أحمر طويلًا فحسب، رغم البرد الشديد وتساقط الثلوج، مما جعله يبدو كرسَّام فرنسي.

بدا متفاجئًا عندما فتحتُ الباب، ولم يقُل شيئًا لبضعِ لحظات، بل حدَّق إليَّ فحسب، ويداهُ مدسوسةٌ في جيوبِ بنطاله المخمليِّ.

سألتُ، متأكدًا من أنه لا ريب قد أخطأ في العنوان: «هل يمكنني مساعدتك؟».

تنهَّد ورمقني بنظرةٍ حزينة.

- لا أعتقدُ ذلك...

- هناك طريقة واحدة لمعرفةِ ذلك.

قال: «أنا تيموثي ساندرز، وكنت أبحثُ عن لورا».

جاء الآن دوري لأحتار بشأن الخطوةِ التالية. مرَّت عدة خيارات في ذهني. كان الأول أن أُغلق الباب في وجهه؛ والثاني أن أعطيه محاضرة

توبيخية قبل أن أُغلقَ البابَ في وجهه، والأخير أن أدعوهُ إلى الداخل، وأُلهيه، وأتَّصل بالشرطة بهدوء، ثم أتَّهمه بالتحرُّش عند وصول الدورية.

ولكن أدهشني من نفسي، أن قلتُ ببساطة: «لورا ليست في المنزل، لكن إذا أردت، يمكنك الدخول. أنا ريتشارد، صديقها».

- أعتقد أن...

بدأ الكلام. ثم تنهَّد مرة أخرى، ونظر حوله -كان الظلامُ قد بدأ يخيِّم- ثم دخل، بعد أن نفض الثلج عن حذائه على دواسة الباب.

توقَّف في منتصف غرفة المعيشة، وقال: «مكان لطيف».

- قهوة؟

- لا، أنا بخير. هل تمانعُ لو دخنت؟

- نحن لا ندخِّن بالداخل، ولكن يمكننا الذهابُ إلى الفناء الخلفي. لن أمانع تدخين سيجارة أنا أيضًا.

فتحتُ الباب الزجاجي، ولحق بي إلى الخارج وهو يفتِّش في جيوبه عن سيجارة. أخرج في النهاية علبة مهترئة من سجائر «لاكي سترايك»، وأخذ سيجارة، وانحنى ليُشعلها.

قلت: «يا رجل، أخبَرَتني لورا عنك».

رمقني بنظرةٍ انهزامية.

- اعتقدتُ أنها فعلت.

- أخبرتني عن علاقتكما، واشتكت من مضايقتك لها. وأعلمُ أنك جئتَ إلى هنا قبلَ بضعةِ أيام، عندما لم أكن في المنزل.

قال بصوتٍ حذر: «هذا غيرُ صحيح».

كان يأخذُ نفثاتٍ عميقة من السيجارة حتى إنه أنهاها تقريبًا في أربع أو خمس سحبات. كانت يداهُ بيضاء بشكل غير طبيعي، بأصابع طويلة ورقيقة، وكأنها مصنوعة من الشمع.

أضفت: «كما أعلمُ أنكما كنتما معًا في نيويورك» لكنَّه هز رأسه.

- أعتقد أن هناك خطئًا ما، لأننا لم نكن قط معًا في نيويورك. لأقول لك الحقيقة، لم أذهب إلى هناك منذُ الصيف الماضي. لقد ساءت علاقتي مع عائلتي، والآن عليَّ الاعتناءُ بنفسي. كنتُ في أوروبا لمدَّة شهرين.

حدَّق إليَّ مباشرةً عندما قال ذلك. كان صوتهُ يحمل نفس النبرة المحايدة، وكأنهُ يصرِّح بشيءٍ بديهيٍّ لأي أحد، تمامًا كما هو بديهي أن الأرض ليست مسطحة.

فجأة أدركتُ، بيقينٍ تام، أنه يقولُ الحقيقة، وأن لورا كانت تكذبُ عليَّ. فشعرتُ بالغثيان، وأطفأتُ سيجارتي.

قال، وهو ينظرُ نحو المطبخ: «من الأفضل أن أذهب».

قلتُ، مدركًا أنني لستُ مستعدًّا لإذلال نفسي باستجوابه للحصول على معلومات، رغم أنهُ كان من المغري فعلُ ذلك: «أجل، ربما عليك ذلك».

أوصلتهُ إلى الباب الأمامي. وعند العتبة توقف، وقال: «أنا آسفٌ حقًّا. أعتقدُ أنني أخطأت. أنا متأكِّد من أنه مجرد سوء تفاهم يمكن حلُّه».

كذبت عليه قائلًا: أعتقدُ ذلك أيضًا. وودَّعنا بعضنا، وأغلقتُ الباب من خلفه.

عُدت إلى الفناء الخلفي مباشرةً، حيثُ دخَّنت عدة سجائر متتالية، دون أن أشعرَ بالبرد، ودون أن أستطيعَ التفكير في أيِّ شيء سوى وجهِ

لورا عندما أخبرتني كلَّ تلكَ الأكاذيب. لا أعلمُ السبب، لكنني تذكَّرتُ إحدى الأمسيات الأولى التي قضيناها كعاشقين، حين جلسنا على الأريكة وأنا أمرِّرُ أصابعي بين شعرها، مذهولًا بمدى نعومته. كنتُ الآن أغلي غضبًا، وأفكِّر في طريقة لاكتشافِ مكان سكن تلك السارة.

ثم فجأة قلتُ لنفسي: إن لورا قد ذهبت في الواقع إلى منزلِ ويدر، وإن الحكايةَ عن مبيتها في منزل تلك الصديقة كانت مجرَّد كذبة أخرى.

لكنها لم تأخذ مفاتيح منزل البروفيسور معها. لقد وجدتها على البوفيه، ووضعتهُا في جيبي قبل أن يرِن تيموثي ساندرز جرسَ الباب. لا أعرفُ السبب، لكنني كنتُ الآن على تمام الاقتناع أنها كانت مع ويدر، ولو ذهبتُ إلى هناك فسأجدهما معًا. وأن كل شيء، كل شيءٍ على الإطلاق، كان كذبة كبيرة واحدة، وأنني قد استُغللتُ لهدفٍ لم أتمكَّن من كشفه، ربما مجرد ضحية لتجربة كريهة منحرفة أعدَّتها مع أستاذها.

ربما كانوا يستهزئون بي طوال الوقت، وهم يدرسونني كخنزير تجارب غبي. وربما كان أمرُ المكتبة خدعةً أخرى، مجرد حجَّة لإبقائي هناك لسببٍ مشوَّه. فجأة رأيتُ القصةَ بأكملها من زاوية مختلفة. لا ريب أنني كنتُ أعمى حتى لا أُدرك أن كلَّ ما أخبرتني إياه أكاذيب، دون أيِّ مجهود حقيقي لجعلها تبدو حقيقية.

عُدتُ إلى الداخل، واتَّصلتُ بسيارة أجرة. ثم انطلقتُ في الثلج الذي بدأ يشتدُّ تساقطًا،

نحو منزل البروفيسور.

إلى هنا تنتهي المخطوطة الجزئية. جمَّعتُ الأوراق مرة أخرى، ووضعتها على طاولة القهوة. وساعةُ الحائط تُشير إلى 1:46 صباحًا. لقد كنت أقرأ دون توقف لأكثر من ساعتين.

ماذا الذي كان كتاب ريتشارد فلين ينوي قوله؟

هل كان اعترافًا متأخرًا؟ هل كنتُ سأكتشف أنه هو من قتل ويدر، وأنه تمكَّن من التملُّص من اشتباه الشرطة، لكنه قرَّر الآن الاعتراف؟ لقد ذكر في الاستفسار المرسل مع طلبه عبر الإنترنت أن المخطوطة الكاملة تتكوَّن من 78,000 كلمة. لا ريبَ إذًا أن شيئًا مهمًّا قد حدث بعد الجريمة أيضًا، فالقتل لم يكن نهاية الكتاب، بل فصولهُ الافتتاحية.

فقدتُ تسلسل الأحداث إلى حدٍّ ما، ولكن بدا أن جزءَ المخطوطة، سواء عن عمد أم لا، انتهى عند النقطة التي انطلق فيها إلى منزل البروفيسور، على يقينٍ بأن لورا كانت تكذبُ عليه، بما في ذلك الحقيقة حول علاقتهما، في الليلةِ نفسها التي أُغتيلَ فيها الرجل. فحتى لو لم يكن فلين هو الذي فعل ذلك، فإنه بلا شك قد ذهب إلى منزل ويدر في ليلة الجريمة. هل قبضَ عليهما معًا؟ هل كانت جريمة بدافعِ الغيرة؟

أو ربما لم يقتله، لكنهُ استطاع حلَّ اللغز بعد سنواتٍ عديدة، وكانت هذه المخطوطة تهدفُ إلى كشفِ الجاني الحقيقي، أيًّا كان. لورا باينز؟

قلتُ لنفسي أنه لا جدوى من الانجراف وراءَ الخيالات، لأنني سأكتشفُ قريبًا كل ما يتعلَّق بهذا الأمر من الكاتب نفسه. أنهيتُ قهوتي، وذهبتُ إلى السرير، عاقدًا العزم على طلب المخطوطة الكاملة من فلين.

كانت كتبُ الجرائم الحقيقية ذائعةَ الصيت، خاصةً إذا كانت مكتوبة بشكل جيد، وتتناولُ قضايا غير عادية وغامضة. وكان ويدر شخصية مشهورة في ذاك الوقت، وما زال شخصية مهمة في تاريخ علم النفس الأمريكي، كما أخبرني جوجل، وكَتَبَ فلين بأسلوب سلِس وجذَّاب. لذا كنتُ شبه مقتنع بأنني أتعاملُ مع صفقة جيدة، والتي من المحتمل أن يوقِّع لها ناشر على شيك كبير.

ومع ذلك، للأسف، لم تسِر الأمور كما ابتغيت.

أرسلتُ بريدًا إلكترونيًّا لريتشارد فلين في طريقي إلى العمل صباح اليوم التالي، مستخدمًا عنواني الشخصي. لم يرُد في ذلك اليوم، لكنني افترضتُ أنه استغلَّ عطلة نهاية الأسبوع الطويلة ليوم مارتن لوثر كينج؛ لقضاء إجازة قصيرة، فلم يتحقَّق من رسائله.

بعد مرور يومين أو ثلاثة دون أيِّ رد، حاولتُ الاتصالَ بهِ على رقمِ هاتفه الذي أرفقه إليَّ مع رسالته. ووصلتُ إلى بريده الصوتي، لكنني لم أتمكَّن من ترك رسالة؛ لأن صندوق الوارد كان مملوءًا بالفعل.

مرَّت بضعةُ أيامٍ أخرى دون أيِّ رد، وبعد عدَّة محاولات أخرى للوصولِ إليهِ عبر الهاتف، الذي صارَ الآنَ مغلقًا، قررتُ الذهاب إلى العنوان الذي أعطاني إياهُ في الرسالة، والذي كان بالقربِ من محطة بن. كان موقفًا غير معتادٍ –أعني مطاردةَ كاتب– ولكن في بعض الأحيان إذا لم يأتِ الجبل إليك، فعليك الذهابُ إليه.

كانت شقة في الطابق الثاني من مبنى في شارع إيست 33. ضغطتُ الجرس، وأخيرًا أجابني صوتُ امرأة. أخبرتها أنني بيتر كاتز، وأبحثُ عن

ريتشارد فلين. فأخبرتني باقتضاب أن السيد فلين ليس متاحًا. شرحتُ لها أنني وكيل أدبي، ووضَّحتُ بإيجاز سبب وجودي هناك.

تردَّدَت لبضعِ لحظات، ثم سمعتُ القِفل يُصدرُ طنينًا ويُفتَح. فأخذتُ المِصعد إلى الطابق الثاني. وكانت تقفُ بالفعل عند مدخل الشقة، وعرَّفت بنفسها باسم دانا أولسن.

كانت السيدة أولسن امرأة أربعينية، ولها وجهٌ من النوع الذي عادةً ما تنساهُ بسرعة بعد رؤيته لأول مرة. وكانت ترتدي روبًا منزليًّا أزرق وشعرها داكن، على الأغلب مصبوغ، وممشَّط للخلف بواسطة عصابة رأس بلاستيكية.

تركتُ معطفي على الحامل في المدخل، ودخلتُ غرفة المعيشة التي كانت صغيرة لكنها شديدةُ الترتيب. جلستُ على أريكة مكسوَّة بالجلد. وكانت الشقة تبدو كما لو أنها تخصُّ امرأة عزباء بدلًا من زوجين؛ بسبب ألوان السجاد، والستائر، والتفاصيل الصغيرة الموزَّعة في كل مكان.

بعد أن أخبرتُها مرة أخرى بحكايتي، أخذت نفسًا عميقًا، وتحدَّثت بسرعة: «أُدخِلَ ريتشارد إلى مستشفى أول سينتس قبل خمسةِ أيام. إذ تمَّ تشخيصه بسرطان الرئة العام الماضي، وحينها كان المرض بالفعل قد وصل إلى مرحلته الثالثة، لذا لم يتمكَّنوا من إجراءِ عملية جراحية، ولكن كان عليهم البدءُ بالعلاجِ الكيميائي. وقد استجاب للعلاج بشكل إيجابي، لفترة من الزمن، ولكن قبلَ أسبوعين أصيب بالتهاب رئوي، وتدهورت حالتهُ بشكلٍ مفاجئ. والأطباء لا يتوقعون له تحسُّنًا كبيرًا».

تمتمتُ بالعبارات الخاوية التي يشعر الإنسان بأنه مُجبر على قولها في مثل هذه المواقف. أخبرتني أنها ليسَ لديها أقارب في المدينة. فهي من مكانٍ ما في ألاباما، وقد قابلت ريتشارد قبل بضعِ سنوات في ورشة عمل تسويقية. وتراسلا لبعض الوقت، وذهبا في رحلة إلى جراند

كانيون، ثمَّ أصر على أن ينتقلا للعيشِ معًا، لذلكَ جاءت إلى نيويورك. واعترفت لي أنها لا تحبُّ المدينة، وأن الوظيفة التي وجدتها في وكالة إعلانات كانت أقل من مستوى تدريبها.

لقد قبِلت بها من أجلِ ريتشارد فحسب. وكانت تنوي العودة إلى بلدتها، إذا فقدت شريكها.

بكت بهدوء، وبلا نحيب، لعدة دقائق، ومسحت عينيها وأنفها بمناشف ورقية أخذتها من العلبة على طاولة القهوة. وبعد أن هدأت، أصرَّت أن تُعدَّ لي كوبًا من الشاي، وطلبت مني أن أُخبرها عن المخطوطة. ولم يبدُ أنها تعرفُ أن شريكها كان يكتبُ كتابًا عن ماضيه. ذهبت إلى المطبخ، وأعدَّت بعض الشاي، وأحضرت صينية مع أكواب ووعاء سكر.

أخبرتُها بما تضمَّنهُ الجزء الذي تلقيتهُ عبر البريد الإلكتروني. وكان معي نسخة من رسالته فعرضتها عليها، وقرأت الرسالةَ بعناية. وبدأت الدهشة تظهر عليها أكثر فأكثر.

قالت بمرارة: «ريتشارد لم يخبرني عن ذلك. ربما كان ينتظرُ سماع ردٍّ منك أوَّلًا».

قلت: «لا أعرف ما إذا كنتُ الشخص الوحيد الذي راسله. هل اتصل بكِ أيُّ وكيل، أو ناشر آخر؟».

- لا. في اليوم الأول بعد أن أُدخِل إلى المستشفى، كنتُ أتلقَّى مكالمات ريتشارد على هاتفي المحمول، ثم توقَّفت. إيدي، شقيقه من بنسلفانيا، والأشخاص من شركته يعرفون عن حالته، ولكن لديهم رقم هاتفي. وليس لديَّ كلمة المرور لحساب بريده الإلكتروني، لذا لم أتمكَّن من قراءة الرسائل.

سألتها: «إذًا، لا تعرفينَ مكان بقية المخطوطة؟». وأكَّدت لي أنها لا تعرف.

ومع ذلك، عرَضَت أن تبحث في اللابتوب الذي تركهُ ريتشارد خلفه. فأخرجت جهاز لابتوب صغير من نوع لينوفو من الدرج، وقامت بتوصيله وتشغيله.

وبينما كانت تنتظر ظهور الأيقونات على الديسكتوب، علَّقت: «على الأغلب أنه يقدِّرها كثيرًا، بما أنَّه أرسل لك تلك الرسالة. من الواضح، أنني، حتى لو وجدتُ المخطوطة، فأنت تفهمُ بالطبع أنني سأتحدَّث معه أوَّلًا قبل أن أُعطيها لك؟».

- بالطبع.

سألَت: «ماذا يعني ذلك من الناحية المالية؟»، وشرحتُ لها أن الوكيل هو مجرد وسيط، وأنَّ الناشر هو من يتَّخذ القرار بشأن الدُّفعة المقدَّمة والمستحقات.

ارتدت نظارات، وبدأت في البحث في اللابتوب. وأدركتُ أنني على وشكِ تفويت موعد آخر، لذا اتصلت بالشخص، واعتذرت، وطلبتُ إعادة تحديد الموعد.

أخبرتني السيدة أولسن أنه لا يبدو أنَّ المخطوطة موجودة لا على الديسكتوب، ولا في الملفات: تفحَّصَت كافَّة الملفات بصرف النظر عن الاسم الذي تمَّ حفظها به. ولم تكن هناك أي ملفات محميَّة بكلمة مرور. من الممكن، كما قالت، أن يكون المستند في مكتبه أو على ذاكرة فلاش. كان هناك بعضُ الذاكرات في نفس الدرج الذي وجدت فيه اللابتوب. وكانت على وشك زيارة ريتشارد في المستشفى، لذا وعَدَت بأنها ستسألُه عن مكانِ المخطوطة. فحفظَت رقمي في هاتفها، وقالت: إنها ستتصلُ بي بمجرَّد أن تعرف.

أنهيتُ شرب الشاي، وشكرتها مرة أخرى. وبينما أستعدُّ للمغادرة قالت: «حتى ثلاثة أشهرٍ مضت، لم يُخبرني ريتشارد أي شيء عن كلِّ

هذه القصة، أعني عن لورا باينز. لكن ذات مساء، اتصل به شخص ما على هاتفه المحمول، وسمعتهُ يتشاجر. وذهب إلى المطبخ لكيلا أسمعَ المحادثة، لكنني تفاجأتُ بنبرة صوته، لأنه لا يفقدُ أعصابه عادةً. كان غاضبًا؛ لم أرهُ في هذه الحالة من قبل. كانت يداهُ ترتعشان عندما عاد إلى غرفة المعيشة. فسألته مع من كان يتحدَّث، وأخبرني أنه كان يتحدَّث مع أحد معارفه القُدامى من أيام برينستون، شخصٌ يُدعى لورا، وأنها دمَّرت حياته، وسيجعلها تدفع الثمن».

بعد خمسة أيام من زيارتي، اتصلت بي دانا أولسن لتخبرني أن ريتشارد قد تُوُفِّي. وأعطتني عنوان صالة الجنازة، في حالِ أردتُ تقديم التعازي الأخيرة. إذ إنها حين وصلت إلى المستشفى، في يوم زيارتي، كان شريكُها فاقدًا للوعي بسببِ المهدئات، وبعد وقتٍ قصير دخل في غيبوبة، لذلك لم تتمكَّن من سؤاله عن المخطوطة. كما أنها قامت بفحص الذاكرات والأقراص الموجودة في أرجاءِ المنزل، لكنَّها لم تستطع العثورَ على أيٍّ شيء يحتوي على المخطوطة. الشركة التي كان يعملُ بها سترسلُ متعلقاته الشخصية من المكتب في الأيام التالية، لذا ستفحصها أيضًا.

حضرتُ الجنازة، والتي أُقيمت بعد ظهرِ يوم الجمعة. وكانت المدينة مغطاة بثلوجٍ كثيفة، تمامًا كما كان الحال في ذلك اليوم من أواخر ديسمبر، عندما لقي البروفيسور جوزيف ويدر حتفه.

كان هناك عددٌ قليلٌ من الناس في حالة حداد يجلسون على صفٍّ من الكراسي أمام النعش، حيث كان جسد ريتشارد فلين يرقد داخل تابوتٍ مغلق. وبجانبه وُضعت صورة مؤطَّرة مع شريط أسود في الزاوية. كانت الصورة لرجلٍ في الأربعينيات من عمره، يبتسمُ بأسى نحو الكاميرا.

وكان وجهه طويلًا، وأنفه بارزًا، وعيناه لطيفتين، وشعرهُ المموَّج قليلًا متراجعًا من عندِ الجبهة.

شَكَرَتْني السيدة أولسن على حضوري، وأخبرتني أن تلك الصورة هي المفضَّلة لريتشارد. لم تكُن تعرفُ من التقطها أو متى. وقد احتفظَ بها في دُرج مكتبه السفلي، والذي سمَّاهُ مازحًا «وكرُ الذئب». كما أخبرتني أنها تأسفُ بشدة لعدم تمكُّنها من العثور على بقية المخطوطة، التي كانت على الأرجح في غاية الأهمية بالنسبة لريتشارد، خاصةً أنه كان يعملُ عليها خلال أشهره الأخيرة.

ثم أشارت لرجلٍ بدا كئيبًا، وقدَّمتني إليهِ بصفته إيدي فلين. وبرفقتهِ امرأة صغيرة الحجم، ومفعمة بالحيوية، وتعتمر قبَّعة سخيفة فوقَ شعرها الأحمر الناري. صافحتني، وقدَّمت نفسها باسم سوزانا فلين، زوجةُ إيدي. تحدَّثنا لبضعِ دقائق، على بُعد خطواتٍ قليلة من التابوت، وشعرتُ بإحساسٍ غريب بأننا نعرفُ بعضنا منذُ فترة طويلة، وأنني ألتقيهم في ذلك اليوم بعدَ غيابٍ طويل.

حين غادرت، فكَّرتُ أنني لن أعرف أبدًا ما حدث في تلك الحكاية القديمة. وبصرفِ النَّظر عمَّا كان ريتشارد ينوي كشفه، بدا أنه في النهايةِ قد أخذَ سره معه.

الجزء الثاني

جون كيلر

عندما نكونُ صغارًا، نبتكرُ لأنفسنا مستقبلًا مختلفًا، وعندما نكبُر فإننا نبتكرُ ماضيًا مختلفًا للآخرين.

جوليان بارنر، «إحساس بالنهاية»

واحد

بدأتُ الحديث مع الموتى بسبب كرسيٍّ مكسور. كما قال كورت فونيجوت الابن على الأغلب، كان العام 2007، وجون كيلر قد أفلس أخيرًا. هذا أنا، سعيدٌ بلقائك. التحقت بدورة في الكتابة الإبداعية في جامعة نيويورك، ولأكن صريحًا، كنتُ أدور حول أوهامي مثل فراشةٍ تنجذب نحو وهج المصباح المحفوفِ بالخطر.

كنتُ أتشاركُ السَّكن في عليَّة بمحطة السكك الحديدية في الجانب الشرقي الأدنى مع مصوِّر طموح يدعى نيل بومان، وأُرسلُ رسائل استفسار طويلة، وغير مُجدية إلى المجلات الأدبية على أمل أن يقدِّم لي أحدُ المحرِّرين وظيفة في نهايةِ المطاف. لكن لم يبدُ أن أيًّا منهم على استعدادٍ للاعترافِ بعبقريتي.

العم فرانك -شقيق والدتي الأكبر- حقَّق ثروة في منتصف الثمانينات عن طريق الاستثمار في صناعة تكنولوجيا المعلومات، والتي كانت قد بدأت تتجهُ حينها إلى ذروة نشاطها. كان في أوائل الخمسينيات من عمره، ويعيش في شقة فاخرة في الجانب الشرقي العلوي. في تلك الأيام، لم يبدُ أن لديه أيَّ عمل سوى شراء التحف، وقضاء الوقت مع

السيدات الجميلات. وكان وسيمًا، ومسمرًّا بفعل الشمس، ويرتدي ملابس أنيقة. وقد كان يدعوني للعشاءِ في منزله، أو في مطعم بين الحين والآخر، ويُهديني هدايا باهظة أبيعُها لاحقًا بنِصف الثمن لرجلٍ يدعى ماكس، والذي كان متواطئًا مع أصحابِ متجرٍ مشبوه في شارع ويست 14.

كان قد اشترى الأثاث العتيق في غرفة المعيشة من إيطاليا قبل سنواتٍ عديدة. بكراسي مصنوعة من الخشب المنحوت، ومبطَّنة بالجلد البني، وقد أعطتها لمسةُ الزمن مظهرَ الخدودِ المجعَّدة. وكان ظهرُ أحد الكراسي سيئة الحظ قد وقعَ من مكانه، أو شيئًا من هذا القبيل، لا أستطيع تذكُّر التفاصيلِ حقًّا.

لذا استدعى عمي مرممًا مشهورًا من برونكس، وكانت لديه قائمة انتظار طويلة على مدى شهور. وعندما سمع أنَّ فرانك سيدفعُ ضعف الرسوم المعتادة إذا سمح له بتجاوز الطابور، أخذ أدواته، وقادَ سيارته مباشرةً إلى شقَّة عمي. وكنت هناك مصادفةً، في ذلك اليوم.

المُرمم، كان رجلًا في منتصفِ العمر برأسٍ حليق، وأكتافٍ عريضة، وعينين فضوليتين، ويرتدي ملابس سوداء مثل قاتلٍ مأجور، فحص الكرسي المكسور، وتمتمَ بشيءٍ ما، ثم نصَبَ معسكره في الشرفة. كان اليوم جميلًا، والشمسُ مشرقة، والمباني في شارع السبعينات الشرقي بدت ككُتل عملاقة من الكوارتز تغتسلُ بندى الصباح. وبينما المُرمم يستعرِضُ مهاراته، كنتُ أشرب القهوة مع العم فرانك، وندردش عن الفتيات.

لاحظ فرانك أن عامل التصليحِ قد أحضرَ معهُ مجلة، وتركها على طاولة. كانت تدعى مجلة آمبرساند Ampersand، وتضمُّ ثمانٍ وأربعين

صفحةً لامعة، وكَشَفت الصفحة الثالثة، التي تسردُ هيئة التحرير، أنَّ الناشر كانت شركة يديرها جون إل. فريدمان.

أخبرني عمي أنه كان مع فريدمان في جامعة روتجرز. وكانا صديقين، لكنَّهما فقدا الاتصال ببعضهما قبل بضع سنوات. فماذا لو يتَّصل به عمي ويطلب لي مقابلةَ عمل؟ كنت أعرف أن العلاقات هي التي تحرك العالم، بالإضافة إلى المال، لكنني كنت صغيرًا بما يكفي لأعتقد أنني أستطيعُ شقَّ طريقي الخاص، لذا رفضتُ عرضه. وبالإضافة إلى ذلك، قلت له وأنا أتصفَّح المجلة بحذر، أن المنشور كان عن الغوامض والخوارق وعصر الجديد، وهي مواضيع لم أعلم عنها شيئًا ولا مهتمًّا بها على الإطلاق.

طلب مني فرانك أن أتوقَّف عن العناد. كان يثقُ بالمهارات الاقتصادية لصديقِهِ القديم -حتى في الكلية، كان قادرًا على استخراجِ المال من الحجر الجاف- والصحفي الجيد يجب أن يكون قادرًا على الكتابة عن أي موضوع. وفي نهاية الأمر، خلُصَ إلى أنَّ الكتابة عن الهرم الأكبر أكثر إثارة من الكتابة عن مباراة كرة، أو جريمة قتل عادية، وعلى أيَّة حال، فإن القرَّاء جميعًا أغبياء هذه الأيام.

انضمَّ المُرمم إلى المحادثة في مرحلةٍ ما، بعد أن دعوناهُ لشرب القهوة معنا. أخبرنا بصوتٍ خافت أنه يعتقد بأن قطع الأثاث العتيقة تحتفظُ داخلها بالطاقة الإيجابية، أو السلبية للأشخاصِ الذين امتلكوها عبر السنين، وأنه أحيانًا كان يستطيعُ تحسُّس تلكَ الطاقات عند لمسه للقطعة: كانت أصابعه ترتعش. غادرت بعد أن أمسك فرانك بزجاجة من البوربون من البار، وبدأ المُرمِّم في إخبارنا عن خزانة جلبت الحظ السيِّئ لمالكيها.

بعدها بيومين، اتصل بي فرانك على هاتفي المحمول ليُخبرني أن فريدمان ينتظرُ قدومي إلى مكتبه في اليوم التالي. كل ما يحتاجهُ هو شخص يعرفُ الأبجدية، رئيس التحرير، الذي كان رجلًا مضطَّربًا بعض الشيء، ملأ المكتب بأشخاص غريبين لا يجيدونَ الكتابة حقًّا. والمجلة التي أُطلِقت قبل بضعة أشهر، لا تزالُ تكافحُ لترتفع عن الأرض.

لكن لا فائدة من إطالة القصة. لم أرغب في الخلافِ مع العم فرانك، ولذلك زُرتُ فريدمان. وتبيَّنَ أنني أحببته، وكان الشعور متبادلًا. لم يكُن يحفل بالخوارق، ولم يؤمن بالأشباح، لكن كان لهذا النوع من المجلات وضعها. خاصةً بين جيل طفرة المواليد.

عرض عليَّ راتبًا أكبر بكثير مما توقَّعت، ولذا قبلتُ بالعرض على الفور. وكانت أول قصة نشرتها عن المُرمم، حيثُ شعرت أنني أدينُ له بطريقة ما لدخولي عالم صحافة الخوارق. عملتُ في مجلة آمبرساند لمدة عامين تقريبًا، وخلال هذه المدة التقيتُ نصف مجانين المدينة. حضرتُ جلسات شعوذة فودو في إنوود، وزرت منازل مسكونة في إيست هارلم. وتلقيتُ رسائل من قراء بدا أنهم أكثر جنونًا من هانيبال ليكتر، ومن كهنة حذَّروني من أنني في طريقي إلى نيران جهنم.

ثم قرَّر فريدمان إغلاق المجلة، وساعدني في الحصول على وظيفة كصحفي في جريدة نيويورك بوست، حيثُ عملت لمدة أربع سنوات، حتى أقنعني صديق بالانضمامِ إلى جريدة جديدة أنشأها مستثمرون من أوروبا. وبعد عامين، وحينما قضت الصحف الإلكترونية على معظم ما تبقى من الصحف المطبوعة الصغيرة، وبدأت الأسماء تختفي واحدًا تلو الآخر، وجدتُ نفسي بلا وظيفة. فبدأتُ مدونة، ثم موقعًا إخباريًّا، لم يجلب لي شيئًا تقريبًا، وحاولتُ كسب لقمة العيش من مختلفِ الأعمال

الحرَّة، أتأمَّلُ بحنين أيامي الخوالي، مدهوشًا أنني في أوائل الثلاثينات من عمري، وبالفعل أشعر وكأنني ديناصور.

في ذلك الوقت، أخبرني صديقي بيتر كاتز، وهو وكيل أدبي لشركة برونسون آند ماترز، عن مخطوطة ريتشارد فلين.

كنا قد التقينا خلال دراستي في جامعة نيويورك، وأصبحنا أصدقاء. بيتر كان خجولًا ومنطويًا إلى حدٍّ كبير -من النوع الذي قد تخلط بينهُ وبين النبات الصناعي في الحفلات- لكنه كان مثقفًا للغاية، ويمكن للمرء أن يتعلَّم منهُ الكثير. لقد تجنَّب ببراعة جميع الأفخاخ التي نصبتها لهُ والدته بالتواطؤ مع عائلات الفتيات القابلات للزواج، معاندًا للبقاءِ عازبًا. وإضافةً إلى ذلك، اختارَ أن يصبح وكيلاً أدبيًّا، رغم انحداره من عائلة طويلة من المحامين، مما جعلهُ بمنزلة الخروف الأسود بين عائلته.

دعاني بيتر لتناولِ الغداء، فذهبنا إلى مكان في شارع إيست 33 يُدعى «كانديس». تساقطَ الثلجُ بغزارة لعدَّة أيام، رغم أن شهر مارس قد بدأ بالفعل، وكانت حركة المرور مروِّعة. تلوَّنت السماء بلونِ الرَّصاص المصهور، الذي على وشكِ أن ينهمرَ على المدينة. ارتدى بيتر معطفًا طويلًا جدًّا لدرجة أنه كان يتعثُّر في حاشيته، مثل أحد الأقزام السبعة في «سنو وايت». وكان يحملُ حقيبة جلدية قديمة، تتأرجحُ في يده اليمنى بينما يتفادى بركَ الماء على الرصيف.

بينما نتناولُ السلطة، أخبرني بقصَّة المخطوطة. توفي ريتشارد فلين الشهر الماضي، وزعمت شريكته، وهي سيدة تدعى دانا أولسن، أنَّها لم تجد أثرًا للكتاب.

بحلول الوقت الذي وصلت فيه شرائح اللحم، كان بيتر قد أوضح لي التَّحدي. كان يعلمُ أنَّ لدي ما يكفي من الخبرة الصحافية لأربط الأجزاء المختلفة من المعلومات. وقد تحدَّثَ إلى رؤسائه وهم يعتقدون

أنه بالنظر إلى السوق، فإن الموضوع لديه إمكاناتُ بيعٍ كبيرة. لكن جزءًا من مخطوطة تقدَّر بمليون دولار لن يكون له قيمة بمفرده.

قال لي وهو يحملقُ بعينيه المتقاربتين: «أنا مستعد للتحدُّث مع السيدة أولسن، والتوصُّل إلى اتفاق. تبدو امرأة عملية، وأنا واثق أن المفاوضات ستكون صعبة، لكنني لا أعتقدُ أنها سترفضُ عرضًا جيدًا. لقد ترك لها فلين جميعَ ممتلكاته في وصيته، باستثناءِ بعض الأشياء التي أعطاها لشقيقهِ إيدي. ومن الناحية القانونية، سيكون الاتفاق مع السيدة أولسن كافيًا لنا، هل تفهم؟».

سألته: «وكيف تتخيَّل بالضبط أنني سأتمكَّن من العثور على المخطوطة؟ هل تعتقدُ أنني سأكتشفُ خريطة سرية على ظهر منديل؟ أم سأطيرُ إلى جزيرة في المحيط الهادي، وأحفُر تحت أشجار النخيل المزدوجة التي تنمو في الشمال الغربي؟».

قال: «بحقك، لا تكن هكذا. فلين قدَّم بالفعل الكثير من الأدلة في المقتطف. فنحن نعرف الشخصيات التي كانت متورِّطة، والمكان والإطار الزمني. فإذا لم تجد المخطوطة، يمكنكَ إعادةُ بناء باقي الأحجية، وسيتم دمجُ الجزء في كتاب جديد، ستكتبهُ أنت، أو مؤلِّف ظل. وفي النهاية، فإنَّ القرَّاء يهتمون بقصة مقتل ويدر، ولكن ليس بالضرورة يهتمُّون بنكرةٍ يُدعى ريتشارد فلين. الأمر يتعلَّقُ بإعادة بناء ما حدث في الأيام الأخيرة من حياة ويدر، هل تفهم؟».

كانت عادته اللفظية -التكرار المستمر لعبارة «هل تفهم؟»- تصدِّر إليَّ شعورًا بغيضًا بأنه يشكِّك في ذكائي.

أجبته: «أنا أفهم، لكن ربما يكون كل هذا مضيعة للوقت. ربما فلين كان يعرفُ ما يودُّ إخبار الناس به عندما بدأ كتابة الكتاب، بينما نحن

لا نملك أدنى فكرة عمَّا نبحث عنه. سنحاولُ حل جريمة قتل حدثت منذ أكثر من عشرين عامًا!».

- لورا باينز، إحدى الشخصيات الرئيسية، ربما لا تزال على قيد الحياة. يمكنك العثور عليها. وأنا متأكِّد أن القضية لا تزال في ملفات الشرطة. إنها قضية قديمة كما يقولون، لكنني واثق بأن الملف موجود في أرشيفاتهم.

ثمَّ غمز لي بطريقة غامضة وخفض صوته، وكأنه يخشى أن يسمعنا أحد.

- يبدو أن البروفيسور ويدر كان يُجري تجارب نفسية سرية. تخيل ما يمكنك اكتشافه هنا!

قال هذه الجملة الأخيرة بنبرة أُمٍّ تَعِدُ طفلها العنيد برحلة إلى ديزني لاند إذا أنهى حل مسائل الرياضيات.

كنت مفتونًا، لكن لا أزالُ مترددًا.

- بيت، هل فكَّرت يومًا أن هذا الشخص، فلين، ربما كان يخترعُ كل هذا؟ لا أريدُ أن أتحدَّث بالسوء عن الأموات، لكن ربما اخترع قصة عن موت شخص مشهور حتى يتمكَّن من بيع مشروعه قبل أن يموت. لكنَّه لم يملك الوقت الكافي لإنهائه.

- حسنًا، لقد فكَّرتُ في هذا الاحتمال. لكن كيف يمكننا التيقُّن ما لم نجرِ تحقيقًا؟ مما استطعتُ جمعه حتى الآن، فإن ريتشارد فلين لم يكن كاذبًا بشكل مرضي. لقد عرَفَ ويدر بالفعل، وعمل لديه، وكان بحوزته مفاتيح منزله، واعتُبِر مشتبهًا لفترة، وكل هذا اكتشفته من الإنترنت. لكنني أحتاجُ إلى شخصٍ مثلك لكشف بقية الحكاية.

كنتُ شبه مقتنع، لكنني جعلتهُ ينتظر قليلًا. طلبت إسبريسو للتحلية، بينما اختار هو التيراميسو. فرغتُ من قهوتي وأنهيتُ معاناته. أخبرته أنني سأقبلُ المهمة، ووقعتُ عقدًا أحضرهُ معه، يتضمَّن بندًا بعدم الإفصاح. ثم أخرج مجموعة من الأوراق من حقيبته. وسلَّمها لي، وقال: إنها نسخة من الجزء الأول من مخطوطة ريتشارد فلين، بالإضافة إلى الملاحظات التي كتبها في تلك الفترة، والتي ستكونُ نقطة انطلاقٍ لتحقيقاتي.

دسست الأوراق بصحبة نسخة من العقد داخل حقيبتي التي أحملها معي دائمًا منذ أيامي كصحفي، وهي مجهَّزة بكل أنواع الجيوب والتقسيمات. ورافقتهُ إلى محطة المترو، ثم عدتُ إلى المنزل، وقضيت المساء كلَّه في قراءةِ مخطوطة ريتشارد فلين.

اثنان

في المساء التالي، التقيتُ حبيبتي سام لتناولِ العشاء. كانت تكبرني بخمسِ سنوات، ودرسَت الأدب الإنجليزي في جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس، وانتقلت إلى نيويورك بعد أن عمِلت في عددٍ من محطات التلفزيون في الساحل الغربي. عمِلَت مُنتجةً للأخبار الصباحية في إن. واي.1، لذا كان يومُها يبدأُ في الساعة الخامسة صباحًا، وينتهي عادةً في الثامنة مساءً، حين تنهارُ من التعب، بصرفِ النَّظر عن وجودي أو عدمه. ونادرًا ما استطعنا التحدُّث لأكثر من خمسِ دقائق دونَ أن تخبرني أنها تحتاجُ إلى إجراء مكالمة مهمة، وتضعُ سماعة الهاتف في أذنها.

تزَوَّجت لمدة ثلاث سنوات من شخص يدعى جيم سالفو، مذيع أخبار في محطة تلفزيونية صغيرة في كاليفورنيا، وهو من نوع الرجال الذين، بمجرد وصولهم إلى الأربعين، لا يبقى لهم سوى العادات السيئة، وكبد غارق في الدهون. لذلك أخبرتني منذ البداية أنها لا تنوي الزواج مرة أخرى قبل الأربعين، وأنها حتى ذلكَ الحين لا تُريد سوى علاقة بلا التزامات.

بين المكالمات الهاتفية، وتوبيخ النادلة لعدم أخذ طلبنا في وقت أقرب، وإخباري عن خلافها مع المحرِّرين، استمعت سام إلى قصَّتي عن مخطوطة ريتشارد فلين، وبدت متحمِّسة بشأنها.

قالت: «جون، هذا قد يُحدث ضجَّة. إنه يشبه شيئًا من أعمال ترومان كابوت، أليس كذلك؟ القراء يحبُّون هذا النوع من الأشياء».

كان هذا أفضل حكم يمكن أن تصدرهُ سام حول أي موضوع. بالنسبةِ لها، أي شيء لا يحمل فرصة لإحداث «ضجة» كان بلا جدوى، سواء كان نشرة أخبار تلفزيونية، أو مقترح كتاب، أو حتى ممارسة الحب.

- أجل، ربما، لكن فقط إذا استطعتُ العثور على المخطوطة، أو أيِّ تفسير لجريمة القتل.

- وإذا لم تجدها، يمكنك كتابة كتاب بناءً على الجزء الذي لديك. أليس هذا ما اتَّفقت عليه مع بيتر؟

- أجل، صحيح، لكنني لستُ خبيرًا حقًّا في هذا النوع من الأمور.

قالت بلهجة حكيمة: «الأوقات تتغير، والناس يجب أن يتغيَّروا معها. هل تعتقد أن التلفزيون اليوم يشبه ما كان عليهِ قبل خمسة عشر عامًا، عندما خطوتُ أولى خطواتي داخل استوديو الأخبار؟ في النهاية، نُضطر جميعًا إلى القيام بأشياء لم نفعلها من قبل. وبصراحة، أتمنى ألا تجد المخطوطة، حتى أرى اسمك على غلاف كتاب بعد عامٍ أو نحو ذلك، في نافذة مكتبة ريزولي».

بعد أن غادرنا المطعم، ذهبتُ إلى مخبئي، وبدأتُ العمل. انتقلَ والداي إلى فلوريدا قبل عامين، وتزوَّجت أختي الكبرى كاثي من رجلٍ من سبرينغفيلد، إلينوي، وانتقلت للعيشِ هناك بعد تخرُّجها من الجامعة. كنتُ أعيش في منطقة هيلز كيتشن، أو كما يسمِّيها وكلاء العقارات الآن «كلينتون»، في الشقة المكوَّنة من ثلاث غرف التي نشأتُ فيها. كان

المبنى قديمًا، والغرف صغيرة ومظلمة، لكنها ملكي، ولم أكن مضطرًّا إلى القلقِ بشأن الإيجار.

بدأتُ بإعادة قراءة الجزء من المخطوطة، ووضعتُ خطوطًا تحت الأجزاء التي بدت لي مهمة باستخدام أقلام تمييز ملونة: الأزرق لريتشارد فلين، الأخضر لجوزيف ويدر، والأصفر للورا باينز. وكتبتُ اسم ديريك سيمونز بقلم أزرق، لأنَّ ريتشارد ذكر قُرب النهاية أنه أدَّى دورًا مهمًّا في القضيةِ بأكملها. وأعددتُ قائمة منفصلة بأسماء جميع الأشخاص الآخرين الذين ذُكروا في المخطوطة، والذين قد يصيروا، بقليلٍ من الحظ، مصادر محتملة للمعلومات. كصحفي، تعلَّمتُ أن معظم الناس يحبون الحديث عن ماضيهم، حتى لو كانوا يميلونَ إلى تجميله.

وضعت ثلاثة اتجاهات رئيسية لتحقيقاتي. الأول والأبسط هو البحث في بحر الإنترنت العميق؛ لمعرفة ما يمكنني اكتشافه حول جريمة القتل والأشخاص المتورطين.

الاتجاه الثاني كان تتبُّعَ الأشخاص المذكورين في المخطوطة، وخاصةً لورا باينز، وإقناعهم بإخباري بما يعرفونه عن القضية. ذكر بيتر في ملاحظاته أن شريكة ريتشارد فلين أخبرتهُ أنه قبل وفاته بوقتٍ قصير، جمعتهُ مكالمة هاتفية متوترة مع امرأة تُدعى لورا، وزعم أنها «دمرت حياته» وأنه «سيجعلها تدفع الثمن». هل كانت هذه «لورا» ذاتها المذكورة في المخطوطة؟

أما الاتجاه الثالث فكان الذهاب إلى أرشيف الشرطة في ويست ويندسور، مقاطعة ميرسر، ومحاولة البحث عن التصريحات، والتقارير، والملاحظات التي جمعها المحققون في ذلك الوقت. كان ويدر ضحية رفيعة المستوى، وعلى الأرجح أن التحقيق قد تمَّ بدقة، حتى لو لم يخرج بأي نتائج. وضعي كصحفي حر لم يكن ليُساعدني، لكن إذا

واجهتُ صعوبة، فكانت نيَّتي أن أطلُبَ من سام التدخُّل، واستدعاء سلاح الفرسان، أعني التأثير القوي لشبكة إن. واي.1.

وهكذا بدأتُ بريتشارد فلين.

تطابقت كل المعلومات التي عرفتها عنه بالفعل مع ما وجدتهُ على الإنترنت. كان يعملُ في وكالة إعلانات صغيرة تدعى (وولفصن آند أسوشيتس Wolfson & Associates)، وعلى موقع الشركة وجدتُ سيرة ذاتية قصيرة تؤكِّد بعض التفاصيل الموجودة في المخطوطة. حصل على شهادة في الأدب الإنجليزي من جامعة برينستون عام 1988، وحصل على درجة الماجستير من جامعة كورنيل بعد ذلك بعامين. وترقَّى إلى مناصب إدارية متوسطة، بعد عددٍ من الوظائف البسيطة. وعلى مواقع أخرى، اكتشفتُ أن فلين تبرَّع ثلاث مرات للجنة الوطنية الديمقراطية، وكان عضوًا في نادٍ للرماية الرياضية، وفي عام 2007 صرَّح باستيائه الشديد من الخدمات التي قدَّمها فندق في شيكاغو.

بعد أن انتهى سانتا جوجل من تقديم هداياه عن فلين، انتقلتُ إلى البحث عن لورا باينز، وأدهشني عدم العثور على أي شيء مطلقًا... أو بالكاد أي شيء. وجدتُ عددًا من الأشخاص بنفس الاسم، ولكن لم يتطابق أيٌّ منهم مع المرأة التي كنتُ أبحث عنها. وجدتُ اسمها ضمنَ خرِّيجي قسم الرياضيات في جامعة شيكاغو لعام 1985 وطلاب الماجستير في علم النفس بجامعة برينستون لعام 1988. ولكن بعد ذلك لم يكن هناك أي دليل على ما تفعلهُ، أو أين عاشت. كما لو أنَّها تلاشت في الهواء. فكَّرت في أنها ربما تزوَّجت، وغيَّرت اسم عائلتها، لذلك كان عليَّ أن أجد طريقة أخرى لتتبُّعها، على افتراض أنها لا تزالُ على قيدِ الحياة.

كما توقَّعت، أغنى مصدر للمعلومات كان عن البروفيسور جوزيف ويدر. وجدتُ صفحة تفصيلية عنه في ويكيبيديا، واحتلَّت سيرتهُ الذاتية مكانة مرموقة بين جميع الشخصيات البارزة التي درَّست في برينستون على مرِّ السنين. واكتشفتُ وجود أكثر من عشرين ألف مرجع على جوجل سكولار إلى كتبه وأبحاثه. وبعض هذه الكتب لا تزالُ تُطبع، ويمكن شراؤها من متاجر الكتب عبر الإنترنت.

من بين ما قرأته، هذا ما اكتشفته: وُلد جوزيف ويدر في برلين عام 1931 في عائلة يهودية ألمانية من الطبقة المتوسطة. وكشف في عددٍ من المقابلات، أن والدهُ -الذي كان طبيبًا- قد تعرَّض للاعتداء على يد جنود العاصفة في ربيع عام 1934 أمام والدتهِ الحامل، وتوفي بعد فترةٍ وجيزة.

بعد عام، وبعد ولادة شقيقته، انتقلَ الثلاثة إلى الولايات المتحدة، حيث كان لديهم أقارب هناك. في البداية عاشوا في بوسطن، ثمَّ في مدينة نيويورك. وتزوَّجت والدته مرة أخرى من مهندس معماري يُدعى هاري شونبيرغ، وكان يكبُرها بأربعة عشر عامًا. وتبنَّى أطفالها، لكنَّهم احتفظوا بكنية والدهم البيولوجي تكريمًا لذكراه.

للأسف، أصبح جوزيف وشقيقته إنجي يتيمين بعد عشرِ سنواتٍ فقط، بعد الحرب العالمية الثانية، حيث لقي هاري وميريام شونبيرغ حتفهما خلال رحلةٍ إلى كوبا. إذ كان هاري مغرمًا بالإبحار، وفُقِد اليخت الذي كانا عليه في عاصفة، بصُحبة زوجين آخرين من نيويورك. ولم يُعثر على جثثهم قط.

بعد أن ورثا ثروةً كبيرة، انتقل اليتيمان للعيشِ في منزل عمهما في شمال الولاية، وبدآ حياتين مختلفتين تمامًا. كان جوزيف مجتهدًا في دراسته، حيث التحق أوَّلًا بجامعة كورنيل، ثم كامبريدج والسوربون.

بينما أصبحت إنجي عارضةَ أزياء، وحقَّقت بعض الشهرة في أواخر الخمسينات قبل أن تتزوَّج من رجل أعمال إيطالي ثري، وتنتقل إلى روما حيثُ استقرَّت هناك نهائيًّا.

على مدار مسيرته المهنية، نشر جوزيف ويدر أحد عشر كتابًا، أحدها تضمَّن سيرة ذاتية قوية. وكان الكتاب بعنوان «تذكُّر المستقبل: عشر مقالات عن رحلة إلى ذاتي» ونُشر بواسطة مطبعة جامعة برينستون عام 1984. كما وجدتُ العديد من التقارير حول جريمة القتل.

اكتُشِفَت جثة ويدر بواسطة ديريك سيمونز، الذي ذُكِرَ في القصة باعتبارِهِ عامل الصيانة الذي عَمِلَ في منزل الضحية، وكان مشتبهًا فيه مُحتَمَلًا. في الساعة 6:44 صباحًا، من يوم 22 ديسمبر 1987، اتصل بالرقم 911 من منزل البروفيسور، وأخبرَ عامل الهاتف أنه وجده غارقًا في بركة من الدماء في غرفة المعيشة. لم يستطع المسعفون الذين وصلوا إلى المكان فعل أي شيء، وسرعان ما أعلن مساعد الطبيب الشرعي رسميًّا وفاة البروفيسور.

اكتشفَ الطبيب الشرعي في تشريح الجُثة أن ويدر تُوفِّيَ قرابة الثانية صباحًا، واستنتج أن سببَ الوفاة هو النزيف الداخلي، والخارجي النَّاتج عن الضرَبات بأداةٍ ثقيلة، ومن المُحتمل أن تكون مضرب بيسبول، وجَّهها نحوهُ جاني وحيد في منتصفِ الليل تقريبًا. ووفقًا لما افترضهُ خبراء الطب الشرعي، جاءت الضربة الأولى عندما كان الضحية جالسًا على الأريكة في غرفة المعيشة، حيثُ تسلَّل القاتلُ من خلفه، بعد أن ولج للداخل عبرَ البابِ الأمامي. واستطاعَ البروفيسور -وكانت حالتهُ البدنية جيدة- النهوض من على الأريكة، وحاولَ الهروب نحوَ النَّافذة المُطِلَّة على البُحيرة، وهو يتصدَّى للضرباتِ التي كسرت ساعديه. ثمَّ استدارَ في منتصف الغرفة للدفاع عن نفسه، وخلال الصراع مع المعتدي، سقط

جهازُ التلفزيون عن الحامل على الأرض. وهناك تلقَّى الضَّربة القاتلة في صدغهِ الأيسر. (ومن ذلك، خَلُص المحقِّقون إلى أنَّ القاتل على الأرجح أيمن اليد).

توفيَ ويدر بعد ساعتين نتيجة سكتة قلبية، وإصابة دماغية خطيرة ناجمة عن الضربة الأخيرة. وصرَّح ديريك أنهُ وجد الباب الأمامي مغلقًا عندما وصل إلى منزل البروفيسور في صباح اليوم التالي، وأنَّ النوافذ كانت مُغلقة أيضًا، دون أي علامة على حدوث اقتحام. وفي ظلِّ هذه الظروف، افتُرِضَ أن القاتل كانَ بحوزتهِ مفاتيح المنزل، واستخدمها للدخول، وأخذ ويدر على حينِ غرة، ثمَّ أغلقَ البابَ خلفه بعدَ ارتكابِ الجريمة. وقبل مغادرته، عبث القاتل في غرفة المعيشة. ومع ذلك، لا يمكُن أن يكون الدافع هو السرقة. فقد ارتدى البروفيسور ساعة رولكس على معصمه الأيسر، وخاتمًا ثمينًا في بُنصُر يده اليمنى. كما وجد رجالُ الشرطة قرابة مئة دولار نقدًا في دُرج غير مُقفَل. ولم تُسرَق أيٌّ من التحف الثمينة في المنزل.

اكتشف المحقِّقون كأسين في غرفة المعيشة استخدما مؤخرًا، مما يشير إلى أن الضحية تناولَ الشراب مع شخص آخر في تلك الليلة. ووجد الطبيب الشرعي أن البروفيسور تناول كمية كبيرة من الكحول قبل مقتله، إذ كانت نسبة الكحول في دمه 0.11، لكنَّه لم يجد أي آثار للمخدرات أو الأدوية في جسمه. لم يكُن جوزيف ويدر منخرطًا في أي علاقة مع امرأة معروفة. إذ لم يكُن لديه شريكة أو عشيقة، ولا يواعد أحدًا، ولم يتذكَّر أيٌّ من أصدقائه أو زملائه أنه انخرط في علاقة مؤخرًا. لذلك، استبعدَ المحقِّقون أن تكون الجريمة بدافع الغيرة، أو العاطفة.

من خلال التقارير الصحفية، أعدتُ بناءَ أحداث الفترة التي تلت القتل بشكل تقريبي. لم يُذكر اسم لورا باينز، ولا مرة واحدة، في الصحف،

رغم أن اسم ريتشارد فلين ظهر عدة مرات. كما علمتُ من المخطوطة الجزئية، أن فلين عومِلَ كمشتبه فيه لفترة، بعد استبعاد ديريك سيمونز من التحقيق، لامتلاكه «حُجَّة غياب قوية». لم يُذكر أي شيء عن تورُّط ويدر في تجارب نفسية سرية. ولكن شُدِّد باستمرار على أن ويدر كان شخصية معروفة لدى قوات الشرطة في نيوجيرسي ونيويورك، حيث عمل كشاهد خبير في العديد من التقييمات النفسية للأشخاص المتهمين بجرائم.

أما بالنسبة لوضعه كشاهد خبير في المحاكم الجنائية، فقد تعامل المحققون مع هذا الأمر كخيط دليل محتمل منذ البداية. إذ قاموا بمراجعة القضايا التي شهدَ ويدر فيها، وخاصةً تلك التي كانت نتيجتها ليست في صالح المتهمين. لكن سرعان ما ثبُتَ أنَّ هذا الطريق مسدود. إذ لم يُفرج عن أيٍّ من المدانين بسبب شهادة ويدر خلالَ تلك الفترة، باستثناء رجل يُدعى جيرارد بانكو، والذي أُطلقَ سراحه من سجن بايساين قبل ثلاثة أشهر من الاغتيال. ولكن بعد الإفراج عنه مباشرة تقريبًا، تعرَّض بانكو لأزمة قلبية. خرج من المستشفى قبل أسبوع واحد فحسب من مقتل البروفيسور، لذلك -وكما استنتج الأطباء- لم يكُن ليقدر على المجهود البدني لتنفيذ الهجوم، وبالتالي استُبعدت هذه الفرضية.

استُجِوبَ ريتشارد فلين عدَّة مرات، لكنه لم يُعلن رسميًّا كمشتبه فيه، ولم يوجَّه إليهِ اتهام. وقد عَيَّن محاميًا يُدعى جورج هوكينز، والذي اتهم الشرطة بالمضايقة، واقترح أنهم يحاولونَ جعل فلين كبش فداء للتغطيةِ على فشلهم.

ما هي رواية فلين للأحداث؟ ماذا قال تحديدًا للمحققين والصحفيين؟ بدا من المقالات التي وجدتها، أنَّ ما قاله في ذلك الوقت مختلفًا عما كتبه في مخطوطته.

أوَّلًا، لم يقل أيَّ شيء بخصوص أنَّ لورا باينز عرَّفتهُ إلى ويدر. بل ذكر ببساطة تعرُّفهُ إلى البروفيسور من خلال «معارف مشتركة»، لأنَّ ويدر كان يبحثُ عن شخصٍ مناسب للعمل بدوام جزئي في المكتبة. حيثُ عَمِلَ فلين في مكتبة فايرستون داخل الحرم الجامعي، وكانَ ويدر في حاجةٍ إلى شخص يمكنهُ تنظيم مكتبته باستخدامِ نظام حاسوبي. وأعطاهُ ويدر مجموعة من المفاتيح في حالِ أراد العمل هناك في غيابه عن المنزل، حيثُ كان كثيرَ السفر إلى خارجِ المدينة. استخدم فلين المفاتيح عدَّة مرات، ودخل منزل البروفيسور في غيابه. ودعي ويدر في مناسبتين، أو ثلاث فلين لتناولِ العشاء معه، وكان دائمًا عشاءً لشخصين. وفي أحدِ أيام الجمعة، لعب فلين البوكر مع ويدر، واثنين من زملائه. (لم تُذكر هذه الحادثة في المخطوطة). والتقى فلين بديريك سيمونز، وتعرَّف على قصتِهِ من ويدر نفسه.

لم توجد أي صراعات بينهُ وبين البروفيسور، ويمكن وصف العلاقة بينهما بأنها «وديَّة ودافئة». ولم يخبره البروفيسور بشعوره بالتهديد من أي شخص، أو أي شيءٍ قط. واتُّصِفَ ويدر بأنه شخص مرح، ويحبُّ المزاح بشكلٍ عام. وكان سعيدًا بالحديث عن كتابه الجديد، الذي كان من المقرَّر نشره في العام التالي، والذي اعتَقَد أنه سيحقق نجاحًا كبيرًا على المستويين الأكاديمي والتجاري.

لسوء حظه، لم يملك فلين حُجَّة غياب لليلة الجريمة. في نهاية المخطوطة، كتب أنه انطلق إلى منزل البروفيسور بعد نحو عشرين دقيقة من زيارة تيموثي ساندرز، وهذا يعني قُرابة السادسة مساءً. لقد حسبتُ الأمر، فقد استغرق غالبًا نحو عشرين دقيقة أخرى للوصولِ إلى هناك، وربما أكثر بسبب الطقس، ومثلها للعودة. لكنَّه أخبر المحققين أنه ذهب إلى منزل ويدر قُرابة التاسعة مساءً، لأنهُ أراد التحدُّث مع

البروفيسور عن شيءٍ بشأن المكتبة قبل أن يبدأ عطلة عيد الميلاد. كما قالَ: إنه عاد إلى المنزل في الساعة العاشرة مساءً بعد أن تحدَّث مع البروفيسور، وذهب للنوم بعد ذلك بقليل.

هل كذب خلال التحقيق، أم كان يكذب عندما كتب المخطوطة؟ أم أنَّ ذاكرتهُ قد خدعته؟

في تلك السنوات، كما أكَّدَ فلين في مخطوطته، ارتفع معدَّل الجريمة للغاية في نيوجيرسي، خاصةً بعد التدفق المفاجئ للميث والكراك إلى الضواحي. بعد يومين من وفاة ويدر، بين عيد الميلاد ورأس السنة، وعلى بُعدِ شارعين فحسب من منزله، وقعت جريمة قتل مزدوجة. حيث قُتِلَ زوجان مسنان، السيد والسيدة إيستون، والبالغان من العمر ثمانية وسبعين واثنين وسبعين عامًا على الترتيب، في منزلهما. وجد المحققون أن الجاني اقتحم المنزل في الساعة الثالثة صباحًا، وقتل الزوجين ثم سرقَ المنزل. وكانت أسلحة الجريمة سكّين نحت ومطرقة. وبما أن القاتل أخذ النقود والمجوهرات التي وجدها في المنزل، فقد كان الدافع هو السرقة، ولم تكن هناك أوجه تشابه كبيرة مع قضية ويدر.

لم يمنع هذا الشرطة من استغلال حقيقة القبض على مشتبه فيه بعد أسبوع واحد فحسب، حين حاولَ بيع المجوهرات المسروقة من منزل الزوجين المسنين إلى متجر رهونات في برينستون. وهكذا أصبح مارتن لوثر كينيت، البالغ من العمر ثلاثة وعشرين عامًا، وهو أمريكي من أصل إفريقي، وله سجل إجرامي، ومتعاطٍ معروف للمخدرات، المشتبه فيه الرئيسي في التحقيق في مقتل جوزيف ويدر.

منذ ذلك الحين -وكان ذلك في أوائل يناير 1988- ذُكِر ريتشارد فلين بشكل عابر فقط في المقالات الصحفيَّة المتعلقة بالجريمة. وورثت

شقيقة ويدر، إنجي روسي، كامل ممتلكاته، باستثناء مبلغ صغير من المال الذي تركهُ المتوفَّى لسيمونز في وصيته.

«منزل مسكون معروض للبيع» عنوانُ مقال نُشر في 20 أبريل 1988 في جريدة برينستون جازيت، والذي أشارَ إلى منزل البروفيسور الراحل ويدر. زعم الصحفي أنَّ العقار اكتسب سمعة سيئة بعد المأساة، وأن بعض الناس في الحي كانوا على استعداد للقسم بأنهم رأوا أضواءً غريبة، وظلالًا تتحرَّك داخل المنزل، ولذلك ربما سيواجهُ وكلاء العقارات صعوبة في بيعه.

رفض مارتن لوثر كينيت الصفقة التي اقترحها عليه مكتبُ الادعاء في مقاطعة ميرسر –كان سيُعفى من عقوبة الإعدام في حال ثبتت إدانته– وادَّعى براءتهُ حتى النهاية. اعترف بأنه كان تاجر مخدرات صغير في منطقة الحرم الجامعي وشارع ناسو، وأنَّ أحد زبائنه العرضيين، الذي لا يعرفُ اسمه، تركَ له المجوهرات المسروقة من عائلة إيستون كضمانٍ مقابل كمية من الماريجوانا. لم يملِك حُجَّة غياب لليلة قتل الزوجين، لأنه كان في المنزلِ وحده يشاهد بعض الأشرطة التي استأجرها في اليومِ السابق. وعندما لم يعد الرجل الذي ترك له المجوهرات لاستعادتها، أخذها كينيت (دون أن يعلم بأنها مسروقة) إلى محل الرهونات. ولو عرَفَ مصدرها، فلماذا سيكون بهذا الغباء، ليحاول بيعها في وضح النهار لمتجر اشتهر بتعاونهِ مع الشرطة؟ أما عن ويدر، فلم يسمع عنه قط. إذا كان يتذكَّر بشكل صحيح، ففي ليلة مقتل البروفيسور كان في صالة ألعاب الفيديو، وغادرها في وقتٍ مبكَّر من صباح اليوم التالي.

لكن عُيِّن له محامي دفاع عام من قِبَل المحكمة، وكان اسمه ملائمًا تمامًا لمقاتل شجاع ضد الظلم– هانك بيليكان. أراد الجميع إنهاء

الأمر بسرعة، وتوفير أموال الضرائب، وبعد بضعة أسابيع فحسب قال المحلِّفون «مذنب» وأصدر القاضي حكمًا بالسجنِ مدى الحياة. كانت عقوبةُ الإعدام لا تزال جائزة في ولاية نيو جيرسي في ذلك الوقت – وأُلغيَت لاحقًا في عام 2007– لكن الصحفيين قالوا: إن القاضي أخذ في الاعتبار عمر كينيت عندما قرر عدم إصدار حكم الإعدام الذي طالبَ به الادعاء. قلت لنفسي: إن الأدلة التي قدمها الادعاء إلى القاضي رالف إم. جاكسون، وهو قاضٍ محنَّك ذو خبرة طويلة، لم تكن مقنعة له على الإطلاق. ولكن لسوءِ الحظ، كانت الأدلة كافية للمحلِّفين.

قرر المدَّعون على أي حال، عدم اتهام كينيت بقتل ويدر. ولم يجدوا أي أدلة جديدة. وبدأت قصص أخرى تتصدَّرُ الأخبار، وبالتالي بدأ الغبار يتراكم ببطء. وغدت جريمة القتل في ويست ويندسور قضية مغلقة.

شاهدت نشرة الأخبار الساعة 11 مساءً على قناة إن. واي.1، وهي عادة رافقتني منذُ أيام عملي مراسلًا، ثم أعددتُ لنفسي كوبًا من القهوة، وشربتهُ بجانب النافذة، محاولًا ربط المعلومات من مخطوطة فلين بما اكتشفته عبر الإنترنت.

علاقة البروفيسور ويدر بحاميته لورا باينز، والتي ربما كانت أكثر من مجرد علاقة مهنية، كانت غالبًا معروفة جيدًا بين الأساتذة في قسم علم النفس، لذا تساءلتُ لماذا لم تستجوِبها الشرطة. حتى لو كانت المفاتيح التي أعطاها لها البروفيسور بحوزة ريتشارد فلين في تلك الليلة، فكان بإمكانها نسخ مجموعة أخرى من المفاتيح في أي وقت. لكن لا يبدو أن أحدًا قد لفت انتباه الشرطة أو الصحافة إليها: لا فلين، ولا زملاء البروفيسور، ولا زملاءها، ولا ديريك سيمونز الذي استُجوِبَ

عدَّة مراتٍ أيضًا. بدا وكأنَّ العلاقة بين الاثنين كان يجب أن تظل سرية بأي ثمن.

كان البروفيسور رجلاً قويًّا، وقد مارس الرياضة والملاكمة في شبابه. لقد نجا من الضربةِ الأولى، حتى إنه حاول مقاومة مهاجمه حتى بعد كسرِ ساعديه. إذا كان المتورِّط امرأة، فمن الضروري أن تكون قوية بشكل استثنائي؛ لمواجهة هجوم مضاد من رجلٍ يُقاتل من أجلِ حياته. علاوةً على ذلك، فإن الوحشية البالغة في القتل أشارت إلى أنَّ القاتل ربما كان رجلًا. من غير المحتمل أن تكون لورا باينز -التي وصفها فلين بأنها نحيفة وذات بنية ضعيفة في ذلك الوقت- مذنبة. وأهم شيء: ما هو دافعها؟ لماذا قد ترغب لورا باينز في قتل الرجل الذي ساعدها، والتي من المحتمل أن تعتمد حياتها المهنية عليه؟

ومع ذلك، أخبر فلين شريكته أن لورا «دمَّرت حياته» وأنه «سيجعلها تدفع الثمن». هل اشتبهَ في ارتكابها جريمة القتل، أم كان يلومها فقط، لأنها هجرته، وتركتهُ يواجه العواقب وحده؟ لكن تصرفاته لم تبدُ لي منطقية. إذا أذنبت لورا بتركه في مأزق، لماذا لم ينتقم منها خلال التحقيق عندما كان مشتبهًا فيه، ولم يملك حتى حُجَّة غياب؟ لماذا لم يكشفها للصحافة، أو يحاول على الأقل إلقاءَ بعض اللوم في اتجاهها؟ لماذا حماها آنذاك، ثم غيَّر رأيهُ بعد ما يقرب من ثلاثة عقود؟ لماذا اعتقدَ أن لورا قد دمَّرت حياته؟ في النهاية، نجا من قبضةِ الادعاء. هل حدث شيءٌ آخر بعد ذلك؟

نمتُ وأنا أفكِّر في كل هذا، وأنا شبهُ متأكِّد أنَّ القضية تُخفي شيئًا أكثر قتامة وغموضًا مما كشفه فلين في المخطوطة الجزئية، أو مما اكتشفتهُ الشرطة في ذلك الوقت. كنتُ ممتنًّا لبيتر لأنه وثَق بي للتحقيق.

وكان هناك تفصيل آخر جذَبَ انتباهي بشكل غامض؛ تاريخ أو اسم، شيء لم يكن ملائمًا على الإطلاق. لكنني كنتُ مرهقًا، وفي طريقي للنوم، ولم أستطع تحديدهُ بالضبط. كان الأمر يشبه عندما ترى شيئًا من زاويةِ عينك لجزءٍ من الثانية، وبعد ذلك لا تكونُ واثقًا إذا كنت قد رأيتهُ حقًّا أم لا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

ثلاثة

في الصباح التالي، وضعتُ قائمةً بالأشخاصِ الذينَ يجب أن أبحث عنهم وأقنعهم، إن أمكن، بالتحدُّث معي. كانت لورا باينز على رأسِ القائمة، لكنني لم أملك أدنى فكرة عن كيفية تعقُّبها. وفي الوقت نفسه، بدأتُ البحث في دفاتري القديمة، محاولًا العثور على طريقة اتصال، أو أي علاقة في قسم شرطة ويست ويندسور، الذي لم يتغيَّر منذ وقت الحادث في أواخر الثمانينات.

منذ عدة سنوات، خلال تحقيق أجريتُه لصالح صحيفة الـ «بوست»، قابلتُ رجلًا يدعى هاري ميلر. كان محققًا خاصًّا من بروكلين متخصصًا في تحقيقات قضايا الأشخاص المفقودين. كان قصيرًا وممتلئًا، ويرتدي بدلة متهدِّلة، ورباط عنق رفيع لدرجة أنَّك بالكاد تستطيعُ رؤيتهُ، وسيجارة خلف أذنه، وبدا وكأنه شخصية خرجت للتوِّ من واحد من أفلام الدراما السوداء من الأربعينيات. عاشَ في فلاتبوش، وكان دائم البحث عن عملاء ميسورين، نظرًا لكونهِ مفلسًا باستمرار. كان مقامرًا، يراهن بانتظام على الخيول، ويخسرُ معظم أمواله. اتصلت

به على هاتفه المحمول وأجابَ من بقالةٍ صاخبة، حيث الزبائن يرفعونَ أصواتهم لتجاوز ضجيج الأغاني القديمة.

سألت: «مرحبًا، هاري، كيف حالك؟».

ردَّ بصوتٍ فظ: «كيلر؟ لم أركَ منذُ زمن. حسنًا، يومٌ آخر على كوكبِ القرود، أحاولُ التظاهر بأنني لستُ إنسانًا، حتى لا أنتهي في قفص. افعل الشيءَ نفسه. والآن، أخبرني بما يحدث، يا بني».

أخبرته بما تدورُ حولهُ القضية بشكل عام، وطلبتُ منه أن يدوِّن اسمين؛ ديريك سيمونز، وسارة هاربر، وقلت له ما أعرفه عن الثنائي. وبينما يأخذ الملاحظات، سمعتُ صوت طبقٍ يوضعُ على طاولته، وقال شكرًا لشخصٍ باسم غريس.

سأل مشككًا: «لصالح من تعمل الآن؟».

قلت: «وكالة أدبية».

- منذ متى بدأت الوكالات الأدبية الانخراط في هذا النوع من التحقيقات؟ في الأمرِ قدرٌ كبير من المالِ غالبًا، أليس كذلك؟

- بالتأكيد، لا داعي للقلقِ بشأن ذلك. يمكنني تحويل بعضِ الأموال إليك الآن. لدي أسماءٌ أخرى، لكنني أريدكَ أن تبدأ بهذين الاسمين.

بدت عليه علاماتُ الارتياح.

- سأرى ما يمكنني فعله. ديريك يبدو سهلًا، لكن كل ما أعطيتني إياهُ عن المرأة، سارة هاربر، هو أنها حصلت على درجة الماجستير في علم النفس من برينستون، ربما في عام 1988. ليس هناك الكثير لأعتمدَ عليه، يا صديقي. سأتَّصلُ بك بعد بضعة أيام.

طمأنني، وقطع الاتصال بعد أن أعطاني تفاصيل حسابه على باي بال.

فتحت حاسوبي المحمول، وحولت له بعض الأموال، وجلست أفكر مجددًا في لورا باينز.

منذُ ستة أو سبعة أشهر، قبل أن يبدأ فلين في العمل على مخطوطته، من الضروري أنه قد حدث شيء ما دفعه في هذا الاتجاه، شيءٌ غير عادي، ومهم بما يكفي لتغيير نظرته بالكامل للأحداث التي وقعت في عام 1987، كما لمَّح في رسالة الاستفسار إلى بيتر. عندما التقت دانا أولسن ببيتر، مُنزعجةً بسبب مرضه بما يكفي لتتجاهلَ بعضَ التفاصيل التي قد تكونُ مهمَّة جدًّا لتحقيقاتي. قررتُ أنَّه من الأفضل البدء بالحديثِ معها، واتصلتُ بها على الرقم الذي حصلتُ عليه من بيتر. لم أتلق ردًّا، لذا تركت رسالة على بريدها الصوتي، أشرحُ فيها من أكون، وأخبرها إنني سأعيدُ الاتصال. لم تُتِح لي فرصة الاتصال، لأنها عاودت مُكالمتي بعد بضع دقائق فحسب.

عرَّفتها بنفسي، وتبيَّن لي أن بيتر كان قد تحدَّث إليها عنِّي بالفعل، وأخبرها أنني أجمعُ معلومات حول وفاةِ جوزيف ويدر من أجل كتاب جريمة حقيقية.

كانت لا تزالُ في نيويورك، لكنها كانت تُخطِّط للمغادرة خلال أسبوع أو اثنين. قرَّرَت عدمَ بيع الشقة، لذا تواصلت مع وكيل عقارات لتأجيرها. ومع ذلك، طلبت من الوكلاء عرضها للسوق لكن بعد مغادرتها، لم تستطِع تحمُّل فكرة تجوُّل الناس في الشقة بينما هي هناك. تبرعت ببعض الأشياء للأعمال الخيرية وبدأت في تعبئة الأشياء التي تنوي أخذها معها. ابن عمها من ألاباما، الذي يمتلك شاحنة صغيرة، سيأتي لمساعدتها في الانتقال. أخبرتني بكل هذه الأمور كما لو أنها تتحدَّث إلى صديق، رغم أن صوتها كان رتيبًا وآليًّا، وتأخذ فواصل طويلة من الصمت بين الكلمات.

دعوتُها لتناول الغداء، لكنها قالت: إنها تُفضِّل لقائي في المنزل، لذا انطلقتُ مشيًا نحو محطة بن، وبعد عشرين دقيقة ضغطتُ جرس الباب في مبناها.

بَدَت الشقة في حالةِ فوضى، مثل أي منزل في ليلة الانتقال. والردهة ملأى بصناديق من الورق المقوَّى مغلقة بشريطٍ لاصق. ومحتويات كل صندوق مكتوبة بقلم ماركر أسود، لذا تبيَّنتُ أن معظمها كان مملوءًا بالكتب.

دعتني إلى غرفة المعيشة، وشرعت في إعدادِ الشاي. وشربناه بينما نتبادلُ أطرافَ الحديث. أخبرتني عن صدمتها، خلال إعصار ساندي، حين تشاجرت معها امرأة شابة بينما تنتظرُ في طابور محطة الوقود. كانت قد سمعت عن الفيضانات القديمة والأعاصير، في مسقط رأسها في ألاباما، لكنها كانت أساطير ملحمية، عن جيران خاطروا بحياتهم لإنقاذ الناس، وشرطيِّين ورجال إطفاء أبطال أنقذوا الأشخاص على الكراسي المتحركة وسط الكارثة. قالت لي: إنه في مدينة كبيرة، تساءلت عن أيهما يجب أن تخشاهُ أكثر في مثل هذه الحالات، غضب الطبيعة، أم رد فعل الآخرين.

تسريحةُ شعرها كانت مهندمة وبشرتُها صحية، وتتألَّقُ بالفستان الأسود البسيط الذي ارتدته. تساءلتُ عن عمرها؛ بدَت أصغر من سن شريكها الراحل عن عمر يناهز ثمانية وأربعين عامًا. كان لها طلَّةُ البلدةِ الصغيرة، بطريقة لطيفة. وأشارت كلماتها وإيماءاتها إلى نشوئها في زمن كان الناس يسألون بعضهم البعض عن أحوالهم في الصباح، ويعنون ذلك بصدق.

من البداية طلبت مني أن أناديها دانا، وفعلتُ ذلك.

- دانا، لقد عرفتِ السيد فلين أفضل من معرفتي به من خلال قراءتي مقتطف مخطوطته. هل تحدَّث إليكِ يومًا عن البروفيسور ويدر أو لورا باينز، أو عن أيامه في برينستون حين التقاهم؟

- لم يكن ريتشارد شخصًا منفتحًا. كان دائمًا منطويًا وكئيبًا، وعادة ما كان بعيدًا عن الناس، لذا كان له عدد قليل من المعارف الاجتماعية، وليس له صديق مقرب. ونادرًا جدًّا ما زارَ أخاه. فقدَ والدهُ وهو في الجامعة، وتوفيت والدتهُ بالسرطان في أواخر التسعينات. وفي السنوات الخمس التي قضيناها معًا، لم يزرنا أحدٌ قط، ولم نزُر أحدًا. إذ كانت علاقاتهُ في العمل مهنية بحتة، ولم يكُن على اتصال بالأشخاص الذين رافقوه في الجامعة.

توقفت قليلًا، وسكبت المزيد من الشاي.

- ذات مرة، تلقَّى دعوة لحضور حدث في نادي برينستون في شارع ويست 43. نوعٌ من لم الشمل، وقد وجدَ المنظِّمون عنوانه. حاولتُ إقناعه بالذهابِ معًا، لكنَّه رفض. أخبرني باختصار أنه ليسَ لديه ذكريات لطيفة عن وقته في الجامعة. أعلمُ أنه كان صادقًا. لقد قرأتُ مقتطف المخطوطة؛ بيتر أعطاني نسخة. لكن ربَّما أعادَ ترتيب كل ذكرياته، بعد الواقعة مع تلك المرأة، لورا باينز، وهذا ما يحدُث عادةً، وأصبحت نظرتهُ قاتمة لذلك الوقت.

لم يمتلِك أي نوع من التذكارات، صور أو أي تذكارات أخرى تذكِّره بذلك الوقت. لا شيء سوى نسخة من المجلة التي يذكرها في المخطوطة، «سيجنتشر»، حيثُ نشرَ بعض القصص القصيرة، والتي أعطاه إيَّاها صديق قديم عندما عَثَر عليها مصادفةً في متجرٍ للكتب. لقد وضعتها في أحد الصناديق بالفعل، لكن يمكنني البحثُ عنها إن أردت. لا أزعُم امتلاك أي خبرة في الأدب، لكنَّ قصصهُ أثَّرت فيَّ بشكل استثنائي.

على أي حال، أتفهَّمُ لماذا ابتعد الناسُ عادةً عن ريتشارد. ربما رأى معظمهم أنه شخصٌ كارهٌ للبشر، وربما كان كذلك إلى حدٍّ ما. ولكن عندما تعرَّفتُ إليه بصدق، أدركت أنه تحت السطح الصخري الذي بناه على مر السنين، كان إنسانًا طيبًا جدًّا، ومثقفًا، ويمكنك مناقشتُهُ في أيِّ شيءٍ تقريبًا. وكان صادقًا بشكلٍ حقيقي، ومستعدًّا لمساعدة أيِّ شخص يطلبُ منه. لهذا السبب أحببته، وانتقلتُ إلى هنا. لم أوافق على البقاء معه بسببِ الوحدة، أو لرغبتي في الابتعادِ عن بلدتي الصغيرة في ألاباما، ولكن لأنني وقعتُ في حُبِّهِ بالفعل.

اختتمت: «آسفة لأنني لا أستطيعُ إفادتكَ أكثر، لقد أخبرتك بالكثير عن ريتشارد، لكنَّ البروفيسور ويدر هو ما يُهمُّك، أليس كذلك؟».

- قلتِ: إنك قرأتِ المقتطف...

- أجل، قرأتُه. وحاولت العثور على بقيَّة المخطوطة، خاصةً بسبب فضولي لمعرفةِ ما حدث بعد ذلك. وللأسف لم أتمكَّن من العثورِ عليها. التفسيرُ الوحيد هو أن ريتشارد غيَّرَ رأيهُ في النهاية، وحذفها من جهازِ الكمبيوتر الخاص به.

- هل تعتقدينَ أن المرأة التي اتصلت به تلك الليلة كانت لورا باينز؟ المرأة التي أخبركِ بعد ذلك بأنها «دمرت حياته»؟

لم تُجب عن سؤالي هينهةً. وبدت غارقة في أفكارها، وكأنها نسيت أنني كنت هناك. وعيناها تتنقَّلان في أرجاءِ الغرفة، كما لو أنها تبحثُ عن شيءٍ ما، ثمَّ دون أن تقول كلمةً أخرى نهضت، وذهبت إلى الغرفةِ المجاورة، تاركةً البابَ مفتوحًا. وعادت بعدَ بِضع دقائق، وجلست في الكرسيِّ الذي تركتهُ للتوِّ.

قالت بصوت رسمي نوعًا ما، وهو نبرة لم تستخدمها حتى ذلك الحين: «ربما أستطيعُ مساعدتك، لكن أريدكَ أن تعدني بشيء: أنه فيما

ستكتبُه.. حين تفعل، لن تُلحِق أيَّ ضررٍ بذكرى ريتشارد، بصرفِ النظر عن نتائج بحثك. أفهمُ أنَّك مهتمٌّ بويدر، لذا فإنَّ شخصية ريتشارد ليست بالضرورة على نفس درجة الأهمية بالنسبةِ لك. يمُكنك حذفُ بعض الأشياء التي تتعلَّق به وحده. هل تعدُني؟».

أنا لستُ قدِّيسًا، وكصحفي، فقد كذبتُ في بعضِ الأحيان أكاذيب كبيرة لأحصلَ على معلوماتٍ ضرورية لقصة. لكني قلتُ لنفسي: إنها تستحقُّ أن أكون صريحًا معها.

- دانا، كصحفي، من الصعب جدًّا أن أعدكِ بشيءٍ كهذا. إذا اكتشفتُ أي شيء مهم عن حياة ويدر ومسيرته، وكان لهُ علاقة مباشرة بريتشارد، فلا يمكنني حذفُه. لكن لا تنسي أنه كتب عن الأحداث، لذا فهو من كان يرغبُ في نشرها. تقولين: إنه غيَّر رأيه، وضغطَ زرَّ الحذف. لا أعتقدُ ذلك. أظن أنه على الأرجح قد أخفى المخطوطة في مكانٍ ما. كان شخصًا عمليًّا. لذا لا أعتقدُ أنه كان ليُرهق نفسه بالعمل على مخطوطة لأسابيع وأسابيع، وخلال ذلك الوقت لا ريبَ أنه فكَّر في كل نيَّةٍ انطوت عليها سريرتُه، ثم يمسحها بعد ذلك بكل بساطة. أنا شبهُ متأكد أنَّ المخطوطة لا تزالُ موجودة في مكانٍ ما، وأن ريتشارد أراد نشرها حتى آخر لحظة في حياته.

- ربما تكونُ على حق، لكن مع ذلك، هو لم يخبرني بأي شيءٍ عن هذا المشروع. هل يمكنك على الأقل إبقائي على اطلاع بما تكتشفه؟ لا أحبُّ الإلحاح، وعلى أيِّ حال سأغادرُ المدينة، لكن يمكننا التحدُّث عبر الهاتف.

وعدتها بأنني سأتصلُ بها حالَ اكتشافي أيَّ شيءٍ مهم عن فلين، فأخرجت قطعة ورقٍ مُجعَّدة من دفتر ملاحظات، فردتها، ووضعتها على الطاولة بين أكوابنا، وأشارت إليها.

أخذتُها من على الطاولة، ورأيت أن عليها اسمًا، ورقم هاتف محمول مكتوبين.

- في الليلة التي تلقى فيها ريتشارد المكالمة التي أخبرتك عنها، انتظرتُ حتى نام، ثم تحقَّقتُ من سجل المكالمات على هاتفه المحمول. كتبتُ الرقم الذي تطابقَ مع وقتِ المكالمة. كنت أشعر بالخجل من تصرُّفي بدافع الغيرة، لكنني قلقتُ جدًّا من الحالة التي رأيتهُ فيها.

في اليومِ التالي، اتصلتُ بالرقم، وأجابت امرأة. أخبرتها أنني شريكةُ ريتشارد فلين، وأن لديَّ أمرًا مهمًّا يجبُ أن أبلغه لها من جانبه، وهو أمرٌ لا ينبغي مناقشتهُ عبر الهاتف. تردَّدت، لكنها قبِلَت اقتراحي، والتقينا في مطعمٍ قريبٍ من هنا، وتناولنا الغداء. قدَّمَت نفسها باسم لورا ويستليك. اعتذرتُ إليها على تواصلي معها، وأخبرتُها أنني كنت قلقة بشأن ريتشارد بعدما رأيتُ سلوكه من بعدِ محادثتهما في تلك الليلة.

أخبرتني ألا أقلق: كانتا هي وريتشارد يعرفان بعضَهما منذ فترة من برينستون، وكان بينهُما خلافٌ غير مهم حول حدثٍ قديم. وأخبرتني أنَّهما تشاركا منزلًا لبضعةِ أشهر، لكنَّهما كانا مجرَّد صديقين. لم أمتلك الشجاعة لأُخبرها بما قالهُ ريتشارد عنها بعد محادثتهما، لكنني زعمتُ أنهُ أخبرني بأنهما كانا عاشقين. ردَّت على ذلك بأنَّ ريتشارد ربما كان يتوهَّمُ الأمور، أو ربما ذاكرتهُ تخونه، وأكَّدت مرة أخرى أنَّ علاقتهما كانت علاقة عذرية تمامًا.

- هل أخبرتكِ أين تعمل؟

- تُدرِّسُ علم النفس في جامعة كولومبيا. غادرنا المطعم، وافترقنا كلٌّ إلى طريقه، وهذا كلُّ شيء. إذا تحدَّث ريتشارد معها مرة أخرى بعد ذلك، فقد فعلَ ذلك دون علمي. ربما ما زالَ الرقم يعمل.

شكرتُها، وغادرت، ووعدتُها مرةً أخرى بأن أُبقيها على اطلاع بدور ريتشارد في كل هذا.

تناولتُ الغداء في مقهى في تريبيكا، وربطتُ جهازي اللابتوب بالإنترنت اللاسلكي. وهذه المرة، كانَ جوجل أكثرَ سخاءً.

تعملُ لورا ويستليك بروفيسورًا في المركز الطبي لجامعة كولومبيا، وتديرُ برنامج أبحاث مشترك مع كورنيل. حصلت على درجة الماجستير من برينستون عام 1988، وعلى الدكتوراه من كولومبيا بعد أربعِ سنوات. وفي منتصف التسعينات، درست في زيورخ، قبل أن تعودَ إلى كولومبيا. تضمَّنت سيرتُها الذاتية الكثير من التفاصيل التقنية حول التدريبات المتخصِّصة وبرامج الأبحاث التي أدارتها على مرِّ السنين، بالإضافة إلى جائزة كبرى فازت بها في عام 2006. بعبارةٍ أخرى، أصبحت شخصية بارزة في مجال علم النفس.

جرَّبتُ حظِّي، واتصلتُ بمكتبها بمجرَّد مغادرتي للمقهى. أجابت مساعدة تدعى براندي، وأخبرتني أنَّ د. ويستليك غير متاحة حاليًّا، لكنها كتبت اسمي ورقمي. وطلبتُ منها أن تخبر د. ويستليك أنني أتصلُ بخصوص السيد ريتشارد فلين.

قضيتُ الأمسية في مخبئي مع سام، نتبادلُ الحب ونتحدَّثُ عن التحقيق. وفي وقتٍ لاحق، كانت في حالة نوستالجيا، ورغبَت في اهتمامٍ أكثر من المعتاد، وكان لديها الصَّبر للاستماع إلى كل ما لديَّ لأقوله. حتى إنها ضبطت هاتفها المحمول على الوضعِ الصامت، وهو شيءٌ نادرًا ما تفعله، وأدخلتهُ في حقيبتها الملقاة على الأرضِ بجانب السرير.

قالت: «ربما قصةُ ريتشارد كلها مجرد مسرحية. ماذا لو أنهُ أخذ واقعة حقيقية، وابتكرَ أحداثًا خيالية حولها، مثلما فعل تارانتينو في فيلم (إنجلورياس باستاردز Inglourious Basterds)، أتذكُر؟».

قلت: «وارد، لكن الصحفي يتعاملُ مع الحقائق. وفي الوقتِ الحالي، سأفترضُ أن كلَّ ما كتبه حقيقي».

قالت: «لنكُن واقعيين. الحقائق هي ما يختارُ المحررون والمنتجون وضعَه في الصُّحف، أو على الراديو أو التلفزيون. لولانا، لما اهتمَّ أحد بأنَّ الناس يذبحونَ بعضهُم بعضًا في سوريا، أو أنَّ هناك سيناتور له عشيقة، أو أنَّ جريمة قتل وقعَت في أركنساس. لم يكُن لديهم أدنى فكرة عن حدوثِ أيٍّ من هذه الأشياء. لم يهتمَّ الناسُ بالواقع، بل بالقصص، يا جون. ربَّما أراد فلين كتابةَ قصة، وهذا كل شيء».

- حسنًا، هناك طريقة واحدة فحسب لنكتشف، أليسَ كذلك؟

- بالضبط.

تقلَّبت فوقي.

- أتعلَم، أخبرتني زميلة اليوم اكتشافها أنها حامل. كانت غاية في السعادة! ذهبتُ إلى الحمام، وبكيتُ لعشرِ دقائق، لم أستطع التوقف. تخيَّلتُ نفسي عجوزًا ووحيدة، أُهدِرُ حياتي على أشياءَ لن تكونَ ذات قيمة في غضونِ عشرين عامًا، في الوقت الذي أُغفلُ فيه الأمور المهمَّة حقًّا.

وضعَت رأسها على صدري، ومرَّرتُ يدي بلطفٍ على شعرها. وأدركتُ أنها تبكي بهدوء. تغيير موقفها فاجأني ولم أعرف كيف أتصرَّف.

قالت: «ربما عليكَ الآن أن تقولَ لي إنني لستُ وحدي، وأنك تُحبني، ولو قليلًا. هذا ما كان سيحدثُ في كتابٍ رومانسي».

- بالطبع. أنتِ لست وحدك، وأحبُّكِ قليلًا، يا عزيزتي.

رفعت رأسها عن صدري، وحدَّقت إلى عينيَّ. شعرتُ بأنفاسها الدافئة على ذقني.

- جون كيلر، أنتَ تكذبُ بشدة. قديمًا، كانوا ليعلِّقوكَ على أقرب شجرةٍ لأجلِ ذلك.

- كانت أيامًا صعبة في ذلك الوقت، يا سيدتي.

- حسنًا، لقد استعدتُ توازني، أنا آسفة. تعرف، يبدو أنكَ مستغرقٌ تمامًا في هذه القصة.

- سبب آخر كانوا سيعلقونني لأجله، أليسَ كذلك؟ ألم تقولي إنها قصة جيدة؟

- أجل، قلتُ ذلك، لكنك تخاطر بأن ينتهي بك الأمر بعد بضعة أشهر في بيت قديمٍ مغلق في شارعٍ مهجور، دون أن تتمكَّن من فهم أي شيء. هل فكَّرتَ في ذلك؟

- إنه مجرَّدُ عملٍ مؤقت، أقومُ به لأنَّ صديقًا طلب مني ذلك. قد لا أجدُ شيئًا مذهلًا، لا شيء يثيرُ ضجة، كما تحبينَ القول. رجل وقع في حبِّ امرأة، ولكن لعدة أسباب انتهى الأمرُ بشكلٍ سيئ، وربما عاشَ بقلبٍ مكسور لبقية حياته. ورجلٌ آخر قُتِل، ولا أعرفُ حتى إذا كان هناك رابطٌ بين القصَّتين. لكن كصحفي تعلَّمتُ أن أستمع إلى حدسي وأتبعُه، وأي وقت لم أفعل فيه ذلك، أفسدتُ الأمر. ربما هذه القصة مثل إحدى الدمى الروسية، كلٌّ واحدة منها تُخفي أخرى مختلفة بداخلها. حسنًا، يبدو ذلكَ سخيفًا قليلًا، أليس كذلك؟

- كل قصَّة جيدة تحتوي على بعضِ السَّخافة. في هذا العُمر، من الضروري أنَّك أدركتَ ذلك الآن.

بقينا هناك نحتضنُ بعضنا بعضًا لفترة طويلة، دون ممارسة الحب، أو حتى التحدُّث، كلٌّ منا غارقٌ في أفكاره، حتى صارت الشقة مظلمة تمامًا، وبدت ضوضاء حركة المرور المسائية، وكأنها تأتي من كوكبٍ آخر.

اتصلت بي لورا باينز في الصباحِ التالي، بينما كنتُ في السيارة. كان صوتُها محببًا، يميلُ إلى الخشونةِ قليلًا، يمكنك أن تقعَ في حبِّه حتى قبلَ أن ترى صاحبته. كنتُ أعلمُ أنها تجاوزت الخمسين، لكنَّ صوتها بدا أصغرَ بكثير. قالت: إنَّها تلقَّت رسالتي، وسألتني عن هويتي، وما علاقتي بريتشارد فلين. عرَفَت أنهُ توفِّيَ مؤخرًا.

قدَّمتُ نفسي، وأخبرتها أن الموضوع الذي أريد طرحهُ خاصٌّ جدًّا بحيث لا يمكن مناقشتهُ عبر الهاتف، واقترحتُ أن نلتقي.

قالت: «أعتذر سيد كيلر، لكنني لستُ معتادة مقابلة الغرباء. لا أملك فكرة عن هويَّتك أو عما تريده. إذا كنت ترغبُ في اللقاء، فستحتاجُ إلى تزويدي بالمزيدِ من التفاصيل».

قررتُ إخبارها بالحقيقة.

- د. ويستليك، كتب السيد فلين قبل وفاته، كتابًا عن المدة التي قضاها في برينستون، والأحداث التي وقعت في خريف وشتاء عام 1987. أعتقدُ أنَّكِ تعرفينَ ما أتحدَّثُ عنه. أنتِ والبروفيسور جوزيف ويدر الشخصيتانِ الرئيستان في قصته. وبِناءً على طلبِ ناشر الكتاب، أنا أحقِّقُ في مدى صحَّة ما يُقالُ في المخطوطة.

- هل أفهمُ من ذلك أن ناشرًا قد اشترى المخطوطة بالفعل؟

- ليس بعد، ولكنَّ وكالة أدبية تولَّت الأمر، لكن...

- وأنت، سيد كيلر، هل أنتَ محقِّقٌ خاص، أو شيء من هذا القبيل؟

- لا، أنا صحفي.
- لأيِّ صحيفةٍ تكتب؟
- كنت أعمل كمستقل لمدة عامين، ولكن قبل ذلك عملت في صحيفة (ذا بوست).
- وتعتقدُ أن ذِكر اسم تلك الصحيفة هو توصية جيدة؟

كان لديها نبرةٌ هادئة ومتزنة تمامًا، تكادُ تكون خالية من التعابير.

اختفت اللكنة الغرب أوسطية التي تحدَّث عنها فلين في مخطوطته تمامًا. تخيَّلتُها في قاعةِ المُحاضرات، تتحدَّثُ إلى الطلاب، وهي ترتدي نفس النظارات ذات الإطار السميك التي ارتدتها في شبابها، وشعرُها الأشقر مربوطٌ بإحكام على شكل كعكة، متعجرفة وواثقة. كانت صورة جذابة.

توقَّفت، غير واثقٍ ماذا أقول بعد ذلك، فتابَعَت: «هل استخدمَ ريتشارد أسماء حقيقية في الكتاب، أم أنك استنتجتَ فقط أنها تشير إلى جوزيف ويدر وأنا؟».

- لقد استخدم أسماء حقيقية. بالطبع، أشار إليكِ باسمك قبل الزواج، لورا باينز.
- تلكَ التسمية تُشعرني بشيءٍ غريب، سيد كيلر. لم أسمعها منذُ سنوات عديدة. هل يعلمُ الوكيلُ الأدبي الذي وظَّفك، أن دعوى قضائية قد توقِفُ نشر مخطوطة ريتشارد، إذا تسبَّبت محتوياتها في أي ضرر مادي أو معنوي لي؟
- لماذا تعتقدينَ أنَّ مخطوطة السيد فلين قد تضُرُّك، د.ويستليك؟
- لا تتذاكى معي سيد كيلر! السببُ الوحيد الذي يدفعُني للحديثِ معك هو أنَّ لدي فضولًا لمعرفة ما كتبه ريتشارد في كتابه. أذكُر

أنه كان يحلم بأن يصير كاتبًا في تلك الأيام. حسنًا، سأقترحُ عليكَ صفقة ... تُعطيني نسخةً من المخطوطة، وأوافقُ على لقائك، والتحدُّث إليكَ لبضع دقائق.

إذا فعلت ما تطلبه، فسأقعُ في انتهاكِ بند عدمِ الكشف الوارد في العقد الموقَّع مع الوكالة. وإذا رفضت، كنتُ متأكدًا أنَّها ستُنهي المكالمة. واخترتُ الخَيارَ الذي بدا لي أقلَّ ضررًا في تلك اللحظة.

قلت: «أوافق. لكن يجب أن تعرفي أن الوكالة قد زوَّدتني بنسخة ورقية لمقتطف من الفصول الأولى فقط من مخطوطة ريتشارد. تبدأُ القصة في وقتِ لقائكِ به لأوَّل مرة. هناك سبعونَ صفحة أو نحوَ ذلك».

فكَّرَتْ في الأمر لبضع لحظات.

قالت أخيرًا: «حسنًا. أنا في مركز كولومبيا الطبي. ما رأيُك أن نلتقي هنا بعد ساعة، في العاشرة والنِّصف؟ هل يمكنك إحضارُ الصفحاتِ معك؟».

- بالتأكيد، سأكونُ هناك.

- اذهب إلى جناح ماكين، واطلُبني في الاستقبال. وداعًا الآن، سيد كيلر.

- وداعًا و...

قطعت المكالمة قبل أن أتمكَّن من شكرها.

انطلقتُ بسرعة عائدًا إلى المنزل، وأنا ألعنُ بيتر في ذهني، لأنَّه لم يُعطِني المخطوطة بصيغة إلكترونية. أخذتُ المقتطف من المنزل، وذهبتُ للبحثِ عن متجرِ نسخ، ووجدت في النهاية واحدًا على بُعدِ ثلاثة شوارع.

بينما شابٌّ ناعس بقرطٍ فضيٍّ في فتحة أنفه اليسرى، وذراعٍ مغطاةٍ بالوشوم ينسخ الصفحات على جهاز زيروكس قديم، كنتُ أفكِّرُ في كيفيةِ بدء حديثي معها. بدت باردة ونفعيَّة، وذكَّرتُ نفسي بألا أنسى للحظة واحدة أن عملَها هو التطفُّل على عقولِ الناس، تمامًا كما حذَّرَت ريتشارد بشأن البروفيسور ويدر قبلَ سنواتٍ عديدة.

أربعة

مركز كولومبيا الطبي كانَ يقعُ في واشنطن هايتس، لذلك مررتُ بجانبِ الحديقة إلى الجادَّة 12، ثم انعطفتُ إلى طريق إن. واي. 9 إيه. وبعدها اتَّبعتُ شارع 168. وبعدَ نصفِ ساعة، كنتُ قد وصلتُ أمام مبنيين طويلَين مرتبطينِ بممراتٍ زجاجية.

كان جناحُ ماكين في الطابق التاسع من مبنى مستشفى ميلستين. أعطيتُ اسمي عند الاستقبال وقلتُ: إن د. ويستليك في انتظاري، فاتصلت السكرتيرة بها عبرَ الخط الداخلي.

نزلت لورا باينز بعد بضعِ دقائق. كانت طويلة وجميلة. ولم يكُن شعرُها مربوطًا في كعكةٍ مشدودة كما تخيَّلتُها، بل ذا تسريحةٍ بسيطة، حيث خصلاتُ شعرها المتموِّجة تتدلَّى على كتفيها. كانت جذَّابة بلا شك، لكنها ليست من النوعِ الذي يلفتُ الانتباهَ في الشارع. لم ترتدِ نظارات، فتساءلتُ إن كانت قد تحوَّلت إلى العدسات اللاصقة خلال تلك السنوات.

كنتُ الشخصَ الوحيد في الاستقبال، فأتت إليَّ مباشرةً، ومدَّت يدها.

قالت: «أنا لورا ويستليك. سيد كيلر؟».

- سعيدٌ بلقائك، وشكرًا على قبولك بلقائي.

- هل ترغبُ ببعض القهوة أو الشاي؟ هناك كافيتريا في الطابق الثاني. أنذهب؟

نزلنا سبعةَ طوابق في المصعَد، ثم مررنا عبرَ بعضِ الأروقة قبل أن نصِل إلى الكافيتريا، وكانت إحدى جدرانها زجاجية، مما يوفرُ إطلالة رائعة على نهر هدسون. مَشَت لورا بخُطى واثقة، مستقيمةَ الظهر، وبدَت غارقة في أفكارِها على طولِ الطريق. لم نتبادل كلمةً واحدة. ولاحظتُ أنَّها لم تستخدم مساحيقَ تجميل، لكنَّها وضعت عطرًا خفيفًا. كان وجهُها ناعمًا، يكادُ يكونُ بلا تجاعيد، وبشرتُها مسمرَّة قليلًا، وذات ملامِح واضحة. اشتريتُ لنفسي كابتشينو، بينما اختارت هي الشاي. كان المكانُ شبهَ فارغ، والتصميمُ الداخلي على طرازِ الفن الحديث يخفِّفُ من شعور أننا في مستشفى.

قبل أن أتمكَّن من نُطق كلمة، تحدَّثَت مرةً أخرى.

قالت وهي تُقشِّر غلاف كبسولةِ الحليب، وتفرغُ محتوياتها في فنجان الشاي: «المخطوطة، سيد كيلر. كما وعدت».

أخرجتُ الأوراقَ من حقيبتي، وسلَّمتُها إليها. قلَّبت الأوراقَ لبضع ثوانٍ، ثم وضعتها بحذر على الطاولةِ إلى يمينها بعد أن أعادتها إلى الملف. أخرجتُ مسجِّلَ صوتٍ صغير، وقمتُ بتشغيله، لكنَّها هزَّت رأسها معبِّرةً عن عدمِ الرضا.

- أَطفئْهُ سيد كيلر! أنا لا أقدِّمُ مقابلة. لقد وافقتُ على الحديث معك لبضعِ دقائق فحسب، وهذا كل شيء.

- حديثٌ غير رسمي؟

- بالتأكيد.

أطفأتُ المسجِّل، ووضعتهُ في حقيبتي.

- د.ويستليك، هل لي أن أسألكَ متى وكيف التقيتِ ريتشارد فلين؟

- حسنًا، لقد حدثَ ذلك منذُ زمنٍ بعيد... في خريف عام 1987، حسبما أذكُر. كلانا كان طالبًا في برينستون، وتشاركنا منزلًا صغيرًا بالقربِ من نُصبِ المعركةِ التذكاري، مكوَّنًا من غرفتين لبضعةِ أشهر. انتقلتُ من هناك قبل أعياد الميلاد، لذا عشنا معًا لمدة ثلاثةِ أشهر تقريبًا.

- هل قدمتِه إلى البروفيسور ويدر؟

- أجل. أخبرتهُ أنني أعرفُ الدكتور ويدر جيدًا، لذلك أصرَّ أن أعرِّفه إليه، حيثُ كان البروفيسور شخصية عامة شهيرة في ذلك الوقت. في محادثة مع ريتشارد، ذكر الدكتور ويدر مكتبته. كان يريدُ سجلًّا إلكترونيًّا لها، إذا تذكَّرتُ بشكلٍ صحيح. كان فلين بحاجةٍ إلى المال، فعرضَ عليهِ القيامَ بالمهمة، ووافق البروفيسور. للأسف، أعتقدُ أنه واجهَ الكثير من المشكلات بعد ذلك، وحتى اعتُبِرَ مشتبهًا فيه في القضية. لقد قُتِلَ البروفيسور بوحشية. أنت تعرفُ هذا، أليس كذلك؟

- بلى، أعلم، وفي الواقع هذا هو السبب الذي يجعلُ الوكالة التي أعملُ لصالحها مهتمَّة جدًّا بهذه القضية. هل كنتِ أنت وفلين أكثر من مجردِ زملاء في السكن في أيِّ وقت؟ لا أريدُ أن يبدو سؤالي غيرَ لائق، لكن ريتشارد يوضِّح بشكل صريح في كتابه أنَّكما كنتما على علاقة جنسية، وأنَّكما كنتما عاشقين.

ظهرت تجعيدة بينَ حاجبيها.

- أجدُ أنه من السُّخف قليلًا الحديث عن هذه الأمور سيد كيلر! لكن أجل، أتذكَّرُ أن ريتشارد كان يحبُّني، أو بالأحرى مهووسًا بي. لكننا لم ننخرط في علاقةِ حب. كان لديَّ حبيب في ذلك الوقت...

- تيموثي ساندرز؟

بدت مدهوشة.

- تيموثي ساندرز، هذا صحيح. هل تعرفُ الاسم من المخطوطة؟ هذا يعني أن ريتشارد كان لديه ذاكرة رائعة، أو ربما كان لديه ملاحظات، أو يوميات من ذلكَ الوقت. لم أكُن أظنُّ أن بإمكانه تذكُّرَ مثل هذه التفاصيل بعد كل هذه السنوات، ولكن بشكلٍ ما، أنا لستُ مدهوشة. على أيِّ حال، كنتُ أحب حبيبي، وكنَّا نعيشُ معًا، ولكنهُ اضطرَّ للسفر إلى أوروبا لبضعةِ أشهر كجزءٍ من برنامج بحثي، وكان إيجارُ شقتنا مرتفعًا جدًّا بالنسبة لي لدفعهِ بمفردي، لذا وجدتُ مكانًا آخر. وخلالَ فترة سفر تيموثي، تشاركت منزلًا مع ريتشارد. وعندما عاد، عُدنا للعيشِ معًا، قبل أعيادِ الميلاد مباشرةً.

علَّقت، متذكِّرًا ما قالهُ فلين في المخطوطة: «أنتِ لا تستخدمينَ الاختصارات لأسماء الأشخاص، حتى عندما تتحدَّثين عن أشخاصٍ مقرَّبين منكِ»

- هذا صحيح. أعتقدُ أن التصغيرات طفولية.

- ريتشارد يقولُ في المخطوطة: إنه شعرَ ببعضِ الغيرة من البروفيسور ويدر، وأنه لوقتٍ ما اشتبه في كونكما على علاقة غرامية.

ارتبكت قليلًا وتدلَّت زوايا فمها. للحظة شعرتُ أن قناعها بدأ يتشقَّق، لكن سرعان ما استعادت تعبيراتها الهادئة.

قالت: «كانت واحدة من هواجس ريتشارد سيد كيلر! البروفيسور ويدر لم يكن متزوجًا، ولا لديه شريكة، لذلك افترضَ بعضُ الناس أنه قد يكون في علاقةٍ غرامية يُخفيها. امتلك الرجل كاريزما خاصة، رغم أنه لم يكُن وسيمًا جدًّا، وتصرَّفَ تجاهي بشكل وقائي للغاية. أعتقدُ أنه في النهايةِ لم يهتم كثيرًا بالعلاقاتِ العاطفية، إذ كرَّس نفسه تمامًا لعملِه. بصراحة، أعلمُ أنَّ ريتشارد راودتهُ الشكوك، لكن لم يكن هناك شيءٌ من هذا القبيل بيني وبين جوزيف ويدر، سوى علاقة طبيعية بين طالبة وأستاذها. كنتُ واحدة من طلابِهِ المفضَّلين، وكان هذا واضحًا، ولكن هذا كل شيء. كما أنني ساعدتهُ بشكلٍ كبير في المشروعِ الذي عَمِلَ عليهِ في ذلكَ الوقت.

تساءلتُ إلى أيِّ مدى يمكنني المضيُّ قُدمًا دونَ أن أخاطرَ بإنهائها للمحادثة، ثمَّ تابَعت: «قال ريتشارد أيضًا: إنَّ البروفيسور أعطاكِ مجموعة مفاتيح احتياطية لمنزله، وأنكِ كنتِ تذهبينَ إلى هناك كثيرًا».

هزَّت رأسها.

- لا أظنُّ أنه أعطاني مفاتيح منزله، على الأقل لا أتذكَّرُ ذلك. لكن أعتقدُ أن ريتشارد حصلَ على مجموعةِ مفاتيح، حتى يتمكَّن من العملِ في المكتبة في غيابِ البروفيسور عن المنزل. وهذا هو السبب في مواجهتِهِ لمشكلات مع الشرطة.

- هل تعتقدين أن ريتشارد كان قادرًا على قتلِ ويدر؟ لقد كان مشتبهًا به لفترة.

- اخترتُ مجالًا يُعلِّمك، من بين أمورٍ أخرى، كيف للمظاهر أن تكونَ خدَّاعة، سيد كيلر. ريتشارد ضايقني باستمرار بعد أن انتقلتُ من

ذلك المنزل. انتظرني بعد الدروس، وكتَبَ إليَّ عشرات الرسائل، واتصلَ بي عشرات المرات في اليوم. بعد وفاة البروفيسور، تحدَّث معهُ تيموثي عدَّة مرات، وطلبَ منه الاهتمامَ بشؤونه، وتركنا وشأننا، لكن دون جدوى. لم أقدِّم شكوى ضده للشرطة، لأنه كان لديه ما يكفي من المشكلات، وفي النهاية فقد شعرتُ بالشفقةِ عليه أكثر من خوفي منه. ومع مرورِ الوقت، ساءت الأمور... ولكن على أيِّ حال، لا ينبغي الحديثُ بالسوء عن الموتى. لا، لا أعتقدُ أنهُ كان قادرًا على القتل.

- لقد قلتِ للتو: إنَّ الأمور ساءت مع مرور الوقت. ماذا تقصدين بذلك؟ أعلم من المخطوطة أنه شعَرَ بالغيرة. والغيرة دافعٌ شائع في مثل هذه القضايا، أليس كذلك؟

- سيد كيلر! لم يكن لديه أيُّ مبرر للشعور بالغيرة. كل ما فعلناه هو تشارُك منزل، كما قلت. لكنه كان ببساطة مهووسًا بي. في العام التالي، جئتُ إلى جامعة كولومبيا، لكنهُ اكتشفَ عنواني، واستمرَّ في الكتابة لي، والاتصال بي. حتى إنه جاءَ إلى هنا في المدينة في إحدى المرات. ثمَّ سافرتُ إلى أوروبا لفترة، وتمكَّنتُ من الابتعادِ عنهُ بهذه الطريقة.

فوجئتُ جدًّا بما أسمعه.

- في المخطوطة، قال ريتشارد فلين شيئًا مختلفًا تمامًا. زعم أن تيموثي ساندرز هو الذي كان مهووسًا بكِ وأزعجكِ باستمرار.

- سأقرأُ المخطوطة، ولهذا طلبتُ منكَ الحصول عليها. سيد كيلر! بالنسبة لشخصٍ مثل ريتشارد فلين، لا وجود للحدود بين الخيال والواقع، أو أنها رفيعة جدًّا. في تلك الفترة، عانيت حقًّا بسببه في بعض الأحيان.

- في الليلة التي قُتِل فيها البروفيسور، هل ذهبتِ إلى منزله؟

- لقد زرتُ البروفيسور في منزله ما مجموعهُ ثلاث، أو أربع مرات فحسب طوالَ ذلك العام. برينستون مدينة صغيرة، وكنا سنواجهُ مشكلات إذا أتيحت الفرصة للشائعاتِ عنَّا. لذلك، لا، لم أذهب إلى هناك تلكَ الليلة.

- هل استجوبتكِ الشرطة بعد جريمة القتل؟ لم أرَ اسمكِ في الصحف، لكن اسم فلين كان في كل مكان.

- أجل، أعتقدُ أنهم استجوبوني مرة واحدة فحسب، وأخبرتهم أنني كنت مع صديقة لي طوالَ المساء.

نظرَت إلى الساعة على معصمها الأيسر.

- للأسف، يجبُ أن أذهب الآن. أسعدني الحديثُ معك. ربما يمكننا أن نتحدَّث مرة أخرى بعد أن أقرأ المخطوطة وأنعش ذاكرتي.

سألتها بينما وقفنا عن الطاولة: «لماذا غيَّرتِ كنية عائلتك؟ هل تزوجتِ؟».

- لا، لم أجد وقتًا لأي شيء من هذا القبيل. وصراحةً، غيَّرتُ اسمي لكي أبتعدَ عن ريتشارد فلين، وكل تلك الذكريات. اهتممتُ كثيرًا لأمر البروفيسور ويدر، وحطَّمني ما حدثَ له. فلين لم يكُن عنيفًا قط، لكنه كان مزعجًا، وقد سئمتُ من مضايقاته التي بدت وكأنَّها لن تتوقف أبدًا. في عام 1992، قبل أن أذهب إلى أوروبا، أصبحتُ لورا ويستليك. إنه في الواقع اسم عائلة والدتي قبلَ الزواج.

شكرتها، ثم التقطت نسخةَ المخطوطة، وغادرنا الكافتيريا، التي بدأت تصبحُ مزدحمة.

وصلنا إلى المصعد، ودخلنا، واتجهنا نحو الطابق التاسع. سألتها: «شريكة فلين، دانا أولسن، أخبرتني أنه ذات مساء سمعتهُ يتحدث معك على الهاتف. وتواصلت معكِ بشأنه، والتقيتما. هل يمكنني أن أسألك عمَّا تحدَّثتما على الهاتف؟ هل تمكَّن من العثورِ عليكِ مجددًا؟».

- انقطع تواصلي مع ريتشارد منذُ أكثر من عشرين عامًا، عندما ظهر فجأةً في خريف العام الماضي عند بابِ شقتي. أنا لستُ ممن يفقدون السيطرة بسهولة، لكنني صُدِمتُ حقًّا، خاصةً حين بدأ يهذي بالكثير من الهراء، وصار واضحًا أنه مضطرب للغاية، مما جعلني أتساءل ما إذا كان يعاني مرضًا نفسيًّا. لقد هددني ببعضِ الاكتشافات، والتي لم تتضح طبيعتها، ولكن بدت وكأنَّها تتعلق بالبروفيسور ويدر. صراحةً، كنتُ قد تمكَّنت تقريبًا من نسيانِ أنني عرفتُ شابًّا يدعى ريتشارد فلين. وفي النهاية طلبتُ منه المغادرة. اتصل بي مرتين أو ثلاث مرات بعد ذلك، لكنني رفضتُ لقاءه، ثم توقفتُ عن الرد على الهاتف. لم أعلم أنه كان مريضًا جدًّا، لم يذكر لي أيَّ شيء عن ذلك. ثم علمتُ بوفاته. ربما عندما جاء إلى شقتي كان مضطربًا بسببِ مرضه، وغير قادر على التفكير السليم. سرطانُ الرئة غالبًا ما يتسبَّبُ في مضاعفات، مثل انتشارِ المرضِ إلى الدماغ. لا أعلمُ ما إذا كان هذا ما حدث مع ريتشارد، لكنهُ احتمالٌ وارد.

خرجنا إلى الخارج، وسألتها: «زعم ريتشارد أيضًا في مخطوطته أن البروفيسور ويدر كان يُجري أبحاثًا سرية. هل لديكِ أي فكرة عما كانت تدورُ حوله؟».

- إذا كانت سرية، فهذا يعني أننا لم يكن من المفترض أن نعرفَ شيئًا عنها، أليس كذلك؟ كلما أخبرتني المزيد عن هذه المخطوطة،

زادت قناعتي بأنها عمل خيالي بحت. العديدُ من الأقسام في كل جامعة كبرى تقوم بمشاريع بحثية، بعضها للوكالات الفيدرالية، وبعضها للشركاتِ الخاصة. ومعظم هذه المشاريع تكون سرية، لأن الجهة المموِّلة تريد الاستفادة من نتائج استثمارها، أليس كذلك؟ أعتقدُ أن البروفيسور ويدر عَمِلَ على شيءٍ من هذا القبيل. كل ما فعلته هو أنني ساعدتهُ في الكتاب الذي كان يكتبه في ذلك الوقت، ولم أكن على علمٍ بأي شيءٍ آخر ربما يعملُ عليه. وداعًا، سيد كيلر، عليَّ أن أذهب الآن. أتمنى لكَ يومًا سعيدًا».

شكرتها مرة أخرى على لقائي، ثم أخذتُ المصعد إلى الطابق الأرضي.

بينما أسيرُ نحو موقف السيارات، تساءلتُ كم من حديثها حقيقي؟ وكم منه أكاذيب؟ وما إذا صحَّ أن فلين تخيَّلَ العلاقة المزعومة بينهما. خلف هدوئها الظاهري، أعطتني انطباعًا بأنها خائفة مما قد يقدر فلين على كشفه عن ماضيها. كان شعورًا أكثر من كونه شيئًا له علاقة بلغة جسدها، أو تعابير وجهها، كأنه رائحة مميزة لم تستطع إخفاءها تحت عطرها.

كانت إجاباتُها دقيقة -ربما أكثر من اللازم- حتى وإن كررت عدة مرات أنها لا تتذكَّر كل التفاصيل. وكيف يمكنها النسيانُ تقريبًا، حتى بعد كل هذه السنين، شابًّا عاشت معه في نفس الشقة، وضايقها لشهور، واتُّهِمَ بقتلِ مُعلمها وصديقها؟

خمسة

اتصلَ بي هاري ميلر بعد بضعِ ساعات، بعد أن التقيتُ أحدَ مصادري القدامى، وهو محقِّق جرائم قتل متقاعد، كان وعدني بأنه سيحاولُ التواصل مع أحد الأشخاص من قسم شرطة بلدة ويست ويندسور في جيرسي. حيثُ دعوتهُ لتناولِ الغداء في مطعم أورسو في شارع 46 الغربي، وكنتُ عائدًا إلى سيارتي المصفوفة على بُعد شارعين. كان المطر يهطِل، والسماءُ بلونِ حساءِ الكرنب. أجبتُ الهاتف، وأخبرني هاري أنَّ لديه بعضُ الأخبار. احتميتُ تحت مظلة متجرٍ صغير، وسألتهُ عن الأخبار الجيدة.

قال لي: «بينجو! سارة هاربر تخرَّجَت في عام 89، ولم تكن سعيدة الحظ. بعد الكلية، حصلت على وظيفة في مدرسة للأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة في كوينز، وعاشت حياة عادية لمدَّة عشر سنوات. ثم ارتكبت خطأً سيئًا بالزَّواج من مغني جاز يُدعى جيري لونديز، وقد حوَّل حياتها جحيمًا. دخلت إلى عالم المخدرات، وانتهى بها الأمر بقضاء سنة في السجن. وفي عام 2008 تطلَّقت، وهي الآن تعيشُ في برونكس، في كاسل هيل. ويبدو أنها مستعدَّة للحديث عن الأيام الخوالي».

- رائع. هل يمكنك إرسال عنوانها ورقم هاتفها؟ ماذا اكتشفت عن سيمونز؟

- ديريك سيمونز لا يزالُ يعيش في جيرسي، مع سيدة تدعى ليونورا فيليس. في الواقع، لقد تحدَّثتُ معها لأنَّ الرجل لم يكن في المنزل. إنها تعتني بِهِ بطريقة ما؛ ويعيشان في الغالب على الإعانات. شرحتُ لها أنك صحفي، وتريدُ التحدُّث إلى زوجها عن قضية البروفيسور ويدر. هي لا تعرفُ شيئًا عن كلِّ هذا، لكنَّها تتوقَّع مكالمة منك. تأكَّد أنَّ لديكَ بعض المال عندما تذهب هناك. أيَّ شيء آخر؟

- هل لديك أي مصادر في برينستون؟

- لديَّ مصادر في كل مكان، أنا خبير حقيقي يا بُني، كيف تظنُّني استطعتُ تتبُّع سارة هاربر؟ اتصلتُ بـ 911؟

- في هذه الحالة، حاول الحصولَ لأجلي على أسماءِ بعضِ الأشخاص من الثمانينات الذينَ عملوا في قسم علم النَّفس، وكانوا مقرَّبينَ من البروفيسور جوزيف ويدر. وليس الزملاء فحسب. أنا مهتم بالأشخاصِ الذين كانوا في مجموعته، أيُّ شخص يعرفهُ جيدًا.

أخبرني أنه سيحاولُ العثور على ما طلبته، ثم تحدَّثنا عن البيسبول لبضع دقائق أخرى.

أخذتُ سيارتي من المرآب، وعُدتُ إلى المنزل. اتَّصلتُ بسام، وعندما أجابت، بدا صوتها كما لو كانت في قاعِ بئر. أخبرتني أنَّها مُصابة بنزلةِ بردٍ شديدة، وأنها بعدما جرَّت نفسها إلى المكتب في الصباح، أرسلها مديرها مباشرةً إلى المنزل. وعدتُها أن أزورها في المساء، لكنها قالت: إنها تفضِّلُ النومَ مبكرًا، وعلى أيِّ حال، لم ترغب أن أراها في تلكَ الحالة. بعد أن أنهينا المكالمة، اتَّصلتُ بمتجر زهور، وطلبت أن يرسلوا إليها

باقة توليب. كنتُ أحاول أَلَّا تجرفني مشاعري، كما اتفقنا، لكن مع مرورِ الوقت اكتشفتُ أنني أفتقدُها أكثر وأكثر عندما لا نلتقي ليومٍ، أو اثنين.

اتصلتُ بسارة هاربر على الرقم الذي أرسلهُ لي هاري، لكنَّها لم تُجِب، لذا تركتُ لها رسالة صوتية. كان حظِّي أوفر مع ديريك سيمونز. أجابت شريكته، ليونورا فيليس، على الهاتف. كان لديها لكنة كاجون شديدة، وكأنَّها شخصية من مسلسل «شعب المستنقع Swamp People»، ذكَّرتها بحديثها مع شخص يدعى هاري ميلر، عن رغبتي في التحدُّث مع ديريك سيمونز.

- مما قالهُ رفيقك، يبدو أن الجريدة ستدفع، أليس كذلك؟

- صحيح، ربما هناك بعضُ المال في الأمر.

- حسنًا، سيد...

- كيلر. جون كيلر.

- حسنًا، أرى أنَّ عليكَ زيارتنا، وسأحرصُ على إخبارِ ديريك بما يدور حوله الموضوع. هو لا يحبُّ الحديث كثيرًا. متى ستأتي؟

- الآن، إذا لم يكُن الوقتُ متأخرًا.

- كم الساعة الآن، يا عزيزي؟

أخبرتُها أن الساعة 3:12 مساءً.

- ما رأيكَ في الخامسة؟

قلت إن ذلك مناسب، وتأكَّدت مرة أخرى أنها ستحاولُ إقناعَ ديريك بالحديث معي.

في وقتٍ لاحق، وبينما كنتُ أدخل النفق، وأفكِّر في حديثي مع لورا ويستليك، تذكَّرت فجأةً التفصيلة التي فاتتني في تلك الليلة الأولى بعد بدئي في البحث حول قضية ويدر؛ الكتاب الذي عَمِلَ عليه البروفيسور

في ذلك الوقت، والذي كان من المفترض أن يُنشر بعد بضعة أشهر. واعتقدت لورا باينز أنه سيُحدِث ضجَّة في عالم العلوم كما ذكر ريتشارد في مخطوطته. «قنبلة»، كما كانت سام ستقول.

ولكن عندما حاولتُ البحثَ عنه في أمازون، وعلى مواقع أخرى تسردُ أعمال البروفيسور، لم أجد أيَّ ذكرٍ له. فآخرُ كتابٍ نشره ويدر كان دراسة مكونة من 110 صفحة عن الذكاء الاصطناعي، أصدرتها مطبعة جامعة برينستون في عام 1986، قبلَ مقتلِهِ بأكثر من عام. ويدر أخبرَ ريتشارد أنه وقَّع عقد نشر للكتاب الذي كان يعملُ عليه، مما أثارَ شائعات بين زملائه. لذا فإنَّ ويدر قد أرسلَ بالفعل المخطوطة، أو مقترحًا إلى الناشر قبل وفاته، وربما تلقَّى على الأقل جزءًا من الدُّفعة المقدَّمة. فلماذا لم يُنشر الكتابُ قط؟

هناكَ تفسيران محتملان في رأيي.

الأول هو أنَّ الناشر غيَّرَ رأيُه، وقرَّر عدم نشر المخطوطة. وهذا غير وارد، نظرًا لوجود عقد، ومن منظورٍ ساخر، فإنَّ الغموض الذي أحاطَ بالقتلِ الوحشيِّ للبروفيسور ربما كان سيزيدُ من المبيعات. الشيء الوحيد الذي يمكنهُ دفع الناشر للتخلِّي عن المشروع. هو حدوث تدخُّل قوي. تدخُّل من قِبَل من؟ وعلى ماذا احتوت هذه المخطوطة؟ هل كانت مرتبطة بأيِّ شكل بالأبحاث السرية التي كان ويدر يعملُ عليها؟ هل كان ينوي كشفَ تفاصيل عنها في كتابه الجديد؟

الاحتمالُ الآخر هو أن منفِّذ وصية ويدر –من خلال الصحف علمتُ بوجود وصية، وأنه قد ترك كلَّ شيءٍ لأخته إنجي– قد عارضَ نشر الكتاب، وتمكَّن من تقديمِ الحُجج القانونية اللازمة. كنت أعلم أن عليَّ محاولة التحدُّث إلى أخته، رغم استقرارها في إيطاليا منذُ سنواتٍ عديدة، وربما لا تعرفُ الكثير عما حدث في وقت الجريمة.

انعطفتُ إلى طريق فالي، ثم يسارًا عبر شارع ويذرسبون، وسرعان ما وصلتُ إلى روكديل لين، حيث يعيش ديريك سيمونز وشريكته، غيرَ بعيدٍ عن مركز شرطة برينستون. وصلتُ أبكر مما توقَّعت. فأوقفتُ سيارتي بجوار مدرسة، ودخلتُ مقهًى قريبًا، حيث حاولتُ ترتيب الخيوط الجديدة التي ظهرت في تحقيقاتي في أثناءِ احتسائي كوبًا من القهوة. كلَّما فكَّرت في كتاب البروفيسور، زادت حيرتي بشأن عدم نشره مطلقًا.

يعيشُ ديريك سيمونز، وليونورا فيليس في بنجل صغير في نهاية الشارع، بجوار ملعب كرة مهجور تغمرهُ الحشائش. وهناك فناء صغير أمام المنزل، وفيه شجيراتُ ورد بدأت للتوِّ في التفتُّح. وتمثالُ قزم حديقة متَّسخ على يسار الباب الأمامي ينظرُ إليَّ بابتسامةٍ جبسية.

ضغطتُ الجرس، وسمعتهُ يرن في مكانٍ ما في الجزء الخلفيِّ من المنزل.

فتحت لي الباب امرأة قصيرة ذات شعر بُني، ووجه مجعَّد، تحملُ مغرفة في يدها اليمنى، وبدت عيناها متشكِّكتين. تبدَّدت بعضٌ من شكوكها عندما أخبرتُها أنني جون كيلر، ودعتني إلى الداخل.

ولجتُ ممرًّا ضيقًا مظلمًا، ثم غرفة معيشة مزدحمة بالأثاثِ القديم. وجلستُ على الأريكة، وأصدرت حشوتها سحابة مرئية من الغبار تحت ثقلي. وأمكنني سماعُ طفلٍ يبكي في غرفة أخرى.

طلبت مني أن أعذرها للحظة، واختفت، وبينما تُصدِر أصوات هدهدة في مكانٍ ما في الجزء الخلفي من المنزل. نظرتُ إلى الأشياءِ من حولي. وكانت جميعها قديمة، وغير متناسقة، كما لو أنها اشتُرِيَت بشكل عشوائي من معرض بيع في كراج، أو وُجدت ملقاةً في الشارع. ألواحُ الأرضية بها تشويهاتٌ هنا وهناك، وزوايا ورق الحائط تتقشَّر. وهناك

ساعة قديمة على الحائط تدقُّ بصوتٍ متهدج. وبدا أنَّ المبلغ الصغير المذكور في وصية البروفيسور قد نفدَ منذُ فترة طويلة.

عادت تحملُ بين ذراعيها طفلًا يبدو عمره نحو عامٍ ونصف، يمصُّ إبهامَهُ الأيسر. لاحظ الطفل وجودي على الفور، وحدَّق إليَّ بعينين جادَّتين ومتفكِّرتين. كانت ملامحهُ ناضجة بشكل غريب، ولم يكُن ليفاجئني أن يبدأ بالحديثِ معي بصوت رجلٍ بالغ يسألُني بغضب عمَّا أفعله هناك.

جلست ليونورا فيليس أمامي على كرسي من الخيزرانِ الرديء. تهزُّ الطفل بلُطف بين ذراعيها، وأخبرتني أنه حفيدها، توم. والدته ابنة السيدة فيليس، وتدعى تريشا، ذهبت إلى رود آيلاند للقاءِ شخصٍ تعرَّفت إليه عبر الإنترنت، وطلبت منها رعايةَ الطفل حتى تعود، وقد مرَّ شهران منذ ذلك الحين.

أخبرتني أنها أقنعت ديريك بالتحدُّث معي، لكن سيكون أفضل لو تحدَّثنا عن المال قبلَ ذلك. وشرحت لي أنها وديريك يواجهانِ صعوبة في تغطيةِ نفقاتهما. قبل ثلاث سنوات تمكَّنا من الحصول على مساعدة مالية صغيرة، وكان ذلك الجزء الأكبر من دخلهما، بالإضافة إلى بعض الأعمال البسيطة التي يقوم بها ديريك من آنٍ لآخر. بالإضافة إلى ذلك، عليهما الاعتناءُ بحفيدها. بكت المرأة بصوتٍ خافت بينما تروي لي ذلك، وكلَّما استمرت في الكلام، رمقني توم بتلك النظرات الغريبة التي تشبهُ نظرات الكبار.

اتفقنا على مبلغ معين، وسلَّمتُها المال، والذي قامت بعدِّه بعناية قبل أن تضعهُ في جيبها. وقفت، ووضعت الطفل على الكرسي، وطلَبت مني اللحاقَ بها.

مشينا عبر ممر حتى وصلنا إلى ما يشبه الفناء، حيث كانت الألواحُ الزجاجية المتَّسخة تُغربلُ ضوءَ الغروب وكأنها نوافذ زجاجية ملونة. والسطحُ مغطًّى بالكامل تقريبًا بطاولة عمل ضخمة، عليها صفوفٌ من الأدواتِ المختلفة. وأمام طاولة العمل هناك كرسي طويل يجلسُ عليه رجلٌ فارعُ الطول، قويُّ البنية، يرتدي بنطال جينز ملوَّثًا بالزيت وكنزة. وقف عندما رآني، وصافحني وعرَّف بنفسه أنهُ ديريك. والتمعَت عيناهُ الخضراوان في الضوءِ الخافت، وكانت يداهُ كبيرتينِ وخشنتين. على الرغم من أنه في الستينيات من عمره، فقد وقَفَ مستقيمًا، وبدا بصحةٍ جيِّدة. تغضَّنَ وجههُ بالتجاعيد العميقة التي بدت كالندوب، وغلَبَ البياضُ على شعره.

عادت شريكته إلى داخلِ المنزل، وتركتنا وحدنا. جلس على الكرسيِّ الطويل، بينما استندتُ أنا إلى طاولةِ العمل. في الفناء الخلفي، الذي كان صغيرًا مثل الأمامي، ومحاطًا بسياجٍ موبوءٍ بالحشائش الضارة، هناك أرجوحة صغيرة، إطارُها المعدنيُّ الصدئ يلُوحُ مثلَ شبحٍ في الأرضِ الجرداء المغطاةِ ببقايا العُشب، وبركِ المياه.

أخرجَ عُلبة سجائر من نوع «كاميل» من جيبه، وأشعلَ واحدة بولاعة بلاستيكية صفراء. وقال دون النَّظر إليَّ: «لقد أخبرتني أنك تريدُ التحدُّث عن جوزيف ويدر. أنت أوَّلُ شخصٍ يسألني عنه منذُ أكثر من عشرينَ عامًا».

بدا مُستسلمًا لتمثيلِ دور، مثل مُهرِّجٍ عجوز، مرهق، ومُستنزف من كل الحيل والنكات الجيدة، ومجبر على التمايلِ فوق نشارة خشب حلقة سيركٍ فقيرة؛ ليُسلِّي مجموعة من الأطفال اللامبالين الذين يمضغونَ العلكة، ويتلاعبونَ بهواتفهم المحمولة.

أخبرتهُ باختصار بما اكتشفتهُ عنه وعن البروفيسور ويدر، وعن لورا باينز وريتشارد فلين. وبينما أتحدَّث، كان ينفُث سيجارتهُ ويحدِّقُ نحو الفضاءِ الفارغ، مما جعلني أتساءلُ إذا كان حتى يستمعُ إليَّ. أطفأ سيجارتهُ، وأشعلَ أخرى، ثمَّ قال: «ولماذا أنتَ مهتمٌّ بكل تلك الأمور التي حدثت منذ زمنٍ بعيد؟».

قلت: « أحدهم طلب مني التحقيق في الأمر، وهو يدفع لي مقابل ما أفعله. أنا أعملُ على كتابٍ عن قضايا القتل الغامضة التي لم يُقبض فيها على الجناة».

قال بصوتٍ رتيب، كما لو أننا نتحدَّثُ عن الطقس: «أنا أعرفُ من قتلَ البروفيسور. كنتُ أعرفُ. وأخبرتهم حينها. لكن شهادتي لم تكن ذات قيمة. أيُّ محامٍ كان سيُلقي بها خارجَ المحكمة، لأنني قبل ذلكَ بسنواتٍ اتُّهمتُ بالقتل، وحُبِست في مستشفى الأمراض النفسية، لذا فقد كنتُ مخبولًا، هل تفهمني؟ كنت أتعاطى جميعَ أنواع الأدوية. كانوا سيقولونَ: إنني اخترعتُ الأمر، أو أنني أتوهَّم. لكنني أعرفُ ماذا رأيت، ولم أكُن مجنونًا».

بدا مقتنعًا تمامًا بما قاله. فسألته: «إذًا أنت تعرفُ من قتل ويدر؟».

قال: «أخبرتهم كلَّ شيءٍ سيدي! وبعد ذلك لم أتوقَّع أن يهتمَّ أيُّ شخصٍ بتلك القصة. لم يسألني أحد عن أيِّ شيءٍ آخر، لذا اهتممتُ بشؤوني الخاصة».

سألته: «من قتله، يا سيد سيمونز؟».

قال: «نادني ديريك. ذلكَ الفتى، ريتشارد. وتلكَ القطَّة الخبيثة، لورا، كانت شاهدة عيان، إن لم تكُن شريكة في الجريمة. الآن دعني أخبركَ بما حدث...».

على مدار الساعةِ التالية، وبينما يدخِّنُ السجائر بلا توقُف، والظَّلام يحلُّ ببطءٍ في الخارج، أخبرني بما رآهُ وسمعه في مساء 21 ديسمبر 1987، وقدَّم لي كلَّ أنواعِ التفاصيل التي أدهشني كيف يتذكَّرها جيدًا.

قال: إنه ذهبَ إلى منزلِ البروفيسور ذلك الصباح، لإصلاحِ المرحاض في الحمام بالطابقِ السفلي. وكان ويدر في المنزل، يحزمُ أمتعتَهُ لأجلِ رحلة إلى الغرب الأوسط، حيث خطط لقضاءِ العطلات مع بعض الرِّفاق. دعا ديريك لتناول الغداء، وطلب طعامًا صينيًّا. وبدا مُتعبًا وقلقًا، واعترف لديريك بأنه اكتشفَ بعضَ آثارِ الأقدام المشبوهة في الفناء الخلفي؛ تساقط الثَّلجُ خلال الليل، وفي الصباح كانت الآثارُ واضحة. وعدَ ويدر بأنه سيواصلُ الاعتناءَ بديريك، حتى لو كان ينوي مغادرةَ البلاد لفترة، وأخبرهُ أنه من المهم الاستمرار في تناولِ دوائه. وفي قرابة الثانية بعد الظهر، غادر ديريك منزل البروفيسور، وتوجَّه نحو منطقةِ الحرم الجامعي، حيث كان من المفترض أن يطلي شقة.

في تلك الليلة، بعد حلولِ الظلام، عاد ديريك إلى المنزل، وتناولَ العشاء. وبسبب قلقه من الحالة التي ترك عليها البروفيسور ويدر، قرَّر الاطمئنان عليه. وعندما وصلَ إلى منزلِ البروفيسور، رأى سيارة لورا باينز متوقِّفة بالقربِ من المكان. كان على وشك قرع جرس الباب عندما سمع أصوات أشخاص يتجادلونَ في الداخل.

توجَّه إلى الجزء الخلفي من المنزل، بالقرب من البحيرة. حين كانت الساعة قُرابة التاسعة مساءً. وأنوار غرفة المعيشة مضاءة، والستائر مفتوحة، لذلك كان قادرًا على رؤيةِ ما يحدث. جوزيف ويدر، ولورا باينز، وريتشارد فلين كانوا في الداخل. حيث البروفيسور ولورا يجلسانِ إلى الطاولة، بينما ريتشارد واقفٌ أمامهما، ويومئ بيديه وهو يتحدث. كان يصرُخ بأعلى صوته، ويلومهما.

بعد بضعِ دقائق، وقفت لورا، وغادرت. ولم يحاول أيٌّ من الرجلين منعها. استمر ريتشارد وويدر في الجدال بعد مغادرتها. وفي النهاية، بدا أن ريتشارد قد هدأ. دخَّنا، وشربا القهوة وعدة كؤوس من الكحول، وبدت الأجواءُ أكثرَ استرخاءً. وبينما ديريك يتجمَّدُ في الخارج، ويهمُّ بالمغادرة اندلع الشجار مرة أخرى. وكانت الساعة قرابة العاشرة مساءً، حسبما يتذكر.

في لحظةٍ ما، أصبح ويدر، الذي كان هادئًا حتى ذلك الحين، غاضبًا جدًّا ورفع صوته. ثم غادر ريتشارد، وسرعان ما ذهب ديريك إلى الجزء الأمامي من المنزل؛ ليقبض عليه، ويسألهُ عن المشكلة. وعلى الرغم من أنه لم يستغرق أكثر من عشرين إلى ثلاثين ثانية للوصول أمامَ المنزل، فإنَّ ريتشارد كان قد اختفى. بحث ديريك عنهُ في الشارع لبضعِ دقائق، ولكن بدا وكأنَّ الأرض قد ابتلعته.

في النهاية، تخلى عن البحث، وقال لنفسه: إن ريتشارد ربما ركض فور خروجه. وعادَ إلى الجزء الخلفي من المنزل، ليتأكد أنَّ البروفيسور بخير. كان لا يزالُ في غرفةِ المعيشة، وعندما قام لفتح النافذة للسماح للهواء بالدخول، غادر ديريك خوفًا من أن يُكتَشَف وجوده هناك. ولكن في أثناء مغادرته، لاحظَ أن لورا قد عادت، لأن سيارتها كانت متوقِّفة في نفس المكان تقريبًا. فكَّر ديريك أن لورا قد عادت لتقضي الليل مع البروفيسور، لذا من الأفضل له أن يغادر.

في صباحِ اليوم التالي، استيقظَ مبكرًا، وقرر العودة إلى منزل البروفيسور للتأكُّد من سلامته. قرع جرس الباب، ولكن لم يُجب أحد، فاستعملَ مفاتيحه الخاصة، ووجد جثة البروفيسور في غرفة المعيشة.

قال ديريك: «أنا متأكِّد أن الفتى لم يغادر تلك الليلة، بل اختبأ في مكانٍ قريب، ثم عادَ وقتله. ولكن لورا كانت أيضًا في المنزل في

ذلك الوقت. البروفيسور كان رجلًا قويًّا، ولما استطاعت التغلُّب عليه بمفردها. اعتقدتُ دائمًا أنَّ ريتشارد هو من قتله، وأن لورا إما شريكة في الجريمة، وإما شاهدة. لكنني لم أقل شيئًا للشرطةِ عنها؛ خشيتُ أن تستغلَّ الصحف ذلك، وتشوِّه سمعة البروفيسور. لكن كان عليَّ أن أقول شيئًا، لذا أخبرتهم أن الفتى كان هناك، وتشاجر مع البروفيسور».

سألته: «هل تعتقدُ أن لورا والبروفيسور كانا على علاقة عاطفية؟».

هزَّ كتفيه وقال: «لا أعرفُ بالتأكيد، لم أرهم، ولكنها كانت أحيانًا تبقى طوالَ الليل، هل تفهمني؟ كان الفتى غاضبًا بسببها، أنا متأكد من ذلك، لأنه أخبرني. تحدَّثت معه كثيرًا في ذلك الوقت، عندما عَمِلَ في المكتبة. أخبرني بالكثير من الأشياء عن نفسه».

قلت: «والشرطة لم تصدِّقك؟».

رد: «ربما صدقوني، وربما لم يفعلوا. كما قلت، كلماتي لم تكن ذات قيمة أمام هيئةِ المحلفين. المدعي العام لم يقتنع، لذلك أسقطت الشُّرطة هذه الأدلة. إذا تحقَّقتَ من الأمر، ستجدُ أن البيان الذي قدَّمته في ذلك الوقت هو بالضبط ما أخبرتك به الآن. أنا متأكد من احتفاظهم بتلكَ الأوراق».

قلت: «ولكنك تتذكَّرُ الكثير من التفاصيل، اعتقدتُ أنك فقدت ذاكرتك».

قال: «حالتي أثَّرت على الماضي. يُسمَّى ذلك فقدان الذاكرة الرَّجعي. فبعد تلك التجربة السيئة في المستشفى، لم أتمكَّن من تذكُّر أي شيء حدث حتى ذلك الوقت، ولكنَّ ذاكرتي كانت دائمًا جيدة فيما يتعلَّق بما حدث بعدَ إصابةِ رأسي. كان عليَّ التعرُّف إلى ماضيَّ من جديد، كما لو أنني أتعلَّم أشياء عن شخص مختلف؛ متى وأين وُلِد، من هم والداه، وأي

مدرسةٍ التحق بها، وكل تلك الأشياء. كان الأمرُ غريبًا حقًّا، لكنني اعتدتهُ. في النهاية، لا يوجد خيار آخر».

نهض وأشعل النور. بينما جلستُ هناك في الشرفة، شعرت وكأننا ذبابتان محبوستان في جرَّة. تساءلت إذا كان عليَّ تصديقه أم لا.

- هناك شيءٌ آخر أودُّ سؤالك عنه.

- تفضَّل.

- امتلك البروفيسور صالة رياضية في قبو منزله. هل احتفظَ بمضرب بيسبول هناك أو في أي مكان آخر في المنزل؟ هل رأيت شيئًا من هذا القبيل؟

- لا. لكن أعلمُ أن لديه بعضَ الأوزان وكيس اللَّكم.

- الشرطة قالت: إنه قُتِل على الأرجح بمضرب بيسبول، ولكن لم يُعثَر على أداةِ الجريمة. إذا لم يكن لدى البروفيسور مضرب في المنزل، فهذا يعني أن من الضروري أن القاتل جلبهُ معه. ولكن ليس من السهل إخفاءُ شيءٍ كهذا تحتَ المعطف. هل تتذكر ما ارتداهُ فلين في تلك الليلة عندما رأيتهُ من خلال النافذة؟

فكر لبضع لحظات ثم هزَّ رأسه.

- لستُ متأكدًا... أعلمُ أنه كان يرتدي دائمًا معطفَ باركا تقريبًا، وربما هذا ما ارتداهُ تلك الليلة، لكنني لستُ متأكدًا.

- سؤال أخير. أعلمُ أنك كنتَ مشتبهًا في البداية، ولكنهم استبعدوكَ من التحقيق، لأن لديك حُجَّة غياب وقت الجريمة. لكنك تقول إنَّكَ كنتَ في الفناء الخلفي لمنزل ويدر حتى قُرابة الحادية عشرة

مساءً، ثم عُدت إلى المنزل. ومما أعرفُه، فقد عشتَ وحدك في ذلك الوقت. هل يمكنك إخباري ما هي حجَّةُ غيابك؟

- بالطبع. توقَّفتُ في بار قريب من المنزل، كان مفتوحًا حتى وقتٍ متأخر. اعتراني القلق، ولم أرغب في البقاءِ وحدي. وصلتُ إلى هناك بعد دقائق من الساعة الحادية عشرة. كان صاحبُ البار صديقًا لي؛ ساعدتهُ في بعض الإصلاحات الصغيرة. لذا أخبرَ الشرطة أنني كنتُ هناك، وهذا صحيحٌ.

أزعجتني الشرطة لبعضِ الوقت بعدها، لكنَّهم تركوني وشأني في النهاية، خاصةً أنني آخرُ شخص كان يرغبُ في حدوث أيِّ ضرر للبروفيسور. ما الذي يمكن أن يدفعني لقتله؟

- تقولُ: إنك كنت في ذلك البار. هل كان مسموحًا لك بشُربِ الكحول في ذلك الوقت، وأنت تتناولُ كل تلك الحبوب؟

- لم أشرب الكحول. وما زلتُ لا ألمسُ هذا الشيء. عندما أذهبُ إلى بار، فإني أتناولُ كوكاكولا، أو كوب قهوة. ذهبت إلى هناك، لأني لم أرغب في قضاء الوقتِ وحيدًا.

أطفأ سيجارتهُ في المنفضة.

- هل أنتَ أعسر، ديريك؟ فأنت تُدخِّن بيدكَ اليُسرى.

- أجل.

تحدَّثتُ معهُ لبضع دقائق أخرى. أخبرني أن حياتهُ استمرَّت في مسارها، وفي النهاية انتقلَ للعيشِ مع ليونورا. لم يواجه أيَّ مشكلاتٍ أخرى مع القانون، ولم يعُد مطالبًا بالحضور إلى لجنةِ التقييمِ النفسي سنويًّا على مدى الاثني عشر عامًا الماضية.

ودَّعنا بعضنا البعض، وبقيَ في ورشته البدائية. وعُدتُ وحدي إلى غرفة المعيشة، حيثُ تجلسُ ليونورا على الأريكة، تشاهدُ التلفزيون، والطفلُ نائمٌ في حُضنها. شكرتها مرة أخرى، وتمنيتُ لها ليلة سعيدة، ثمَّ غادرت.

ستة

اتصلت بي لورا باينز بعدها بيومين، بينما أنتظرُ دوري في طابور الدائرة الرسمية بشارع ويست 56 لتجديد رخصة القيادة -احتجتُ أيضًا لتحديثِ صورتي- أتصفَّحُ مجلة تركها أحدهم على الكرسيِّ بجواري.

- سيد كيلر، قرأتُ المخطوطة التي أعطيتني إياها وتأكَّدت شكوكي. ريتشارد فلين اخترع كُلَّ شيءٍ، أو تقريبًا كل شيء. ربما حاولَ كتابة رواية. في الماضي، زعم الكُتَّاب أنَّ القصة التي يروونها ليست من خيالهم، بل أنهم اكتشفوا مخطوطة مجهولة، أو أنَّ الراوي شخصٌ حقيقيٌّ ماتَ منذُ زمنٍ طويل، أو شيء من هذا القبيل، مما ساعد في خلقِ الدعاية. أو ربما بعد كل هذه السنوات، بدأ يُصدِّق أن تلك الأحداث وقعت بالفعل. هل حصلتَ على بقية المخطوطة؟

- ليس بعد.

- فلين لم يتمكَّن من إنهائها، أليس كذلك؟ ربما أدرك مدى سخافتها، وأنها قد تجلبُ عليهِ عواقب قانونية غير مرغوبة، فتخلَّى عنها.

كان صوتُها هادئًا، ونوعًا ما منتصرًا، مما أثارَ حفيظتي. إذًا ما أخبرني بهِ ديريك صحيح، فقد كذَبت عليَّ دونَ أن ترفَّ لها عين.

- مع احترامي، د. ويستليك، حقيقة أن البروفيسور ويدر قُتل ضربًا بمضرب بيسبول ليست من خيالِ السيد فلين، وكذلك حقيقة أنَّكِ قررتِ تغيير اسمك بعد ذلك. حسنًا، ليس لدي المخطوطة الكاملة بعد، ولكن لدي العديد من المصادر الأخرى، لذا دعيني أسألك شيئًا: لقد التقيتِ ويدر في الليلة التي قُتل فيها، أليس كذلك؟ ثمَّ ظهر فلين. لقد كذبتِ عليه بأنك ستقضينَ الليلة مع صديقة، فأثارَ جلبة. أنا متأكد من كل ذلك، لذا رجاءً لا تكذبي عليَّ مرةً أخرى. ماذا حدث بعد ذلك؟

لم تقل شيئًا لبضع لحظات، وتخيَّلتُها كمقاتلة ممددة على أرضِ الحلبة، والحكم يعدُّ عليها. ربما لم تتوقع قط أن أتمكَّن من اكتشاف مثل هذه التفاصيل عن تلك الليلة. لقد مات البروفيسور، وكذلك فلين، وكنتُ شِبهَ متأكِّد أنها لم تعرف أن ديريك سيمونز كان هناكَ خلالَ تلك الساعات. تساءلتُ عما إذا كانت ستنكر الأمر، أم أنها ستُخرج أرنبًا آخر من قُبَّعتها السحرية.

قالت أخيرًا: «أنت شخصٌ لئيمٌ جدًّا، أليس كذلك؟ هل تعرفُ حقًّا إلى أين تريدُ الوصول بهذه القصة كلها، أم أنَّكَ تلعبُ دورَ المحقِّق فحسب؟ كيف تتوقَّعُ مني أن أتذكَّر تلكَ التفاصيل بعد كلِّ هذهِ السنوات؟ هل تنوي ابتزازي؟».

- هل أملُك أي شيء ضدك لأبتزَّك؟

- أعرفُ الكثيرَ من الناس في هذه المدينة، يا كيلر.

- تجعلينَ الأمر يبدو كأنه تهديد من فيلم تحقيقات قديم. الآن من المفترضِ أن أقول «أنا أقومُ بواجبي فحسب سيدتي!» وأرسمُ ابتسامةً حزينة، وأسحبُ القبَّعة على عيني، وأرفعُ ياقة معطفي.

- ماذا؟ أنت تتفوه بالترهات. هل أنت مخمور؟

- هل تُنكرينَ أنك كنتِ هناك في ليلة الجريمة، وأن ريتشارد فلين تستَّرَ عليكِ بالكذبِ على الشرطة؟

توقُّف طويل آخر، ثم سألتني: «هل تسجِّل محادثتنا، يا كيلر؟».

- لا. لا أفعل.

- ربما فقدتَ عقلك، مثل فلين. من الضروري أن تأمينك الصِّحي -إذا كان لديك- يغطِّي بضع جلسات علاج نفسي، لذا ربما حان وقت الاستفادة من ذلك. لم أقتُل الرجل، فمن سيهتم أين كُنت في تلك الليلة بعد أكثر من عشرين عامًا؟

- أنا أهتم، د. ويستليك.

- حسنًا إذًا، افعل ما تشاء. لكن لا تحاول الاتصال بي مرة أخرى، أنا أعني ما أقول. لقد حاولتُ أن أكونَ مهذَّبة، وأخبرتك بكل ما لديَّ، لكن لا أملُك المزيد من الوقت لأجلك. وإذا اتصلت بي، أو اقتربت مني مرة أخرى، فسأقدِّم شكوى بتهمة التحرش. وداعًا.

أغلقَت المكالمة، وأعدتُ الهاتف إلى جيبي. شعرتُ بالحنق من نفسي، لأنني فقدتُ مصدرًا مهمًّا للغاية للمعلومات لقصتي؛ كنتُ متأكدًا من أنها ستلتزمُ بتهديدها، ولن تتحدَّث معي مرة أخرى بعد تلك المكالمة. لماذا بالغتُ في ردِّ فعلي بهذه الطريقة، ولماذا كان من الضروري أن أضع كلَّ أوراقي على الطاولة في مناقشة غبية على الهاتف؟ ديريك سيمونز أعطاني ورقتَيْ آسٍ، وأضعتهما.

طلبوني لأجل الصورة بعد بضع دقائق، وقال الرجلُ خلفَ الكاميرا: «حاول أن تهدأ قليلًا، يا رجل. لا تفهمني خطأً، لكن يبدو كأنك تحملُ أعباء العالم كلِّهِ على كتفيك».

قلت له: «حسنًا، بعضٌ منها فحسب، ولم أتلقَّ أجرًا مقابل ذلك بعد».

على مدى الأسابيع الثلاثة التالية، وبينما يحُطُّ الربيع رحاله ببطءٍ فوق المدينة، تحدَّثتُ مع عدد من الأشخاص الذين كانوا مقربين من جوزيف ويدر، والذين اكتشف هاري ميلر تفاصيلَ الاتصال بهم واحدًا تلو الآخر.

تطوَّرت حالةُ الإنفلونزا لدى سام إلى التهاب رئوي، لذا ظلَّت طريحة الفراشِ معظمَ الوقت. وأختها الصغرى، لويز، التي تدرسُ الفنون الجميلة، جاءت من كاليفورنيا للاعتناءِ بها. أصررتُ على زيارتها، لكنها طلبت مني في كلِّ مرة أن أتحلَّى بالصبر، لأنها لم ترغب في أن تُرى في تلك الحالة بعيونٍ دامعة، وأنف أحمر كبير.

كان بيتر خارج المدينة معظم الوقت، أو مشغولًا في الأعمال، لذا تحدَّثتُ معه عبرَ الهاتفِ، لإبقائهِ على اطلاعٍ بآخر مستجدَّاتِ التحقيق فحسب. أخبرني أن دانا أولسن لم تعثُر بعد على أيِّ أثر للفصول الأخرى من مخطوطة فلين.

اتصلتُ عدة مرات، بسارة هاربر، زميلة الدراسة السابقة للورا باينز، لكنها لم تُجِب على الهاتف، أو على رسائلي الصوتية. كما لم أتمكَّن من التواصل مع أخت البروفيسور، إنجي روسي. فقد عثرتُ على عنوانها ورقمِ هاتفها، واتصلتُ، وتحدَّثت مع مدبِّرة منزل بالكادِ تستطيعُ تركيب كلمتين معًا بالإنجليزية. فهمتُ في النهاية أن السنيور، والسِنيورة «روسّي» مسافران لمدة شهرين في رحلة طويلة إلى أمريكا الجنوبية.

تتبَّع هاري تيموثي ساندرز، لكن الأخبارَ لم تكن مبشِّرة؛ فقد توفي صديق لورا باينز السابق في ديسمبر 1998 في واشنطن العاصمة. قُتِلَ بالرصاص أمام منزله، وتوفيَ على الفور. ولم تتمكَّن الشرطة من العثور على الجاني قط، لكنها خَلُصت إلى أنَّ الحادث كان محاولة سرقة مسلَّحة انتهت بالقتل. وكان يدرِّس العلوم الاجتماعية في مدرسة «ويذاوت وولز Without Walls»، ولم يتزوَّج قط.

كان حديثي عبر الهاتف مع إيدي فلين قصيرًا ومزعجًا. فقد كان غاضبًا جدًّا من قرار شقيقه الراحل ترك شقَّته للسيدة أولسن، وأخبرني أنه لا يعرفُ شيئًا عن أستاذ جامعي يدعى جوزيف ويدر. وطلب مني ألا أتواصل معه مرة أخرى، وأغلق الخط.

تحدَّثتُ مع اثنينِ من زملاء ويدر السابقين، بعد أن اختلقتُ قصة حول أنني باحث يعملُ لصالح دار نشر تقومُ بإعدادِ سيرة ذاتية عن ويدر، وأحاولُ جمع أكبر قدر ممكن من التفاصيل من الأشخاصِ الذين عرفوهُ جيدًا.

قابلت بروفيسورًا متقاعدًا من نفس القسم في جامعة برينستون، رجل يبلغ من العمر ثلاثة وسبعين عامًا يُدعى دان تي. ليندبيك. يعيشُ في مقاطعة إسكس، نيوجيرسي، في قصرٍ مهيب وسطَ غابةٍ صغيرة. وأخبرني أن المنزل كان مسكونًا بشبح امرأة تدعى ماري، ماتت في عام 1863 خلال الحرب الأهلية. تذكَّرتُ أيام كتابتي لمجلة آمبرساند، وأخبرتهُ عن قضية منزل مسكونٍ زُرته، بينما كان يسجِّلُ التفاصيلَ بعناية في دفتر ملاحظات قديم.

وصف ليندبيك جوزيف ويدر كشخص غير تقليدي، رجلٌ على دراية كبيرة بأهميته، وقد كرَّسَ نفسه تمامًا لعمله، وكان لامعًا فكريًّا، ولكنه كان صعبًا وبعيدًا عندما يتعلَّقُ الأمر بالعلاقاتِ الشخصية.

تذكَّرَ بشكل مبهم أن ويدر كان على وشكِ نشر كتاب، لكنه لم يستطع تذكُّر أي دار نشرٍ اشترت المخطوطة. وأشار إلى أنه من الصعب التصديق أن هناك خلافًا قد حدث بين ويدر ومجلس الأمناء حول دار النشر، نظرًا لأنَّ الأساتذة كانوا أحرارًا في نشر أعمالهم حيثما شاؤوا، وأن أيَّ كتاب يحقق مبيعات كبيرة فمن شأنه أن يعود بالنفع على المؤسسة. كما لم يتذكَّر أيَّ برنامج بحثي خاص عَمِلَ عليه القسم خلال فترة وجود ويدر.

قدَّم لي شخصان آخران معلومات مثيرة للاهتمام رغم تضاربها.

الأول بروفيسور يُدعى مونرو، وكان أحدَ مساعدي ويدر. في أواخر الثمانينات حضَّر أطروحته للدكتوراة. أما الشخصية الأخرى فهي امرأة في الستينيات من عمرها تدعى سوزان جونسون، وكانت مساعدة لويدر وقريبة جدًّا منه. لا يزالُ مونرو يُدرِّس في برينستون. أما جونسون فتقاعدت في عام 2006، وتعيش في أستوريا كوينز مع زوجها وابنتها.

كان جون إل. مونرو رجلًا قصير القامةِ، وكئيبًا، وذا بشرة رماديَّة اللون كالبذلة التي ارتداها حين استقبلني في مكتبه، بعد استجوابٍ طويلٍ ومفصَّلٍ عبر الهاتف. لم يقدِّم لي القهوة، أو الشاي، وخلال محادثتنا رمقني بنظراتٍ مريبة باستمرار، وكان يرفعُ أنفه عندما تقع عيناهُ على جينزي الممزَّق عند الرُّكبتين. كان صوتهُ ضعيفًا، وكأنه يعاني مشكلاتٍ في حباله الصوتية.

على عكس الآخرين، وصف مونرو ويدر بأنه شخص غير مسؤول، لا يتردَّدُ في سرقة أعمالِ الآخرين، ليظلَّ دائمًا تحت الأضواء. نظرياته -كما زعم مونرو- كانت سطحية، مجرد علم مزيف للجمهور الجاهل، ومن نوع الاكتشافات الصادمة التي تُعرَض في البرامج الحوارية الإذاعية، والتلفزيونية، لكن المجتمع العلمي نظرَ إليها بتحفُّظ حتى في ذلك

الوقت. وقد أظهرت إنجازاتُ علم الأعصاب، والطب النفسي، وعلم النفس في السنوات التي تلت وفاة ويدر مدى هشاشة نظريَّاته، لكن لا أحد سيضيِّعُ وقته الآن في إثبات الحقيقة الواضحة.

كانت كلماتُ مونرو سامَّة لدرجة أنني ظننتُ أنه سيموت لو عضَّ لسانه. ومن الواضح أنه لا يحمل أي مودة تجاه ويدر، وعلى الأرجح كان ممتنًّا أن وجدَ من يستمعُ إليه، وهو يشوِّه سمعة البروفيسور.

من ناحية أخرى، تذكَّرَ دار النشر التي خططت لنشر كتاب ويدر: كانت دار نشر من ماريلاند تُدعى (أولمان آند ليمبكن Allman & Limpkin)، وأكَّد أنَّ مجلس الأمناء قد أجرى مناقشاتٍ حول الموضوع. واتُّهم ويدر باستخدام موارد الجامعة لجمعِ بيانات خطط، لنشرها لمصلحته الخاصة فحسب.

أخبرني مونرو أنه ليس لديه أيُّ فكرة عن سبب عدم صدورِ الكتاب. ربما لم يكن ويدر قد أنهى كتابته، أو ربما طلب منه الناشر إجراءَ تعديلاتٍ لم يوافق عليها. أوضح أن مثل هذهِ الأمور عادةً ما يتمُّ التعاقد عليها من خلال ما يسمى بـ «الاقتراح»، وهو وثيقة يقدِّمُ فيها المؤلف للناشر جميع المعلومات اللازمة حول مشروعه، بدءًا من المحتوى، وحتى الجمهور المستهدف. عادةً ما يحتوي هذا المستند على اثنين، أو ثلاثة فصول فقط من المشروع الفعلي للكتاب، وتُسَلَّمُ باقي المخطوطة في وقتٍ لاحق يتمُّ الاتفاقُ عليه بين الطرفين. ويُوقَّع العقد النهائي فقط بعد تقديم المخطوطة النهائية، ومراجعتها وفقًا لمقترحاتِ الناشر.

لم يسمع عن لورا باينز، لكنه قال إن ويدر كان معروفًا بتعدُّد علاقاته العاطفية، بما في ذلك بعض العلاقات مع الطلاب. لم يعتزم المجلس تجديد عقده للعام التالي. فكان الجميعُ يعرفون أن ويدر

سيغادر برينستون في صيف عام 1988، وكانت إدارةُ علم النفس قد بدأت بالفعل البحث عن أستاذٍ بديل.

دعوتُ سوزان جونسون لتناولِ الغداءِ معي في مطعم يدعى «أجنانتي» في كوينز. وصلتُ مبكرًا عن الوقت المتفق عليه، وجلستُ إلى الطاولة وطلبت قهوة. وعندما وصلت السيدة جونسون بعد عشر دقائق، فوجئتُ بأنها على كرسي متحرك. فكما أوضحت لاحقًا، كانت مشلولة من الخصرِ إلى الأسفل. وجاءت بصُحبتها شابة قدَّمتها باسم «فيوليت»، ابنتها. وغادرت فيوليت بعد أن تأكَّدت أن كل شيءٍ على ما يرام، وأخبرتنا أنها ستعودُ لاصطحاب والدتها بعد ساعة.

أثبتت السيدة جونسون أنها شخصٌ مفعمٌ بالحيوية والتفاؤل رغم حالتها. أخبرتني أنهُ قبل عشرِ سنوات، خلال رحلة إلى نورماندي بحثًا عن آثارِ والدها الذي قاتل في يوم الإنزال كجندي بحري، تعرَّضت لحادثٍ مروِّع في السيارة التي استأجرتها في باريس. ولحُسنِ الحظ، فإنَّ زوجها مايك، الذي كان يجلسُ في المقعد الأمامي، نجا تقريبًا من دونِ أذى.

أخبرتني أنها لم تكُن مساعدة ويدر فحسب، بل أنها كانت أيضًا موضعَ ثقته. قالت السيدة جونسون: إن البروفيسور كان عبقريًّا حقيقيًا. لقد اختارَ علم النفس مجالًا لأبحاثه، لكنها مقتنعة بأنه كان سيبرعُ في أي مجال آخر. وكأيٍّ عبقري حقيقي، كان مغناطيسًا لكراهية الأشخاصِ المتواضعين الذين لم يتمكَّنوا من الوصول إلى نفس مستواه. كان له عددٌ قليل من الأصدقاء في الجامعة، وتعرَّضَ للمضايقاتِ باستمرار تحت ذرائع مختلفة. نفسُ الأعداء نشروا عنه شائعات لا صحَّة لها بشكلٍ دوري، مثل أن ويدر كان مُدمنًا على الكحول، وزير نساء.

التقت سوزان جونسون بلورا باينز عدَّة مرات؛ وكانت تعرفُ أنها طالبة مفضَّلة لدى البروفيسور، لكنها متأكدة من أنَّه لم يكن بينهما علاقة عاطفية. أكدت أن البروفيسور فرغَ من تأليف كتابٍ خلالَ تلك الفترة، وكان عن الذاكرة. وربما أنها هي التي قامت بكتابةِ المخطوطة، لأن ويدر لم يكُن يستخدمُ لا الآلة الكاتبة، ولا الحاسوب، فكانت تعرف بالتأكيد أن المخطوطة كانت جاهزة لأسابيع قبلَ وفاته، وحتى الآن لم تسأل نفسها قط ما إذا قُدِّمت للناشر قبل وفاته، أو سبب عدم صدور الكتاب.

خلال تناولِ الحلوى، سألتها ما إذا كانت تعرفُ أيَّ شيء عن مشروع سري من المفترض أنَّ ويدر شارك فيه. تردَّدت لبضعِ لحظات قبل أن تجيب، لكنها في النهاية اعترفت بأنها كانت تعرف.

- أعلمُ أنه كان مشاركًا في مشروعٍ يتعلَّقُ بعلاجِ الجنود الذين يعانون اضطرابًا ما بعد الصدمة، ولكن هذا كل ما أستطيعُ تذكُّره. لقد تخصَّصتُ في الاقتصاد، وليس في علم النفس أو الطب النفسي، لذلك كتبتُ الوثائق بشكل آليٍّ، دون التفكيرِ كثيرًا في محتواها. لن أُخفي عنك حقيقة اعتقادي أنَّ الحالة النفسية للبروفيسور ويدر كانت متزعزعة في نهاية تلك التجارب، أيًّا كانت ماهيتها.

- هل تعتقدينَ بوجود علاقة بين وفاتِه، والمشروعِ الذي كان يعملُ عليه؟

- لأكن صادقة، فكَّرت في ذلك حينها. بالطبع، فإنَّ معرفتي بهذه الأمور تأتي فقط مما قرأته في روايات الغموض، أو مما شاهدتهُ في الأفلام، ولكن أعتقدُ أنه إذا كان ذلكَ نتيجةً لعمله، فكانوا سيحاولونَ تغطيةَ آثارهم، لجعلِ الأمر يبدو كأنه عملية سرقة، أو حتى حادث. أظنُّ أنه قد قُتل على يد هاوٍ، كان محظوظًا بالهرب.

ولكنني أعتقدُ أنه هناك توترًا كان بين البروفيسور، والأشخاص الذين عَمِلَ معهم. قبل نحو شهرين من وفاته، لم يعطني أي وثائق أخرى لكتابتها. ربما توقَّفَ عن العمل مع هؤلاء الأشخاص.

ثم صمتت لبضع لحظات، وقالت: «كنت واقعةً في حب البروفيسور ويدر يا سيد كيلر! كنت متزوجة، وعلى الرغم من أنَّ هذا قد يبدو متناقضًا بالنسبة لك، فإنني كنتُ أحبُّ زوجي وأطفالي. لم أخبره قط، ولا أعتقدُ أنه أدركَ ذلك. ربما بالنسبة له كنت مجرد زميلة ودودة على استعداد لمساعدته حتى خارج ساعات العمل. تمنيتُ لو يراني يومًا ما بشكلٍ مختلف، لكن ذلك لم يحدث قط. غمرني الأسى عندما توفِّي، ولوقتٍ طويل شعرتُ كما لو أنَّ عالمي قد انتهى. ربما كان أروعَ رجلٍ قابلتهُ في حياتي كلها».

وصلت فيوليت جونسون في تلكَ اللحظة بالضبط من حديثنا، وقبِلت دعوتي للبقاءِ معنا لبضع دقائق. لقد تخصَّصت في الأنثروبولوجيا، لكنها تعملُ وكيلة عقارات، وأخبرتني أن السوق بدأت في التعافي بعد الأزمة الاقتصادية في السنوات القليلة الماضية. كانت تشبهُ والدتها بشكلٍ غير عادي، عندما نظرتُ نحوهما، شعرتُ وكأنني أرى نفس الشخص في مراحل مختلفة من حياته. رافقتهما إلى موقفِ السيارات حيث تركت فيوليت سيارتها، وافترقنا بعدَ أن أصرَّت سوزان على معانقتي، وتمنَّت لي النجاح.

اتصلتُ بمكتب الاستقبال في «أولمان آند ليمبكين» في صباح اليوم التالي.

حوَّلوني إلى محررة الاستحواذ المسؤولة عن كتب علم النفس، وهي سيدة لطيفة جدًّا استمعت إليَّ بعناية، ثم أعطتني رقم قسم الأرشيف. أخبرتني أنَّ البروفيسور ويدر شخصية مشهورة في العالم الأكاديمي،

لذا فمن الممكن أن يكون اقتراح كتابه قد حُفِظَ في الأرشيف، خاصةً في تلك الأيام التي لم يوجد فيها البريد الإلكتروني، وتمَّت المراسلات مع المؤلفين عبر الرسائل.

لكنني لم أكُن محظوظًا مع قسم الأرشيف. الشخص الذي تحدَّثتُ معه أغلقَ الهاتف بعدما أخبرني أنه غير مسموح له بالحديث مع الصحافة دون إذن مسبق من الإدارة.

اتصلتُ بالمحررة التي تحدَّثتُ معها في وقتٍ سابق، وشرحتُ لها ما حدث، وذكرتُ مرة أخرى الأسئلة التي أحاولُ العثور على إجاباتٍ لها: هل كان اقتراحُ ويدر موجودًا بالفعل؟ وهل قدَّم المخطوطة الكاملة؟ ولماذا لم يُطبَع الكتاب؟ استحضرتُ كل ما أملُك من سحرٍ شخصي، ويبدو أنَّ الأمرَ نجح- فقد وعَدَت بمحاولةِ العثور على إجاباتٍ لأسئلتي.

لم أتوقَّعُ الكثير، ولكن بعد يومينِ وصلتني رسالةُ بريدٍ إلكتروني من المحرِّرة، وأخبرتني بما توصَّلت إليه.

أرسل ويدر اقتراحه إلى المحرِّر في يوليو 1987، مرفقًا معهُ الفصل الأول من الكتاب. ذكر في الاقتراح أن المخطوطة مكتملة وجاهزة للتقديم. فأرسلَ له الناشر عقدًا بعد شهر، في أغسطس. ومن بينِ أمورٍ أخرى، نَصَّ العقد على أن يبدأ ويدر العمل على مراجعةِ النص مع المحرِّر في نوفمبر. ولكن في نوفمبر، طلب البروفيسور بضعةَ أسابيعَ إضافية، قائلًا إنه يريدُ تحسينَ المخطوطة مرة أخرى خلال العطلات. وُوفِقَ على هذا الطلب، ولكن بعد ذلك حدثت الفاجعة. ولم تصِل المخطوطة الكاملة إلى الناشر قط.

وأُرفِقَت نسخةٌ من المقترح مع رسالة البريد الإلكتروني، في شكل مسح ضوئي للوثيقة الأصلية المكتوبة بالآلة الكاتبة. تقريبًا خمسينَ صفحة. بدأتُ في طباعتها، وراقبتُ الصفحات وهي تخرجُ واحدة تلو

الأخرى إلى الدُّرج البلاستيكي للطابعة. وأخيرًا، قلَّبتُ الصفحات قبل أن أضمَّها معًا بمشبك ورقي، وأضعها على مكتبي لقراءتها لاحقًا.

في ذلك المساء، حاولتُ وضعَ قائمة بما أنجزتهُ في تحقيقاتي حتى الآن، وما هي فُرَصي في الوصول إلى أيِّ استنتاج نهائي. بعدها بنصفِ ساعة، وبالنظر إلى المخططِ الذي رسمته، توصَّلتُ إلى استنتاج أنني في الواقع ضائع في نوعٍ من المتاهات. بدأتُ في البحثِ عن كتاب ريتشارد فلين، وليس فقط لم أعثُر عليهِ، بل وغمرتني كومة من التفاصيل حول أشخاصٍ وأحداثٍ رفضت أن تتشكَّل في صورةٍ متماسكة. شعرتُ بأنني أتلمَّسُ طريقي في الظلام، في عليَّة ملأى بالخردة القديمة، دون التمكُّن من فهمِ المعنى الحقيقي للأشياء التي تراكمت هناك على مر السنين من قِبَل أشخاص لا أعرفهم، ولم أتمكَّن من اكتشاف أي شيء ذي معنى حقيقي عنهم.

العديدُ من التفاصيل التي عثرتُ عليها متناقضة، سيلٌ من المعلوماتِ غير المتجسِّدة، وكأن الشخصيات والأحداث في ذلكَ الوقت ترفُض بعناد كشفَ الحقيقةِ لي. وما زادَ الطين بلَّة، أنني حين بدأتُ التحقيق، كانت الشخصية المركزية هي ريتشارد فلين، مؤلِّفُ المخطوطة، لكن مع تقدُّم التحقيق، بدأ يتلاشى عن النظر، ويتنحَّى إلى الخلفية، ليتصدَّر البروفيسور جوزيف ويدر المسرح، نجمًا كما كان طوالَ مسيرته، دافعًا فلين المسكين إلى زاويةٍ مظلمة، ليقلِّص دورهُ إلى حجم دورٍ ثانويٍّ صغير.

حاولتُ أن أجدَ حلقة وصل بين شخصية لورا باينز في مخطوطة فلين، وبين المرأة التي قابلتها في مركز كولومبيا الطبي، لكنني لم أستطع. الأمرُ أشبهُ بصورتين مختلفتين، واحدة حقيقية، وواحدة خيالية، وكان من المستحيلِ دمجهما.

حاولتُ المقارنة بين فلين الذي عرفتهُ بشكل غير مباشر من المخطوطة -طالبٌ شاب في برينستون، مليءٌ بالحياة، حلُمَ بأن يصبح كاتبًا، ونشَر قصصه القصيرة الأولى بالفعل- وبين الرجلِ المنعزل الذي عاش حياةً مملَّة مع دانا أولسن في شقة متواضعة، كارهًا للبشر، وقد سُرِقت أحلامه. وحاولتُ أن أفهم لماذا ذاك الرجل -الذي كان يحتضر بالفعل- قد استنفدَ الأشهر الأخيرة من حياته في كتابةِ مخطوطة أخذها معهُ في النهايةِ إلى القبر.

حاولتُ تصوُّر ويدر، الذي وصفهُ البعض بالعبقري، والبعضُ الآخر بالمدَّعي، محبوسًا مع أشباحهِ في ذلك المنزل الكبير البارد، وكأنه مطاردٌ بذنبٍ غير معروف. لقد ترك ويدر وراءهُ لغز مخطوطة مفقودة، وبحتمية غريبة، هذا بالضبط ما حدث في حالة ريتشارد فلين بعد ما يقربُ من ثلاثة عقود. انطلقتُ بحثًا عن مخطوطة مفقودة ولم أجدها، لكنني في النهاية تعثَّرتُ في أثر كتاب آخر مفقود.

حاولتُ إضفاءَ بعض الاتساق على جميع الشخصيات التي بعثها تحقيقي من الماضي، لكنَّها كانت مجرد ظلال بلا أي ملامح واضحة، تتحرَّكُ داخلَ قصة لا أستطيعُ اكتشافَ بدايتها، أو نهايتها، أو معناها. كان أمامي لغز، لكن لم تكن أيٌّ من القطع تتناسبُ مع بعضها بعضًا.

ومن المفارقات، أنني كلما تعمَّقتُ في الماضي، مدفوعًا بالمعلومات الوفيرة المتناقضة، أصبحَ الحاضرُ أكثر أهمية بالنسبة لي. كان الأمر أشبهُ بالانزلاق في نفق، والدائرةُ المتناقصة من الضوء فوق رأسي هي العنصر الحيوي الذي يذكِّرني بأن عليَّ العودةُ إلى السطح، لأن هذا هو المكان الذي أتيت منه، والذي يجب أن أعود إليه عاجلًا أم آجلًا.

كنت أتحدَّث مع سام عبرَ الهاتف يوميًّا تقريبًا، وأخبرتني أنها تتحسَّن. اكتشفتُ أنني أفتقدها أكثر مما ظننتُ قبل أن أبدأ التحقيق،

وقبل أن يفرِّقنا مرضها. فكلَّما أثبتت الظلالُ من حولي أنها خدَّاعة أكثر، كلما بدا لي أن علاقتنا أصبحت أكثر واقعية، واكتسَبت تماسكًا لم تملكُه من قبل، أو ربما كنت أرفضُ الاعترافَ به.

لهذا السبب، ما حدث بعد ذلك كان بمنزلة صدمة كبيرة لي.

كنتُ على وشكِ مغادرة المنزل للقاء روي فريمان، أحد المحقِّقين المتقاعدين الذين عمِلوا على قضية ويدر، حين رنَّ هاتفي. كانت سام، ودون أيِّ مقدمات، أخبرتني مباشرةً أنها ترغبُ في الانفصال. وعلاوةً على ذلك، أشارت إلى أنَّ «الانفصال» ربما ليس المصطلح الصحيح، نظرًا لأنها لم تعتقد قط أننا كنا في «علاقة جدية»، بل مجرد صداقة دون التزامات.

أخبرتني أنها ترغبُ في الزواج، وإنجابِ الأطفال، وأنَّ شخصًا تعرفهُ يلاحقها منذ فترة. وبدا -كما قالت- أنه قد يكون شريكَ حياةٍ مناسبًا لها.

أخبرتني كل هذا بنبرةِ صوتٍ، وكأنها مديرةُ تجارب أداء، تُخبر مرشحًا غير ناجح أن ممثلًا آخر أكثر ملاءمةً للدور.

تساءلتُ عمَّا إذا خانتني مع زميلها، لكنني أدركتُ بعد ذلك أن هذا سؤالٌ غير مجدٍ: سام ليست من النوع الذي لا يستكشفُ جميعَ خياراتِهِ بشكلٍ كامل قبل اتخاذِ قرار.

حينَ شرحَت لي أنها قضت أيام مرضها في الفراش تفكِّر فيما تريده حقًّا، علِمتُ أن علاقتها بذلك الشخص على الأرجح مستمرة منذُ فترة طويلة.

قلت: «أنتِ من قلتِ أنَّكِ تريدينَ علاقةً خفيفة، دونَ التزامات. لقد احترمتُ رغبتكِ، لكن هذا لا يعني أنني لم أرغب في المزيد».

- إذًا، لماذا لم تخبرني حتى الآن؟ ما الذي منعك؟

- ربما كنتُ على وشك إخبارك.

- جون، نحنُ نعرفُ بعضنا البعض جيدًا. أنتَ مثلُ جميع الرجال الآخرين، لن تُدرك مدى أهميةِ المرأة بالنسبة لك إلا في اللحظة التي تفقدُها فيها. هل تعلم أنه بينما كنا معًا خشيتُ أن تقابلَ يومًا ما امرأةً أصغر سنًّا وتهربَ معها؟ هل تعلم كم جرحني أنك لم تدعني قط للقاءِ أصدقائك، ولم تعرِّفني على والديكَ مطلقًا، كما لو أنَّك أردتَ إبقاءَ علاقتنا سرًّا؟ قلتُ لنفسي: إنني لستُ أكثر من سيدة كبيرة في السن أحببتَ صُحبتها أحيانًا.

- أهلي في فلوريدا يا سام. أما بالنسبةِ لأصدقائي، فلا أعتقدُ أنَّك ستحبِّينهم كثيرًا: بعضُ الرجال من صحيفة واشنطن بوست، واثنانِ أو ثلاثة من أصدقائي الذينَ أعرفهُم من الكلية، والذينَ يعانون الآن من زيادة الوزن، ويخبرونني -بعد تناولِ بضع كؤوس- قصصًا حول كيفيةِ خيانتهم لزوجاتهم.

- أتحدَّث عن الأمر من حيثُ المبدأ.

- وأنا أتحدَّث عن حقيقةِ الأمور.

- لا أعتقدُ أن هناكَ أي جدوى من دخولنا في لعبةِ اللوم هذه. هذا هو أبشعُ جزءٍ في نهاية العلاقة، عندما تتذكَّر كلَّ إحباطاتك، وتبدأ في قذف الوحل.

- لم أكن ألومك على أيِّ شيءٍ، حقًّا. حسنًا، أنا آسف. أنا فقط ... سمعتُها تسعُل.

- هل أنتِ بخير؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

- قالوا إنني سأتخلَّصُ من هذا السعال خلال أسبوعين، أو ثلاثةِ أسابيعَ أخرى. يجبُ أن أُغلِق المكالمة الآن. ربما نبقى على تواصل. من فضلك اعتنِ بنفسك.

كنتُ أرغب في سؤالها إن كانت متأكدة أنها لا تُريدنا أن نلتقي مجددًا؛ لنتحدَّث وجهًا لوجه، لكن لم تُتح لي الفرصة. أغلقت المكالمة، وبعدَ أن حدَّقتُ إلى هاتفي لبضعِ لحظاتٍ، كما لو أنني لا أفهمُ ما الذي يفعلهُ في يدي، فعلتُ الشيءَ نفسه.

بينما أسيرُ للقاءِ روي فريمان، أدركتُ أنني أردتُ إنهاءَ التحقيقِ بأسرع وقتٍ ممكن.

كنتُ أعلمُ أنني لو لم أسمح لنفسي بالانخراطِ في الأمر، ومحاولة لعب دور المحقق، ربما انتبهتُ بما يكفي لألحظ علاماتِ العاصفة القادمة في علاقتي مع سام. قرارها بالانفصالِ عني كان القشَّة الأخيرة، رغم أنني لم أستطع تفسيرَ السبب.

لم أومن يومًا بالخرافات، لكنني شعرتُ بشكلٍ واضح أن قصَّة ريتشارد فلين أخفَت نوعًا من التعاويذ، شيءٌ مثل لعنة قبر المومياء. صممتُ على الاتصال ببيتر وإخباره أنني أريدُ التوقُّف، لأنني كنت واثقًا من أنني لن أتمكَّن أبدًا من الوصولِ إلى حقيقةِ ما حدثَ في تلكَ الليلة مع البروفيسور جوزيف ويدر، ولورا باينز، وريتشارد فلين.

سبعة

يعيشُ روي فريمان في مقاطعة بيرجن، عبر الجسر، لكنه قالَ: إن لديه بعضَ الأعمال ليهتمَّ بها في المدينة، لذا حجزتُ طاولة في مطعم في شارع ويست 36.

كان طويلًا، ونحيفًا، ويبدو كأنه ممثِّل يلعبُ أدوارًا ثانوية، مثل الشرطيِّ المتقدِّم في السن الذي يدعمُ البطل الرئيسي في قتالِهِ ضدَّ الأشرار، ويُعطيك انطباعًا -رغم أنك لا تعرفُ السبب، لأن دورهُ في الفيلم لا يتجاوز جملة أو اثنتين فحسب- أنه يمكنك الاعتماد عليه.

شعرهُ أبيض بالكامل تقريبًا، وكذلك لحيتهُ المهذَّبة بعناية، والتي غطَّت النصف السفلي من وجهه. قدَّم نفسهُ، وبدأنا الحديث.

أخبرني أنه كان متزوجًا من امرأة تدعى ديانا لمدة تقارب العشرين عامًا. ولديهم ابنٌ يدعى توني، لكنه نادرًا ما يراه. فزوجتهُ السابقة، وابنه انتقلا إلى سياتل بعد الطلاق في أواخرِ الثمانينات. وابنه تخرَّج في الجامعة ويعملُ مذيع أخبار في محطة إذاعية محلية.

لم يتردَّد فريمان في إخباري بأنهُ يتحمَّل المسؤولية بنسبة مئة في المئة عن الانفصال، حيثُ كان مهووسًا بعمله، ويسكَر كثيرًا. وكان واحدًا من أوائلِ محققي الشرطة في نيوجيرسي الذينَ انضمُّوا إلى القوة مباشرةً بعد التخرُّجِ من الجامعة في عام 1969، وأكنَّ بعض الرجال الآخرين في القسم ضغينة ضدهُ لهذا السبب، خاصةً لأنهُ أيضًا أمريكيٌّ من أصلٍ إفريقي. وأي شخص ادَّعى أن العنصرية في الشرطة قد قُضيَ عليها تقريبًا في منتصف السبعينات -خاصةً في الأقسام الصغيرة- كاذب، على حدِّ قوله. بالطبع، حتى قبل ذلك كانوا قد بدؤوا في صناعة أفلام يظهر فيها ممثلون سود كقضاة، ومدعين عاميِّين، وأساتذة جامعات، ورؤساء للشرطة، لكنَّ الواقع كان مختلفًا. لكن الراتب كان جيدًا –فقد حصل الضابطُ في الدوريَّة على ما يقرب من عشرين ألف دولار في السنة في ذلك الوقت– وقد حَلُمَ بأن يُصبح شرطيًّا منذُ طفولته.

قال لي: إن قسم شرطة بلدة ويست ويندسور كان قوامه قرابة خمسة عشر ضابطًا في أوائل الثمانينات، معظمهم في الأربعينيات من العمر. وكان هناك امرأة واحدة فقط في الوكالة، وهي مجنَّدة حديثة، وباستثناء ضابط إسباني يدعى خوسيه مينديز، فالجميع من البيض. كانت تلك فترة عصيبة لنيوجيرسي ونيويورك: بدأت حينها أزمة الكراك (انتشار تعاطي الكوكايين)، ورغم أن برينستون لم تقع في قلب هذه الموجة، فإن ذلك لم يعنِ أن حياة الشرطة هناك كانت سهلة. عمل فريمان في قسم شرطة برينستون لمدة عقد، وفي عام 1979 نُقِلَ إلى ويست ويندسور في مقاطعة ميرسر، إلى وكالة أُنشئت قبلها ببضع سنوات فحسب.

أسعدهُ الحديث معي، واعترف بأنه عاشَ حياةً منعزلة منذ تقاعده، وأنهُ من الشائع أن يكون لضباط الشرطةِ السابقين عدد قليل من المقرَّبين.

سألني: «لماذا أنت مهتمٌّ بهذه القضية، جون؟».. واقترح مخاطبة بعضنا البعض بأسمائنا الأولى. رغم أن هناك شيئًا في نبرته ومظهره أخافني قليلًا، دون أن أتمكن من تفسير السبب، فإنني وافقت وأخبرته بالحقيقةِ كاملة. فقد سئمتُ من اختراع القصص عن سير ذاتية خيالية، وتواريخ بانورامية لجرائم قتل لم تُحل، وكنت متأكدًا أن الرجل الذي أمامي -والذي كان لطيفًا بما يكفي ليقبل لقائي دون أن يعرفني حتى، ويشارك معي تفاصيل مؤلمة عن حياته- يستحقُّ صدقي معه بشكلٍ كامل.

لذا أخبرته أن ريتشارد فلين كتب كتابًا عن تلك الفترة، وأرسلهُ إلى وكيل أدبي، لكنَّ باقي المخطوطة لم يُعثر عليها. وأنني وُظِّفتُ من قِبل الوكيل المعنيِّ، وكنتُ أبحث -أو أحقق، إن صح القول- في القضية في محاولةٍ لإعادةِ بناء الوقائع. وتحدَّثتُ إلى عددٍ كبير من الناس، لكنني لم أتوصَّل إلى أي شيءٍ ملموس حتى الآن، ولم أتمكَّن من فهمِ ما يجري.

أشار إلى المغلَّف البرتقالي اللون الكبير الذي أحضرهُ معه.

قال: «زُرتُ الوكالة، وطبعتُ لك بعض النسخ. لم نبدأ في رقمنةِ سجلاتنا حتى أوائل التسعينات، لذا كان عليَّ تنقيب الصناديق في الأرشيف. لم تكن أيٌّ منها سرية، لذا كان الأمرُ سهلًا. خذ الأوراق معك واقرأها». حثَّني، ووضعتُ المغلف في حقيبتي.

ثم مرَّ بشكلٍ سريع على ما يتذكَّره: كيف وصل إلى منزل ويدر مع فريقِ الطب الشرعي، وعن العاصفة الإعلامية، وكيف لم يجد أيَّة أدلَّة معقولة لتكوين نظرية صالحة للعمل عليها.

- هناكَ الكثيرُ من الأمور التي لم تكن منطقية بشأن هذه القضية. عاش البروفيسور حياةً هادئة، لم يتعاطَ المخدِّرات، ولم يتورَّط مع بائعات الهوى، ولم يتردد على أماكن سيئة. لم تكُن لديه أي نزاعاتٍ حديثة مع أي شخص، وعاش في حيٍّ لطيف، وكان جيرانه أشخاصًا محترمين، يعرفون بعضهم بعضًا منذ سنوات، أساتذة وأصحاب مناصب كبيرة في الشركات. ثم فجأة، يُضرَب هذا الرجل حتى الموت في منزله. كان هناك الكثير من الأشياء الثمينة في الداخل، لكن لم يُفقد أي شيء، حتى المال والمجوهرات. لكنني أتذكَّرُ أن شخصًا ما فتَّش في المكان بسرعة. كانت الأدراجُ مفتوحة، والأوراقُ متناثرة على الأرض. لكن البصمات الوحيدة التي وجدناها كانت لأشخاصٍ معروفين: فتى كان يعتني بمكتبة البروفيسور، وعامل نظافة كان لديه الإذن بالدخول، وكان يتردَّد على المنزل كثيرًا.

قلت: «ماذا عن تلك الأوراق على الأرض؟ هل حُرِّز أيٌّ منها كأدلة محتملة؟».

- لا أتذكَّر تفاصيلًا كهذه... ستجدُ كل شيء في هذه النسخ. لكنني أتذكر أننا وجدنا خزنة صغيرة في المنزل، ولم يعرف أحدٌ الرقم السريَّ، لذا اضطررنا إلى إحضارِ صانع أقفال. وكسرها، لكن كل ما وجدناه كان بعض النقود، وصكوك الملكية، وصورًا فوتوغرافية، وأشياء من هذا القبيل. لا شيء متعلِّق بالقضية.

- كان البروفيسور قد انتهى من كتابةِ كتاب، ويبدو أن المخطوطة قد اختفت.

- اهتمَّت شقيقتهُ بأغراضه. فقد وصلت بعد يومينِ تقريبًا من أوروبا. أتذكَّرُها جيدًا. كانت تتصرَّفُ كنجمةٍ سينمائية، أو شيء

من هذا القبيل. ارتدت معطف فروٍ فاخرًا، وكثيرًا من المجوهرات، مثل بعضِ النجوم، وكانت تتحدَّثُ بلكنة أجنبية. كان مشهدًا غريبًا، دعني أخبرك بذلك. سألناها بضعة أسئلة، لكنها قالت: إنها وشقيقها الراحل لم يكونا مقرَّبيْن جدًّا فحسب، ولم تكن تعرف الكثير عن حياته.

قلت: «اسمها إنجي روسي. كانت تعيشُ في إيطاليا منذ فترةٍ طويلة».

- ربما... من المحتملِ أنَّ بحوزتها المخطوطة التي تتحدث عنها، أو ربما أخذها شخصٌ آخر. بعد بضعة أيام، أفرغنا كل أغراضنا من هناك. لم تشتكِ أختهُ من فُقدانِ أي شيء، لكنني أشكُّ في أنها كانت تعرفُ الكثير عمَّا احتفظ به شقيقها. فكما أخبرتُك، قالت لي: إنها لم تزر أخاها طوال العشرين سنةٍ الماضية. كانت في عجلةٍ من أمرها، لإنهاء كل شيء بأسرع ما يمكن، وسافرت مباشرةً بعد الجنازة.

- أعلمُ أن شابًّا كان أحد المشتبه فيهم، مارتن لوثر كينيت، الذي حُكِم عليه لاحقًا بجريمة قتل زوجين مسنين.

- آل إيستون، هذا صحيح، جريمة قتل بشعة... حُكِم على كينيت بالسجن مدى الحياة، وما زال في سجن رايكرز. لكنه لم يُدَنْ بقتلِ البروفيسور...

- أجل، أعلم، لكن عومِلَ لفترة بصفتِهِ المشتبه الرئيسي في قضية ويدر، أليس كذلك؟

هزَّ كتفيه.

- تعرفُ كيف تجري الأمور أحيانًا... كان ويدر شخصية شهيرة، وتواثبت الصحافةُ على القصة، وانتشرت على المستوى المحلِّي لفترة، لذلك كان هناك ضغطٌ علينا لحلِّ القضية بأسرع وقتٍ

ممكن. عملنا مع مكتب الشريف، وعيَّن مكتب المدعي العام في مقاطعة ميرسر محققًا من وحدة الجرائم، رجلًا يدعى إيفان فرانسيس. ذلك الرجل كان من النوعِ الذي يتسلَّقُ السلم الوظيفي، إن كنت تفهمُ ما أعنيه، وكان لديه دعمٌ سياسيٌّ قوي. أما نحن، الشرطة المحلية، فكنا مجرد قطع صغيرة، لذلك تلاعبَ الرجل والمدعي العام بكل الخيوط.

- رأيي، الذي لم أخَف من التصريح بهِ في ذلك الوقت، هو أنَّ الفتى «كينيت» لم يكن له أي علاقة بجريمة قتل آل إيستون، ولا بقضية ويدر، وأنا جادٌّ تمامًا في ذلك. المدَّعي العام حاولَ أيضًا جعله المشتبه الرئيسي في قضية ويدر، كما قلت، لذلك تخلَّو تدريجيًّا عن كل المساراتِ الأخرى. لكن كان ذلكَ محض غباءٍ، وكُنَّا نعلمُ ذلكَ جميعًا. ربما لم يكن ذلك الفتى ذكيًّا جدًّا، لكنهُ لم يكن غبيًّا لدرجةِ محاولةِ بيعِ الأحجارِ الكريمة -التي سرقها من الضحايا- في محل رهوناتٍ على بُعدِ أميالٍ قليلةٍ فقط من مسرح الجريمة. ما هذا الهراء؟ لماذا لم يذهب إلى نيويورك، أو فيلادلفيا؟ كان تاجرًا صغيرًا، صحيح، لكنه لم يُدَن بالعنفِ من قبل. كما أنه كان لديهِ حُجَّة غياب لتلكَ الليلة التي قُتِل فيها البروفيسور، لذا من المفترضِ ألا يتمَّ حتى التفكيرُ في احتمالِ تورُّطهِ في قضية ويدر.

- قرأتُ شيئًا عن ذلكَ في الصُّحف، لكن هل أنت متأكد...

- كان الأمرُ تمامًا كما أخبرك، لقد كان في قاعة ألعاب. لم تتوفَّر كاميراتٌ أمنية في تلك الأيام، لكن اثنين، أو ثلاثة من الأشخاص أكَّدوا في البداية أنهم رأوه هناك خلال الوقت الذي وقعت فيهِ الجريمة. ثم ذهب إيفان فرانسيس لمقابلتهم، فغيَّروا تصريحاتهم

الأوليَّة. بالإضافةِ إلى ذلك، كان محامي الدفاع العام عن كينيت أحمق، لم يرغب في الجدال مع أي أحد. هل تفهم؟

- إذًا تم التخلي عن مسار ريتشارد فلين بسرعة؟

- أجل، صحيح، كان ذلك مسارًا أيضًا. لم يكن الوحيد الذي تمَّ التخلِّي عنه «بسرعة»، كما قلت. لا أستطيع تذكُّر كل التفاصيل، لكنني أعتقدُ أنه آخر شخصٍ رأى البروفيسور على قيدِ الحياة، لذلك أجرينا معه مقابلاتٍ عدة مرات، لكننا لم نكتشف أيَّ شيءٍ يدينه. اعترفَ بأنه كان هناكَ تلك الليلة، لكنَّه زعم مغادرته قبل ساعتين أو ثلاث من وقتِ الجريمة. هل اعترف بأيِّ شيءٍ في ذلك الكتاب؟

- كما قلت، معظمُ المخطوطة مفقودة، لذلك لا أعرفُ إلى أين كان يتجهُ بالقصة. ما لم تعرفه في ذلك الوقت، لأن ريتشارد فلين، وديريك سيمونز -الشاهد الآخر- لزما الصمت بشأنه، هو أن طالبة دراسات عليا تُدعى: لورا باينز ربما كانت هناكَ أيضًا في تلك الليلة. عاملُ الصيانة أخبرني أنها وفلين التقيا بالبروفيسور، وحدث شجارٌ بينهم.

ابتسم.

- لا تقلِّل من شأنِ شرطي، جون! أعلمُ أن الناس يعتقدون أحيانًا أننا مجردُ أغبياء نلتهمُ الكعك، ولا نستطيعُ حتى العثور على شيءٍ بسيط. بالطبع كنا نعلمُ كل شيءٍ عن الفتاةِ التي تتحدَّث عنها، والتي بدا أنها تقيمُ علاقةً مع البروفيسور، لكن في النهاية لم يُثبَت أيُّ شيء. أجريتُ معها مقابلة، لكن كان لديها حُجَّة غياب قوية طوال الليل، على حدِّ علمي، لذا لم يكُن من الممكن أن توجد في مكان الجريمة- مسارٌ آخر مسدود.

- لكن ذلك الرجل، عامل الصيانة...

- أما عن تصريح عاملِ الصيانة... حسنًا... ما اسمه؟

- سيمونز، ديريك سيمونز.

توقَّفَ فجأةً عن الحديث، وحدَّق إلى الفراغ لبضعِ ثوانٍ. ثمَّ أخرجَ زجاجةً صغيرة من جيبه، فتحها وابتلعَ حبَّة خضراء مع رشفةِ ماء. وبدا مُحرجًا.

- آسف على ذلك، لكن... أجل، كان اسمهُ ديريك سيمونز، صحيح. لا أستطيعُ تذكُّر ما قالهُ بالضبط، لكن لم يكن هناك الكثير الذي يمكننا فعلهُ بتصريحهِ على أي حال. الرجل كانَ مريضًا، ويعاني من فقدانِ الذاكرة، ولا أعتقدُ أنه كان سليمَ العقل بالكامل، إذا كنت تفهم ما أعنيه. ولكن على أي حال، بجانب الشائعات، لم نملُك أيَّ دليل أنَّ البروفيسور، وتلكَ الفتاة كانا على علاقة، وحجَّة غيابها كانت قوية.

- هل تتذكَّر من الذي أكَّد ذلك؟

- كل شيءٍ موجود في الأوراق التي أعطيتُكَ إياها. أعتقدُ أنها كانت زميلة دراسة، فتاة.

- سارة هاربر؟

- قلت لك، لا أستطيعُ تذكُّر كل التفاصيل، لكن ستجدُ كل الأسماء في الأوراق.

- لورا باينز كان لديها حبيب، تيموثي ساندرز. ربما شعَرَ بالغيرة، وفكَّر أن حبيبته والبروفيسور على علاقة. هل قابلتموه في التحقيق؟

- لورا باينز لم تكن مشتبهًا بها -كما أخبرتك- فلماذا علينا التحقيق مع حبيبها؟ لماذا؟ هل وجدت شيئًا عن ذلك الرجل؟

- لا شيء متعلِّق بالقضية. لقد قُتِل بالرصاص قبل سنوات عديدة في واشنطن. قالوا إنها عمليةُ سرقة تحوَّلت إلى جريمة قتل.

- حسنًا، يؤسفني سماع ذلك.

انتهينا من تناول الطعام، وطلبنا القهوة. وبدا فريمان متعبًا وغائبًا، كما لو أنَّ حديثنا قد استنفد طاقته. مكتبة سُر مَن قرأ

تابعت: «لكن لماذا لم يتم توجيه اتهام رسمي لفلين؟».

- لا أذكر، لكنني أعتقدُ أن شخصًا طموحًا مثل فرانسيس كان لديه أسبابٌ وجيهة لعدم تقديمه أمام هيئةِ المحلِّفين. الرجل كان طالبًا ذا سجلٍّ نظيف، يهتمُّ بشؤونه الخاصة. لم يتعاط المخدرات، أو يشرب بشكلٍ مفرط، على حد ما أتذكَّر، ولم يكن عنيفًا، لذا لم يُناسب نمطَ القاتل المحتمل. آه، أجل، وقد اجتاز اختبارَ جهاز كشفِ الكذب، هل تعلمُ ذلك؟ أشخاصٌ مثل هؤلاء لا يخرجونَ فجأة، ويرتكبون جرائم قتل، حتى تحت ضغطٍ عاطفيٍّ شديد. بعضُ الأشخاص ببساطة لا يستطيعونَ قتلَ شخصٍ آخر، حتى للدفاعِ عن حياتهم.

قرأتُ دراسة منذ سنوات، خلُصَت إلى أن معظم الجنود -في الحرب العالمية الثانية- كانوا يطلقون النار في الهواء بدلًا من التصويبِ نحو الألمان، أو اليابانيين. قتلُ شخصٍ ما بالضرب حتى الموت بمضرب بيسبول ليس سهلًا كما في الأفلام. حتى لو ظننتَ أن الشخص الآخر اغتصبَ ابنتك. لا أعتقدُ أن ذلك الرجل كان القاتل.

- روي، هل تعتقدُ أن امرأةً كانت قادرة على القيام بذلك؟ أعني جسديًّا.

فكَّر لبضع لحظات.

- حسنًا، تحطيمُ رأسِ شخصٍ بمضرب بيسبول؟ لا أعتقدُ ذلك. النساءُ يقتلن أقل بكثير من الرجال، ونادرًا ما يرتكبن جرائم قتل عنيفة بهذه الطريقة. عندما تقتلُ النساء، يستخدمن السُّم، أو طرقًا أخرى لا تنطوي على سفك دماء. ربما مسدس. من ناحيةٍ أخرى، في علم الأدلة الجنائية هناك أنماط، لكن لا توجد ثوابت، لذا لا ينبغي للمحقِّق أن يستبعد أي فرضية. حسب ما أذكر، كان ويدر رجلًا قويًّا، في حالة بدنية جيدة، وشابًّا بما يكفي للدفاع عن نفسه إذا لزم الأمر. أجل، لقد كان يشرب قبل مقتله.

مستوى الكحول في الدم يمكنُ أن يكشفَ الكثير عن حالةِ الضحية لحظةَ الاعتداء، لكنه لا يكشفُ كل شيء. مع نفس مستوى الكحول، قد يتمتَّع أحدهم بردود فعل شبه طبيعية، بينما قد لا يقدرُ غيره على الدفاع عن نفسه. يختلف ذلك من شخص لآخر.

- هل اعتُبِرَ سيمونز مشتبهًا فيه؟

- من هو سيمونز؟ آه، آسف، عامل الصيانة، الرجل الذي كان به خلل...

- أجل. لقد اتُّهِم في الماضي بقتل زوجته، ولكنه بُرِّئ لعدم أهليته العقلية. لماذا لم يكُن مشتبهًا فيه؟ لقد كان متعاونًا للغاية، وكان لديه حُجة غياب، لذا اعتُبِرَ مشتبهًا محتملًا فقط في البداية، مثل أي شخص آخر مرتبط بالضحية بطريقة، أو بأخرى. استجوبناه عدة مرات، لكنه بدا غير مؤذٍ، وأسقطنا التهمة.

لقد جاء بالقطار، وأوصلته إلى منزله في نيو جيرسي. وبينما أقودُ السيارة، أخبرني عن حياة الشرطي في تلك الأيام. عاش في منزلٍ قديم من طابقٍ واحد، محاطٍ بأشجار الصنوبر في نهاية طريقٍ ترابي، ليس

بعيدًا عن الطريق السريع. قبل أن أغادر، طلبَ مني أن أُبقيه على اطِّلاع بما أتوصَّلُ إليه في التحقيق، ووعدته بإخبارِهِ فور اكتشاف أي شيءٍ مهم. لكنني كنت أعلم بالفعل أنني سأترُك الأمرَ برمَّته.

ومع ذلك، قرأتُ في المساء الأوراق التي أحضرها لي، لكنني لم أكتشف الكثير مما لم أعرفهُ بالفعل.

استُجوِبَ ريتشارد ثلاث مرات، وفي كل مرة أعطى إجاباتٍ واضحة وصريحة. وكما قال فريمان، فقد وافق حتى على إجراءِ اختبار كشف الكذب، والذي اجتازه بنجاح. ذُكِر اسم لورا باينز فقط في تقرير عام عن علاقات ويدر ومعارفه. لم تُذكر كمشتبه بها أو كشاهدة، واستُجوِبت مرة واحدة فحسب. وبدا أن هناكَ بعض الشُّكوك في أنها ربِّما كانت في موقع الجريمة في تلكَ الليلة، حيثُ غادرت المنزل قرابة التاسعة مساءً، حينَ وصلَ ريتشارد. لكن كلًّا من ريتشارد، ولورا نفيا ذلك. فلين، والبروفيسور تناولا شرابًا معًا، وزعم الأول أن لورا لم تكن هناك.

في وقتٍ لاحق، خلال بحثي عن المزيد من المعلومات عبر الإنترنت، وذهني نصفُ غائب، فكَّرتُ في سام: الطريقة التي ابتسمت بها لي، لون عينيها المتغيِّر، والعلامةُ الصغيرة على كتفها اليسرى. شعرتُ بشعورٍ غريب أن ذكرياتي عنها بدأت تتلاشى تدريجيًّا، وتختبئُ واحدة تلو الأخرى في تلك الحجرة السريَّة للفرصِ الضائعة، والتي رميتُ مفتاحها، لأن الذكريات خلف بابها مؤلمة جدًّا.

لم أنم حتى قُرب الصباح. كنتُ أسمعُ الأنفاسَ العميقة للمدينة، حيث تتشابك ملايينُ الأحلام والقصص لتشكِّل كرة ضخمة ترتفعُ ببطءٍ في السماء، وتتأهَّبُ للانفجار في أي لحظة.

حاولتُ عدَّة مرات خلال الأسبوعين الماضيين الوصول إلى سارة هاربر. واتصلت بي أخيرًا في اليوم التالي للقاءِ فريمان، تمامًا عندما

كنتُ أستعدُّ للاتصالِ ببيتر، وإنهاء التحقيق برمَّته. كان لهاربر صوتٌ لطيف، وأخبرتني أنها ترغب في رؤيتي في أقرب وقتٍ ممكن، لأنها على وشكِ مغادرةِ المدينة لفترة من الوقت. كانت قد تذكَّرت أنها تحدثت إلى هاري ميلر قبل بضعة أسابيع، وأرادت معرفة ما أريده منها.

بصراحة، لم أكن مهتمًّا بلقائها. لقد تحدَّثتُ مع الكثيرِ من الناس في ذلكَ الوقت، وكلهم أخبروني بقصصٍ متضاربة، كما أن الانفصال عن سام شكَّلَ صدمةً كبيرة جدًّا بحيثُ لم أستطع التركيز على شيءٍ حدث منذ سنواتٍ عديدة، شيء فقدتُ تقريبًا كل اهتمامي وفضولي تجاهه. فجأةً أصبحت الأحداثُ مثل رسوماتٍ بلا عُمق، كالرسوم التوضيحية في كتاب أطفال، ثنائية الأبعاد، ولا قدرة لها على إثارة أي حماس داخلي. لم يكن لديَّ أي اهتمام بأن أقطع الطريق الطويل نحو برونكس للقاءِ مدمنة ربما ستخبرني بمجموعة أخرى من الأكاذيب، على أملِ الحصولِ على مبلغٍ سريع لشراء المخدرات.

لكنها عرضت القدومَ إلى المدينة لمقابلتي، فوافقت. أعطيتها عنوان حانةٍ في الزاوية، وأخبرتني أنها ستكونُ هناك في غضون ساعةٍ تقريبًا، وأنني سأتمكَّنُ من التعرُّف عليها من خلال حقيبة سفرها الخضراء.

وصلت متأخِّرة عشرَ دقائق، بالضبط عندما كنت أشرب الإسبريسو. لوَّحتُ لها، وجاءت نحوي، وصافحتني، وجلست.

بدت مختلفةً تمامًا عمَّا تخيَّلتُه. كانت قصيرة وضعيفة، بجسدٍ يشبه أجسام المراهقين، وبشرة بيضاء للغاية، تتناسبُ مع لونِ شعرها المشمشي. وارتدت ملابس بسيطة: بنطال جينز، وقميصًا طويل الأكمام كُتِبَ عليه «الحياة جميلة»، وسترة جينز مهترئة، لكنها بدَت أنيقةً جدًّا، وتفوح منها رائحةُ عطرٍ باهظ الثمن. عرضتُ عليها شراء مشروبٍ لأجلها، لكنها قالت: إنها امتنعت عن الشرب منذُ عام، بعد آخر فترةٍ لها

في إعادة التأهيل. أكَّدت لي أنها أيضًا توقَّفت عن تعاطي المخدرات منذ ذلك الحين. أشارت إلى حقيبتها التي وضعتها على الكرسي بجانبها. وقالت: «كما أخبرتك عبر الهاتف، سأغادر لفترة. وفكَّرتُ أن من الأفضلِ أن أتحدث معك قبل ذلك».

- إلى أين ستذهبين؟

- إلى ولاية ماين، مع حبيبي. سنعيشُ في جزيرة. لقد حصل على وظيفة مع مؤسسة تهتمُّ بمحميات الحياة البرية. انتظرتُ القيام بشيءٍ كهذا منذُ فترة طويلة، لكنني أردتُ التأكُّد تمامًا من أنني بخير، ومستعدة قبل أن أغادر، إذا كنتَ تفهمُ ما أعنيه. سأفتقدُ نيويورك. لقد عشتُ هنا معظم حياتي، لكنها بدايةٌ جديدة، أليس كذلك؟

بدت مرتاحةً في الحديثِ معي، رغم أننا التقينا للتو، وفكَّرتُ أنها ربما لا تزال تحضر مجموعات دعم مثل «مدمني الكحول المجهولين». خلا وجهها تقريبًا من التجاعيد، لكن كان هناك دوائر عميقة تحت عينيها التركوازيتين.

قلت بعد أن أخبرتها باختصار عن مخطوطة ريتشارد فلين، وتحقيقي حول أحداث أواخر عام 1987: «شكرًا لكِ على موافقتك التحدُّث معي، سارة. قبل أيِّ شيءٍ آخر، أودُّ أن أحذِّركِ أن الوكالة التي أعملُ معها ليس لديها ميزانية كبيرة لهذا النوع من الأبحاث، لذلك...».

قاطعتني بإشارةٍ من يدها: «لا أعلمُ ما أخبركَ إياه ذلك الرجل ميلر، لكنني لا أحتاجُ إلى نقودك. لقد تمكَّنتُ من توفيرِ بعضِ المالِ مؤخرًا، وحيثما سأذهب لن أحتاج إلى الكثير منه. وافقتُ على لقائك لسببٍ آخر. له علاقة بلورا باينز، أو ويستليك، كما تسمِّي نفسها الآن. فكَّرتُ أنه سيكونُ من الأفضل لك أن تعرف بعضَ الأشياءِ عنها».

قلت: «سأطلبُ إسبرسو آخر، هل ترغبين في شيء؟».

- كابتشينو منزوع الكافيين سيكون رائعًا، شكرًا.

ذهبتُ إلى البار، وطلبتُ قهوتنا، ثم عُدتُ إلى الطاولة. كان يوم جمعة بعد الظهر، وبدأت الحانة تمتلئُ بأشخاصٍ صاخبين.

قلت: «كنتِ تتحدثين عن لورا باينز».

- إلى أيِّ مدى تعرفها؟

- بالكادِ أعرفُها. تحدَّثنا لنصف ساعة، وتواصلنا عبر الهاتف مرتين، هذا كل شيء.

- وما هو الانطباعُ الذي تركته لديك؟

- لم يكن جيدًا جدًّا، بصراحة. شعرتُ أنها كذبت عليَّ عندما سألتُها عما حدث في ذلكَ الوقت. إنهُ مجردُ شعور، لكنني أعتقدُ أنها تخفي شيئًا.

- كنا أنا ولورا صديقتينِ مقرَّبتين: تشاركنا شقة لبعض الوقت، حتى انتقلَت للعيشِ مع حبيبها. على الرغم من أنها كانت من الغربِ الأوسط، فقد كانت لورا ذات روحٍ حرة، مُثقَّفة للغاية، ولديها جاذبية جعلتها محبوبة ليس من الشبَّان فحسب، بل من الفتياتِ أيضًا. كوَّنت صداقاتٍ كثيرة بسرعة، ودُعيَت إلى كل الحفلات، ولفتت انتباهَ أساتذتها. وكانت الطالبة الأكثر شعبية في دُفعتنا.

- ما هي علاقتها بويدر بالضبط؟ هل تعرفينَ أيَّ شيءٍ عن ذلك؟ البعضُ أخبرني أنهما كانا على علاقة، وهذا ما ألمَح إليه ريتشارد فلين في مخطوطته. لكنَّها تزعم أنه لم يكن هناك أي شيء رومانسي بينهما قط.

فكَّرَت لثوانٍ، وهي تعضُّ شفتها السفلى.

- أفكِّر الآن كيف أُفسِّر الأمر بوضوح... لا أعتقدُ أنه كان هناك شيء جسدي بينهما، لكنهما عَنَيا الكثيرَ لبعضهما بعضًا. لم يبدُ البروفيسور كشخصٍ مهتم بالفتياتِ الصغيرات. كان لديه طاقة جعلتنا جميعًا نُعجبُ به، ونهتم لأمره. دروسه مدهشة. وكان لديه حِسُّ دعابةٍ رائع، ويُعطيك الإحساس بأنه يعرف ما يتحدَّثُ عنه، ويريد حقًّا أن تتعلَّم شيئًا، وليس فقط القيامَ بعمله الذي يتقاضى عليه أجرًا. دعني أعطِكَ مثالًا. ذات مرة، خلال بعض الألعاب النارية في الخريف -كان هناك أنواع غبية من الطقوس في ذلك الوقت، وربما لا تزالُ موجودة- ذهب جميع طلاب فصلنا مع بعض الأساتذة إلى الساحة أمام متحف الفنون، ينتظرون أن يحلَّ الظلام، وتبدأ المدفعية. وخلال نصفِ ساعة، كان تقريبًا جميعُ الطلاب يقفونَ في مجموعة حول ويدر، الذي لم يكن حتى يقولُ شيئًا.

- بعضُ زملائه السابقين يقولون: إنه زير نساء، وأنه كان يشربُ كثيرًا.

- لا أعتقدُ ذلك، ولورا لم تذكر لي شيئًا من هذا القبيل. أميلُ إلى الاعتقاد بأنها مجرد ثرثرة. على أي حال، كان لدى لورا حبيب في ذلك الوقت...

- تيموثي ساندرز؟

- أجل، أعتقدُ أن هذا كان اسمه. لم تكن لدي قط ذاكرة جيدة للأسماء، لكن أعتقدُ أنك على حق. بدا أنَّ لورا تهتمُّ به حقًّا، إذا كانت قادرة على الاهتمام بأي شخص. لكن بصرف النظرِ عن علاقتها مع ذلك الشاب، أو مع ويدر، بدأت لورا تُظهِرُ لي وجهًا مختلفًا، وهو ما بدأ يُثيرُ ريبتي تدريجيًّا.

سألت: «ماذا تقصدين؟».

- كانت شديدة، شديدة للغاية... شديدة العزم، هذا هو المصطلح، ولكن في الوقت نفسه كانت تحسبُ كلَّ شيءٍ بدقَّة. في ذلك العمر، لم يكُن أيٌّ منا –أقصد الطلاب– يأخذُ الحياةَ بجديَّة كبيرة. مغازلةُ حبيب أهم بالنسبة لي من مسيرتي المستقبلية، مثلًا. أضعتُ الكثير من الوقت في أشياءَ غير مهمة، شراءُ تفاهات، أو الذهاب إلى السينما؛ وسهرتُ العديد من الليالي أتحدَّثُ مع الأصدقاء عن أمورٍ بلا معنى.

لكن لورا مختلفة. في إحدى المرات، أخبرتني أنها تخلَّت عن الرياضة في سن الثامنة عشرة، بعدما أدركت أن الجوائز التي فازت بها حتى ذلك الحين لن تكفي لضمانِ مكانٍ لها في الفريق الأولمبي في لوس أنجلوس، وبعد أربع سنوات كانت ستُصبح كبيرة في السن جدًّا لتتمكَّن من ضمان فرصة أن تُختارَ للفريق. سألتها ما علاقة هذا بالأمر، وأدهشها سؤالي. وقالت: «ما فائدةُ العملِ الجاد إذا لم يكن لديك فرصة لتثبت أنك الأفضل؟» هل تفهم ما أعنيه؟ بالنسبةِ لها، الرياضة مجردُ وسيلة لتحقيقِ غاية، وهي الاعتراف العام. هذا ما رغبت به قبلَ أي شيء، أو ربما هو الشيء الوحيد الذي أرادته دائمًا: أن يعترف الآخرونَ بأنها الأفضل. ومما تمكَّنتُ من استنتاجه، كان لديها إحساسٌ مفرط بالتنافسية منذ طفولتها المبكِّرة، ومع الوقت تحوَّلَ إلى هوس. مهما كان ما تفعله، يجبُ أن تكونَ الأفضل. ومهما كان ما تريده، يجبُ أن تحقِّقهُ في أسرع وقتٍ ممكن.

ولم تكن تدركُ ذلك حتى. نظرت لنفسها كشخصٍ منفتح ومعطاء، ومستعدَّة للتضحية من أجلِ الآخرين. ولكنْ أيُّ شخصٍ يقف في طريقها يمثِّلُ عقبةً عليها التخلُّص منها.

أعتقدُ أن هذا هو سببُ أهمية علاقتها مع ويدر بالنسبة لها. شعرت بالإطراءِ، لأنها لوحظت من قِبَل أكثر الأساتذة جاذبية، عبقريٌّ يُعجَب بِهِ الجميع. اهتمامهُ جعلها تشعرُ بأنها مميزة؛ كانت المختارة، وكانت فريدةً بين تلك المجموعة من الفتيات اللواتي نظرن إلى ويدر كإله. أما تيموثي، فكان مجرد ولدٍ يتبعُها مثل جرو، وتنامُ معهُ بين الحينِ والآخر.

بدا أنَّ الحديث يرهقها، وظهرت بقعتان حمراوان على خديها. كانت تكرِّرُ تنظيف حلقها، كما لو كان جافًّا. فرغت من كوب القهوة، فسألتُها إن رغبت في المزيد، لكنها قالت: إنها بخير.

- أعتقدُ أن هذا هو السبب في صداقتها معي في البداية. رغم أنني وُلدت، ونشأتُ في المدينة، فقد كنتُ ساذجة، ومتأثِّرة بها، مما أكد لها أنه لا يوجدُ داعٍ لأن تشعر بأي عُقدة لكونها فتاة ريفية وصلت إلى الساحل الشرقي. لقد أخذتني تحت جناحها بطريقةٍ ما. مثل سانشو بانزا، كنت أتبعُها مهما كان، راكبةً على حماري، بينما تشقُّ طريقها نحو الشهرةِ والمجد. لكنها لم تكن تتسامحُ مع أيِّ بادرة استقلال. في مرة، اشتريتُ زوجًا من الأحذية دون أن أطلُب نصيحتها. وتمكَّنت من إقناعي بأنه أقبح حذاءٍ في العالم، وأنه لا يمكن أن يرتديه إلا شخص بلا ذوقٍ تمامًا. وتخلَّيتُ عنه.

- حسنًا، إنها باردة، وحساباتها دقيقة، لكنَّ الكثير من الناس كذلك. هل تعتقدينَ أنه من الممكن أن تكون متورِّطة في مقتل ويدر؟ ما الدافع الذي لديها؟

قالت: «الكتاب الذي كتبهُ ويدر. ذلك الكتاب اللعين».

أخبرتني أنَّ لورا ساعدت البروفيسور في كتاب، وأنهُ استعانَ بمعرفتها في الرياضيات، لإنشاء نماذج لتقييم التغيُّرات السلوكية الناتجة عن الأحداثِ الصادمة.

كان انطباعُ سارة أن لورا قد بالغت في تقديرِ مساهمتها. لقد كانت مُقتنعة بأنهُ لولا مساعدتها، لما تمكَّن ويدر من إنهاءِ المشروع. لذلك طلبت منهُ أن يُدرج اسمها كمؤلفة مشاركة، والبروفيسور -كما أخبرت سارة بسعادة- قد وافقَ على ذلك. في ذاكَ الوقت، سافر تيموثي إلى أوروبا، لإجراءِ بحثٍ في إحدى الجامعاتِ هناك، وانتقلت لورا إلى المنزل الذي تشاركتهُ مع ريتشارد فلين، بعد أن أقامت لفترة قصيرة في الشقة ذاتِ الغرفة الواحدة التي استأجرتها سارة. لاحقًا أخبرت سارة أن فلين، الشخص الذي تشاركت المنزل معه، كان حالمًا متوهِّمًا، وأنهُ مغرمٌ بها بجنون، وهو وضع وجدتهُ لورا مسليًا.

لكن في يومٍ من الأيام، زارت لورا منزل البروفيسور -كما فعلت كثيرًا- ووجدت نسخة من الاقتراحِ الذي أرسلهُ إلى الناشر. ولم يكُن اسمها مذكورًا في أيِّ مكانٍ من الملف، وعندها أدركت أن البروفيسور كان يكذبُ عليها، ولم يكن لديهِ أدنى نيَّة لاعتبارها مؤلِّفة مُشارِكة.

هذا هو الوقت الذي -كما قالت سارة- بدأت صديقتُها تُظهِرُ فيه جانبها القبيح. لم تُصَب بنوباتِ هستيريا، ولم تحطِّم الأشياء، ولم تصرُخ، كان سيكونُ أفضل لو أنها فعلت ذلك. وبدلًا من هذا، طلبت لورا من سارة أن تبقى في منزلها تلك الليلة، وجلست لساعة أو اثنتين تقريبًا تحدِّقُ إلى الفراغ دونَ أن تقولَ شيئًا. ثم بدأت في وضعِ خُطَّة معركة، كجنرالٍ مصمِّم على القضاءِ التام على العدو.

كانت لورا تعلمُ أنَّ خلافاتٍ قد نشأت بين البروفيسور، والأشخاص الذينَ كان يعملُ معهم في مشروعٍ سري، لذلك بدأت تُربِكُ ذهنه،

وجعلتهُ يعتقدُ أنهُ مُراقب، وأن الناس يفتشونَ منزله عندما يكون غائبًا. وفي الواقع، كانت لورا هي من تفعلُ ذلك- تغيِّرُ أماكنَ الأشياءِ، وتترك علامات خفيَّة على التسلل، في لعبة سادية من نوعٍ ما.

ثانيًا، قادت لورا البروفيسور إلى الاعتقادِ بأنها واقعة في حُبِّ ريتشارد فلين، والذي عرَّفتهُ عليه، في محاولةٍ لجعلهِ يشعرُ بالغيرة. وحاولت إقناع ويدر بتأجيلِ تسليمِ المخطوطة، وفي غضونِ ذلك، إقناعهُ بالعودةِ إلى تفاهمهم السابق.

قالت سارة: إن البروفيسور ربَّما أدركَ أن ما طالبت به لورا كان سخيفًا. لم تكن حتى قد أنهت درجة الماجستير الخاصة بها، ولكنها كانت ستحصلُ على مكانٍ على غلاف عمل أكاديمي كبير- وهو من سيتحمَّلُ العواقب، مما سيؤدي إلى تدمير مسيرتهِ بشكلٍ جاد.

تذكَّرتُ ما كتبهُ فلين في مخطوطتهِ عن لقائهِ الأول مع ويدر. إذا كانت سارة هاربر تقولُ الحقيقة، فهو مجرَّد ضحية. دورهُ الوحيد كان جعل البروفيسور يشعرُ بالغيرة، كدمية جورب تافهة في عرض لورا.

تابعت سارة: «في ليلة مقتل البروفيسور، جاءت لورا إلى شقتي. كان ذلك قرابة الثالثة صباحًا. كنتُ قد خلدتُ للنومِ مبكرًا، لأنني سأعودُ إلى بلدتي لقضاء العطلة في اليوم التالي، وقد عرض عليَّ صديقٌ إيصالي إلى نيويورك».

بدت خائفة، وأخبرتني أنها تشاجرت مع ريتشارد فلين، الذي أخذ تودُّدها على محملِ الجد، وأصبحَ مهووسًا بها. وجمعت كلَّ أغراضها من المنزل، والتي كانت في صندوقِ سيارتها بالخارج. على أي حال، تيموثي كان قد عادَ قبل يومين، وكانا سيعودانِ للعيشِ معًا مرة أخرى.

- يزعم ريتشارد أن لورا أخبرتهُ أنها تنوي قضاء ذلك اليومِ معكِ، والبقاء في شقتك طوال الليل.

- كما قلت، وصلت في وقتٍ مبكِّر من الصباح. ليسَ لديَّ أي فكرة عن مكان وجودها حتى ذلكَ الحين. لكنَّها توسَّلت إليَّ أن أقول: إننا كنا معًا طوال المساء، إذا سألَ أيُّ شخص. وعدتُها بذلك، معتقدةً أنها تتحدَّثُ عن ريتشارد فلين.

- أين كنتِ تعيشينَ في ذلك الوقت، يا سارة؟

- في روكي هيل، على بُعدِ نحو خمسةِ أميال من الحرمِ الجامعي.

- كم من الوقتِ تعتقدين أنه كان سيستغرقُ لورا للوصول إلى هناك من المنزل، الذي تشاركته مع فلين؟

- ليس طويلًا، حتى لو كان الوقتُ ليلًا، والطقسُ سيئًا جدًّا. كانوا يعيشون في مكانٍ ما في بايارد. عشرونَ دقيقة أو نحو ذلك.

- وكانت ستستغرقُ نحو نصف ساعة للعودة من منزل البروفيسور -في ويست ويندسور- إلى منزل فلين، بالنظر إلى الطقس. بالإضافة إلى ساعةٍ أخرى لتعبئةِ أغراضها؛ وهذا يعني ساعتين. إذا كانت معلوماتي صحيحة، وأنها قد ذهبت إلى منزل ويدر تلك الليلة، فهذا يعني أنها غادرت من هناك قرابة الواحدة صباحًا، وليس في التاسعة مساءً، كما صرَّح فلين للشرطة. بعبارةٍ أخرى، بعد أن تمَّ الاعتداء على ويدر...

- كنتُ أعلمُ حتى في ذلك الحين أن هناكَ شيئًا غير صحيح، وأن لورا كذبت. عادةً ما كانت واثقة جدًّا بنفسها، لكن في تلك الليلة كانت مذعورة، هذه هي الكلمة. كنت قد استيقظتُ للتوِّ، ولا أطيقُ الانتظار للعودة إلى السرير، لذا لم أرغب في سماعِ كل تفاصيل قصتها. وكنَّا قد ابتعدنا عن بعضنا بعضًا، ولأكن صادقة، لم أعُد أرغبُ في صداقتها. فهيأتُ لها سريرًا على الأريكة، وعُدتُ إلى النوم، بعد أن أخبرتُها أنني سأغادرُ مبكرًا في اليومِ التالي. لكن

عندما استيقظتُ في السابعة صباحًا، كانت قد غادرت بالفعل. ووجدتُ ملاحظة تقولُ: إنها ذهبت إلى تيموثي.

غادَرَت في الثامنة صباحًا تقريبًا، وعرفتُ بما حدث في أثناء الاستماعِ إلى الراديو في سيارة صديقي. طلبتُ منه أن يتوقَّف على جانب الطريق السريع -كنا على طريق جيرسي- وأتذكَّر أنني خرجتُ، وتقيأت. تساءلتُ على الفور ما إذا كانت لورا متورِّطة بطريقةٍ ما في مقتل البروفيسور. أراد صديقي أن يأخذني إلى المستشفى. وحاولتُ أن أهدأ، وبعدَ أن عُدت إلى المنزل، قضيتُ العطلةَ في السرير. اتصلت بي الشرطة بين عيد الميلاد، ورأس السنة الجديدة، وعُدت إلى نيو جيرسي، وأدليتُ بشهادتي. أخبرتهم أن لورا كانت معي في ذلك اليوم، من وقت الغداء حتى صباحِ اليوم التالي. لماذا كذبتُ من أجلها، مع علمي بأنها قد تكونُ متورِّطة في شيءٍ خطيرٍ للغاية؟ لا أعرف. أعتقدُ أنها سيطرت عليَّ، ولم أكُن حقًّا قادرةً على رفضِ أيِّ طلبٍ لها.

- هل تحدَّثتِ إليها بعد ذلك؟

- تناولنا القهوة معًا، بعدَ أن استجوبتني الشرطة مباشرةً. استمرَّت في شُكري، والتأكيد على أنها لا علاقة لها بالجريمة. أخبرتني أنها طلبت مني أن أشهد حتى لا تتعرَّض لمضايقاتٍ من الشرطة والصحفيين. وفوق ذلك، قالت لي: إن البروفيسور قد قَبِل أخيرًا مساهمتها في الكتاب، ووعدَ بذِكر اسمها كمؤلفة مشاركة، وهو ما بدا لي غريبًا بعضَ الشيء. لماذا سيُغيِّر رأيهُ فجأة، قبل أن يُقتل؟

- إذًا لم تصدقيها؟

- لا، لم أصدِّقها. لكنني كنتُ في حالةٍ نفسية، وجسدية سيئة، وكل ما أردتهُ هو العودة إلى البيت، ونسيانُ كل شيء. قررتُ أن آخذ إجازة، ولم أعُد إلى الدراسة حتى خريف عام 1988، لذا لم تكُن

لورا هناك عندما عُدت. اتصلت بي عدة مرات في المنزل خلال تلك الفترة، لكنني لم أرغب في التحدُّث إليها. كذبتُ على والديَّ بأنني مررتُ بعلاقةٍ فاشلة، وذهبتُ إلى العلاج النفسي. وفي السنة التالية، عندما عُدتُ إلى برينستون، كانت قصة مقتل ويدر قد أصبحت أخبارًا قديمة تقريبًا، ولم يتحدَّث عنها أحد. لم يسألني أحدٌ عن القضية بعد ذلك.

- هل رأيتها، أو تحدثتِ إليها مرة أخرى؟

قالت: «لا، لكن في العامِ الماضي عثرتُ على هذا عن طريقِ المصادفة».

فتحت حقيبتها، وأخرجت كتابًا بغلافٍ صلب، دفعتهُ نحوي على الطاولة. كان للبروفيسور لورا ويستليك. كانت هناك صورة بالأبيض، والأسود للمؤلِّفة على ظهرِ غُلافِ الكتاب فوق سيرة ذاتية قصيرة. نظرتُ إلى الصورة، ورأيتُ أنها لم تتغيَّر كثيرًا على مدار العقدين الماضيين: نفس الملامح الشائعة، ممزوجة فقط بتعبير عن العزيمة، جعلها تبدو ناضجة جدًّا.

- عثرتُ على هذا الكتاب في مكتبة مركز إعادة التأهيل الذي أقمتُ فيه. نُشِر في عام 1992. تعرَّفتُ على الصورة على الغلاف، وأدركتُ أنها غيَّرت اسمها. كان هذا كتابها الأول. وكما اكتشفتُ لاحقًا، استُقبِلَ بإشادةٍ جماعية، وقد بُنيت مسيرتُها المهنيَّة بالكامل على أساسه. ليس لديَّ شك أنه الكتاب الذي كان ويدر ينوي نشره.

قلت: «كنت أتساءل لماذا لم يُنشر هذا الكتاب؟ يبدو أن المخطوطة قد اختفت بعد القتل».

- لستُ متأكدة مما إذا كان له علاقة بمقتلِ البروفيسور أم لا، لكنني افترضتُ أنها سرقت المخطوطة التي كانت تتحدَّثُ عنها قبل القتل. وربما تلاعبت بذلك الرجل الذي يُدعى فلين ليرتكب الجريمة، وسرقت الكتاب. لذلك فعلتُ شيئًا آخر...

ثم مسحت شفتيها بمناديلَ أخذتها من الحامل على الطاولة، وتركت آثارًا لأحمرِ الشفاه، وتنحنحت.

- عرفتُ عنوانَ فلين. لم يكُن الأمرُ سهلًا، لأنه كانَ يعيشُ في المدينة، وهناك الكثيرُ من عائلةِ فلين في هذه المدينة، لكنني كنتُ أعلم أنه تخصص في اللغة الإنجليزية في برينستون، وتخرج في عام 1988، لذا في النهاية تقفيتُ أثره. وضعتُ نسخةً من الكتابِ في ظرف، وأرسلتهُ إليه، دون أي رسالة مرفقة.

- ربما لم يكن يعلم أن لورا سرقت مخطوطة ويدر، وما زال يعتقدُ أنه مثلث حب انتهى بشكلٍ سيئ للجميع.

- هذا ما أعتقدُه أيضًا، ثم اكتشفت أن فلين قد تُوفِّي. لا أعرفُ إذا كان إرسالُ الكتاب له قد دفعهُ لوضعِ القصةِ بالكامل على الورق، لكن ربما كانت هذه طريقتهُ في الانتقامِ من لورا، لأنها كذبت عليه.

- لذا، خرجت لورا بلا عقاب، بفضلٍ منكِ، ومن ريتشارد الذي تستَّرَ عليها.

أعلمُ أن هذا يبدو قاسيًا، لكنهُ صحيح.

- كانت من النوعِ الذي يعرفُ دائمًا كيفَ يستفيدُ من مشاعرِ الأشخاص الذين يهتمُّون بها. على أي حال، افعل ما تشاء بالمعلومات التي أعطيتك إياها، لكنني غير مستعدَّة لتقديم أي تصريح رسمي.

قلت: «لا أعتقدُ أن هذا سيكونُ ضروريًّا، ما دام أن بقيَّة مخطوطة فلين مفقودة، فالأمرُ برمَّتهِ مجرَّد فقاعة».

قالت: «أعتقدُ أن هذا أفضل، إنها قصة قديمة لم تعد تُهِمُّ أحدًا. لأصدُقكَ القول، حتى أنا لا تهمُّني. لديَّ قصصي الخاصة لأفكِّر فيها في السنواتِ القادمة».

فارقتني سارة هاربر، وفكَّرتُ كم كان مثيرًا للسخرية أنني ربَّما تمكَّنتُ من فك خيوط هذه القضية بمجرد أن توقفت عن كونها مهمة بالنسبة لي.

لم أهتَم بالتأكُّد أن تسود العدالة. لم أكُن يومًا متعصِّبًا في خدمةِ ما يُسمَّى الحقيقة، وكنتُ ذكيًّا بما يكفي لأعرف أن الحقيقة والعدالة لا تعنيانِ دائمًا الشيء نفسه. على الأقل في هذا الصَّدد، كنتُ أتَّفق مع سام- معظمُ الناس يفضِّلونَ القصص البسيطة، واللطيفة بدلًا من الحقائق المعقَّدة، وغير المفيدة.

جوزيف ويدر توفي قبل نحو ثلاثين عامًا، وريتشارد فلين مدفون هو الآخر. وربما بَنَت لورا باينز مسيرتها على الأكاذيب، وربما على جريمة قتل. لكن الناس دائمًا ما قدَّسوا أناسًا من هذا الصنف، وسمَّوهم أبطالًا، نظرة سريعة على كتاب تاريخ تكفي لإثباتِ ذلك.

في طريقِ العودة إلى المنزل، تخيَّلتُ لورا باينز، وهي تفتِّشُ أرجاءَ المنزل بحثًا عن المخطوطة، بينما كان ويدر مُلقًى بينَ دمائه على الأرض. ماذا كان يفعلُ ريتشارد فلين، الذي ربَّما حملَ مضربَ البيسبول، في تلك الأثناء؟ هل كان لا يزالُ هناك، أم أنه رحل؟ هل كان يحاول التخلُّص من أداةِ الجريمة؟ لكنَّ إذا فعل ذلك من أجل لورا، لماذا هجرته، وفي هذه الحالة، لماذا استمرَّ في التستُّر عليها؟

أو ربما تلك السلسلة من الأحداث موجودة في ذهن سارة هاربر فحسب، فبينما صديقتُها السابقة تبني لنفسها مسيرة مهنية مذهلة، كانت المرأة تهوي للأسفل خطوة تلوَ الأخرى، كم منَّا يستطيعُ أن يكون سعيدًا حقًّا بنجاح الآخرين، ولا يحلمُ سرًّا بجعلهم يدفعونَ الثمن عاجلًا أم آجلًا مقابل ما حصلوا عليه؟ ألقوا نظرة على الأخبار يا جماعة.

لكن لم يعُد لتساؤلاتي أهمية بعد الآن، مثلها مثل كل التفاصيلِ الأخرى. ربما أحببتُ أن أصدِّق أن لورا باينز، تلك المرأة الباردة والحسابية قد قامت بواحدة من حيَل البلياردو، حيث تضرب كرة واحدة، والتي بدورها تضربُ كرة أخرى، ثمَّ أخرى. كان ريتشارد فلين، وتيموثي ساندرز، وجوزيف ويدر مجرد كرات بلياردو بالنسبةِ لها، تتصادمُ مع بعضها بعضًا حتى تُحقِّق هدفها.

وأكثرُ ما يثير السخرية أن رجلًا مثل ويدر، وهو الذي كان يستمتعُ كثيرًا بالتنقيبِ في عقول الناس، انتهى به الأمر إلى الوقوعِ في موتٍ مُحتَّم على يد إحدى تلامذته. في هذه الحالة، استحقَّت لورا باينز حقًّا نجاحها اللاحق، إذا كانت قد أثبتت أنها أكثر مهارة في تشريحِ العقل البشري من مُعلِّمها.

في اليوم التالي، التقيتُ بيتر في مقهى أبراسيو في إيست فيليدج.

سألني: «كيف الحال؟ تبدو متعبًا، يا رجل! هل حدث شيءٌ ما؟».

أخبرتهُ أنني انتهيتُ من المهمَّة التي أوكلها إليَّ، وسلَّمتهُ ملخَّصًا مكتوبًا. وضعَ الظرف في حقيبته السخيفة دون أن يُعِيره اهتمامًا كبيرًا. أعطيته أيضًا نسخة من كتاب لورا باينز.

لم يسألني أي شيءٍ آخر، وكان يبدو كأن ذهنه منشغل بأمورٍ أخرى. لذا بدأتُ الحديث، وأخبرتهُ عن نسخة محتملة مما حدث في خريف،

وشتاء عام 1987. استمع إليَّ بلا مبالاة، وهو يلعبُ بكيسٍ من السكر، ويحتسي رشفة من الشاي بين الحينِ والآخر.

قال أخيرًا: «ربما تكونُ محقًّا، ولكنك تُدرك مدى صعوبة نشر شيءٍ كهذا دونَ أيِّ دليل قوي، أليس كذلك؟».

قلت -وبدت عليهِ علاماتُ الارتياح-: «أنا لا أتحدَّثُ عن نشر شيء، قارنتُ الفصل في الاقتراح الذي أرسله ويدر إلى أولمان آند ليمبكين مع الفصل الأول في كتاب لورا. إنهما متطابقانِ تقريبًا. من الواضح أن هذا قد يكونُ دليلًا أنها سرقت المخطوطة من البروفيسور، أو أنه قد يظهرُ أنهما عملا معًا على الكتاب فحسب، وأن مساهمتها كانت مهمَّة جدًّا. في كل الأحوال، لن يكونَ هذا دليلًا على أنها قتلتهُ من أجلِ سرقة مخطوطته، بالتواطؤ مع ريتشارد فلين. شهادة مكتوبة من فلين كانت ستعني شيئًا آخر».

قال بيتر: «أجدُ صعوبةً في تصديقِ أن الرجل الذي أرسل لي المخطوطة كان قاتلًا. لا أقولُ: إنه ليس بإمكانه ارتكابُ الجريمة، لكن...».

نظر بعيدًا.

- هل تعتقدُ أن مخطوطتهُ كانت اعترافًا؟

- حسنًا، أجل. لم يكُن أمامهُ الكثير من الوقت ليعشه، ولم يهتمَّ كثيرًا بالسمعة التي سيتركُها، ولم يكن لديه ورثة. ربما كذبت عليه لورا باينز، وحرَّضتهُ على قتلِ ويدر، وبينما تبني مسيرة مهنية على نتيجة الجريمة التي ارتكبها، تركتهُ يواجه العواقب بمفرده. عندما استلم الكتاب، وأدرك ما كان على المحك، أدرك ما جرى في تلك الأشهر. لقد دمَّرَ حياتهُ من أجل كذبة. لقد تم خداعهُ من البداية

إلى النهاية. ربما في ذلك الوقت، وعدتهُ بأنها ستعودُ إليه، وأن انفصالهما مجرد إجراء احترازي حتى لا تثير مزيدًا من الشكوك.

قال بيتر، عائدًا إلى الموضوع: «حسنًا، إنها قصة مثيرة، لكن المخطوطة اختفت، ولا يبدو أنك مستعد لكتابة كتاب».

- أجل، هذا هو الوضع. يبدو أنني أضعتُ وقتك.

- لا مشكلة، بصراحة: لا أعتقدُ أن أيَّ ناشر سيكونُ مستعدًّا لتحمُّل كل التعقيدات القانونية لنشرِ مشروعٍ كهذا. يبدو أنَّ محامي لورا باينز سيقطِّعونهم إربًا.

- أوافقكَ يا رجل. شكرًا على القهوة.

عُدتُ إلى المنزل، وجمعتُ جميعَ الوثائق المتعلِّقة بالتحقيق الذي قمت به في الأسابيع الماضية، وضعتها في صندوق، ورميتُها في خزانة. ثم اتَّصلتُ بدانا أولسن، وأخبرتُها أنني لم أتمكَّن من اكتشافِ أي شيءٍ جديد، وأنني اتفقتُ على التخلِّي عن الأمرِ برمَّته. قالت: إنها تعتقدُ أن هذا هو الأفضل: يجبُ تركُ الموتى ليرتاحوا في سلام، والأحياء ليواصلوا حياتهم. فكَّرتُ في نفسي أن كلماتها كانت تبدو ككتابةٍ على ضريح الراحل فلين.

في تلك الليلة، زُرت العم فرانك في الجانب الشرقي العلوي، وأخبرته القصة بأكملها. هل تعرف ماذا قال بعد أن استمع إليَّ بعناية لمدة ساعة تقريبًا؟ أنني أهدرتُ أكثر قصة مثيرة سمعها على الإطلاق. لكنه دائمًا ما يتحمَّسُ بإفراط.

تحدَّثنا كثيرًا، وشربنا بعض البيرة، وشاهدنا مباراة كرة على التلفزيون. وحاولتُ نسيانَ سام، وكل تلك القصص عن الكتب المفقودة. يبدو أن ذلك نجح، لأنني في تلك الليلة نمتُ كطفل.

بعد شهرين، اتصل بي زميل سابق من «البوست» -والذي انتقلَ إلى كاليفورنيا- وعرض عليَّ وظيفة ككاتب سيناريو لمسلسل تلفزيوني جديد. قبِلت، وقرَّرتُ تأجير شقتي قبل التوجُّه إلى الساحل الغربي. وخلال محاولتي إخلاءَ بعض المساحة في الخزائن، عثرتُ على الأوراقِ المتعلِّقة بقضية ويدر، واتصلت بروي فريمان لأرى إذا كان يريدها. فأخبرني أنه لديه أخبار.

قال: «شكرًا لتفكيرك بي، كنتُ على وشكِ الاتصال بك أيضًا، يبدو أننا حصلنا على اعتراف».

توقَّف قلبي عن الخفقان.

- ماذا تعني بذلك؟ كانت لورا باينز، أليس كذلك؟ هل اعترفت؟
- حسنًا، على حدِّ علمي لم تكن هي. اسمع، لماذا لا تأتي لتناول فنجان من القهوة؟ أحضر الأوراق، وسأُخبركَ القصة كاملة.
- بالطبع، متى؟
- متى شئت، أنا في المنزل، ولن أذهب إلى أيِّ مكان. هل تذكُر أين مكاني؟ حسنًا، من فضلك لا تنسَ تلك الأوراق، لا يزالُ هناك شيءٌ ما يؤرِّقني.

الجزء الثالث

روي فريمان

الذي يذكُر بوضوح الأشياء التي رآها،
والأمورَ التي سمعها من الآخرين. لأنَّ هذا الكتاب
سيكونُ كتابًا صادقًا.

ماركو بولو، «الرحلات»، الكتاب الأول، مقدمة 1

واحد

اتصل بي مات دومينيس في واحدة من تلك المساءات التي تُشعِركَ بالحسرة أنَّك لا تملكُ قطة. بعد أن أنهينا الحديث، خرجتُ إلى الشرفة الأمامية وبقيت، هناك لبضع دقائق محاولًا ترتيب أفكاري. بدأت السماءُ تُظلِم، وتلألأت بضعُ نجماتٍ في السماء، وصوتُ حركة المرور على الطريق تردَّد عبر المسافة مثل طنين سربٍ من النحل.

عندما تكتشفُ الحقيقة أخيرًا حول قضيةٍ شغَلَتك لفترة، فإن الأمر يشبهُ فقدانَ رفيقِ سفر. رفيقٌ كثيرُ الكلام، فضولي، وربما غيرُ مهذَّب، لكنَّكَ اعتدتَ وجوده عند استيقاظك صباحًا. وكانت هذه حالتي مع قضية ويدر خلال الأشهر القليلة الماضية. لكن ما أخبرني به «مات» أغلقَ الباب أمام جميعِ الفرضيَّات التي وضعتها خلال الساعات الطويلة، التي قضيتُها في المكتبِ الصغير، الذي جهزتهُ في غرفة النوم الاحتياطية. وأخبرتُ نفسي أن الأمور لا يمكن أن تنتهي بهذا الشكل، وأن هناكَ شيئًا لا يزالُ غير متناسق، حتى لو كان كلُّ ما قاله صديقي صحيحًا.

عُدت إلى الداخل، واتصلتُ بـ «مات» مرة أخرى، وسألته إن كان بإمكاني التحدُّث إلى فرانك سبول، الذي اعترفَ بقتلِ البروفيسور

جوزيف ويدر، قبل بضعة أشهر من موعدِ إعدامه. عَمِلَ «مات» منذُ فترة طويلة في مركز إصلاحية بوتوسي، وأسداهُ المدير معروفًا بعدما اكتشف أن طلب الزيارة جاء من محقق عَمِلَ على القضية في أواخر الثمانينات. أردتُ أن أرى الرجل بعيني، وأسمع بأذني قصَّته حول جريمة القتل في ويست ويندسور. لم أقتنع أنه يقول الحقيقة، اعتقدتُ أنه ربما يحاول فقط لفت الانتباه، بعدما سمع أن كاتبًا من كاليفورنيا أراد أن يضعَ اسمه في كتاب. قُتِلَ ويدر فورَ إطلاق سراح سبول من مؤسسة عقلية، وكان يتجوَّلُ في نيوجيرسي، لذا من المحتمل أنهُ قرأ عن الجريمة في الصحف في ذلك الوقت.

زارني جون كيلر، وجلب معه جميع الأوراقِ التي بحوزته حول القضية. ولم يعلَم أنني بدأت البحث مجددًا في جريمة قتل ويدر بعد محادثتنا في الربيع، وتحدثنا عن اعتراف سبول ونحن نتناول القهوة. وأخبرني أنه فَقَد حبيبته بسبب تلك القصة.

قال لي: «أنا لا أومن بالشعوذة، لكنْ هناك شيءٌ كالنَّحس يحيط بهذه القضية، لذا عليكَ أن تكونَ حذرًا. أنا سعيدٌ أنني تركتها، ولا أريدُ أن أعود للانخراط في هذه الأمور مرة أخرى، لا الآن، ولا في المستقبل. على أي حال يبدو أن الأمر قد انتهى، أليس كذلك؟».

أجبتهُ بأن الأمر يبدو كذلك، وتمنيتُ له التوفيق في وظيفته الجديدة. لكنني لم أكن متأكدًا إطلاقًا أن الحقيقة حول قضية ويدر قد ظهَرت أخيرًا. لذلك، بعد أسبوعين، عندما اتصل بي «مات» وأخبرني أن كلَّ شيءٍ تمَّ ترتيبه، حجزتُ تذكرة طائرة عبر الإنترنت لليوم التالي، وحزمتُ حقيبة صغيرة.

أخذتني سيارةُ الأجرة في الساعة الخامسة صباحًا، وبعد نصف ساعة وصلتُ المطار. وكان «مات» في انتظاري في سانت لويس، مستعدًّا ليأخذني إلى بوتوسي.

خلال الرحلة، جلستُ بجوار بائع، من النوع الذي -حتى لو كان على شفا الإعدام- سيحاولُ إقناع فرقة الإعدام بشراء مكنسة كهربائية جديدة. قدَّمَ نفسه باسم جون دوبتشيك، ولكنه لم يلحَظ إلا بعد عشر دقائق أنني كنتُ منشغلًا بصحيفتي لدرجة أنني لم أستمع إليه حقًّا.

قال: «أراهن أنَّك مُعلِّم في مدرسة ثانوية».

- ستخسرُ الرهان. لستُ كذلك.

- أنا لا أخطئُ أبدًا، روي. هل تدرِّس التاريخ؟

- آسف، لم تقترب حتى.

- لحظة، وجدتها: الرياضيات.

- لا.

- حسنًا، استسلمت. أعرفُ مكانًا هادئًا قرب المطار، وسأشتري لك فطورًا. أراهن أنَّك لم تتناول الفطور هذا الصباح. لا أحبُّ الأكل وحدي، لذا ستكونُ ضيفي.

- شكرًا، لكن صديقًا سيأتي لاصطحابي.

- حسنًا، ولكنك لم تُخبرني ما هي وظيفتُك.

- أنا شرطي سابق، محقِّق متقاعد.

- واو، لم أكُن لأتوقع ذلك. هل تعرف النكتة عن ثلاثة ضباط شرطة يدخلونَ إلى حانة؟

أخبرني إحدى النِّكات الباهتة، ولم أفهم مغزاها.

بعد أن هبطنا، أعطاني بطاقة عمله، والتي كانت مبهرجة لدرجة أنها بدت مثل بطاقة عيد الميلاد الصغيرة، وقال لي بتفاخر: إنه يمكنه الحصول على أيِّ شيء قد أفكِّرُ فيه؛ كلُّ ما عليَّ فعله هو الاتصال به، وإخبارهُ بما أحتاجه. وبينما أسيرُ نحو المخرج، رأيتهُ يتحدَّثُ إلى فتاةٍ ترتدي زيَّ مغنية ريفية، بنطال جينز من ماركة «ليفايز»، وقميصًا من القماش المنقوش، وسترة جلدية، وقبَّعة رُعاة البقر فوق شعرها الأشقر الطويل.

انتظرني «مات» بجانب كُشك للصحف. وخرجنا من المطار إلى مقهى قريب. إذ لم يكن موعدي في مركز إصلاحية بوتوسي سيحين قبل ساعتين.

كنَّا زملاء لثمان سنوات في قسم شرطة بلدية ويست ويندسور. وفي أوائل التسعينات، استقرَّ مات في ميزوري، لكننا ظللنا أصدقاء، وتحدَّثنا عبرَ الهاتف بين الحينِ والآخر، لنُطلعَ بعضنا على المستجدَّات. وزرته مرتين، أو ثلاثًا، وخرجنا للصيد معًا. عمِلَ مات في مركز إصلاحية بوتوسي منذ أحد عشر عامًا، لكنه كان على وشك التقاعد. بعد أن قضى حياتهُ عازبًا، وتزوَّج قبل عامين فقط من زميلة تدعى جوليا، ودعوني إلى حفل زفافهم. ولم نلتقِ منذ ذلك الحين.

بينما أسكُب كيس سكر في كوب قهوة بحجم وعاء حساء، قلت له: «يبدو أن الزواج يناسبك. تبدو أصغر سنًّا».

ابتسم ابتسامةً حزينة. دائمًا ما يُعطيك انطباع شخصٍ مضطهد، ومقتنع بأن كارثة على وشك أن تحلَّ به. وبما أنه طويلَ القامة وضخم البنية، فقد لقَّبناهُ في القسم بـ «فوزي»، نسبةً إلى الدب في عرض «ذا مابت شو». كان لقبًا ودودًا، وليس ساخرًا، الجميع أحبُّوا «مات دومينيس».

- لا يمكنني التذمُّر. جوليا رائعة، وكل شيء يسيرُ بشكلٍ جيد. لكنني الآن في السِّن التي كلُّ ما أريدهُ هو تقاعد جيِّد، لأستمتع بسنواتي الذهبية. فقبل أن أتداركَ الأمر قد تُصيبني جلطة، وأتبوَّل على نفسي مثل طفل. أريدُ الذهاب في رحلة إلى لويزيانا، أو قضاء إجازة طويلة في فانكوفر. ربما نذهبُ إلى أوروبا، من يدري؟ لقد سئمتُ من مراقبةِ أولئك الحمقى طوال الوقت. لكن جوليا تقولُ: إنه علينا الانتظار.

- لقد تقاعدتُ منذ ثلاث سنوات، وباستثناء رحلة إلى سياتل عندما وُلِدت حفيدتي، ورحلتين أخريين إلى هنا، لم أذهب إلى أي مكان، يا صديقي.

- حسنًا، أفهمُ ما تقصده. ربما لن أذهب إلى لويزيانا، أو فانكوفر البعيدة. لكنني أرغبُ في الاستيقاظ في الصباح، لأشرَب قهوتي، وأقرأُ صحيفتي دون أن أعرف أنني سأقضي بقية اليوم مع سجناء في صندوق أسمنتي لعين. بالمناسبة، كيف حال ديانا وتوني؟

ديانا هي زوجتي السابقة التي انتقلت إلى سياتل بعد الطلاق، وتوني ابننا، الذي على وشك إكمال الثامنة والثلاثين. كان واضحًا أن توني يلومُني على الطلاق، ولم يتوقَّف قط عن انتقادي بسببه. دائمًا ما استخدم عبارة «لقد دمَّرت كل شيء». أعلم أنهُ محق، وأنني بالفعل دمَّرت الأمور. لكنني أحبُّ فكرة أن الناس يجب أن يسامحوا الآخرينَ أحيانًا. من جانبي، شعرتُ أنني دفعتُ ثمنًا باهظًا لغبائي في ذلك الوقت، وعشتُ وحدي لمدة تقارب الثلاثينَ عامًا.

تزوَّجَ توني قبل ثلاثِ سنوات، وحفيدتي إيرين في عُمر السنة والنصف. رأيتها مرة واحدة فقط، بعد ولادتها مباشرةً.

أخبرتُ «مات» ببعض القصص المضحكة عنها، والتي سمعتُها من ديانا، لكنهُ غيَّر الموضوع فجأة.

- ما رأيك فيما حدث مع ذلك الرجل، فرانك سبول؟ بعد كل هذه السنوات...

- تصادف أن تواصلَ معي صحفي منذ نحو ثلاثة أشهر بشأن نفس القصة، لذا بدأتُ أراجعُ القضية مرة أخرى.

- يا لها من مصادفة...

- ما الذي دفعه ليفشي الأسرار فجأة؟ كم بقيَ له قبل تنفيذ الحكم؟

- ثمانية وخمسونَ يومًا. لكن قبل ثلاثين يومًا من الحقنة سيُنقَل إلى سجن بون تير، وهو المكان الذي تُنفَّذ فيه الإعدامات في هذه الولاية؛ إنه يبعُد قرابة نصفَ ساعة من هنا. ما الذي دفعه لذلك؟ كما أخبرتك عبر الهاتف، زارهُ شخصٌ من كاليفورنيا، بروفيسور يكتبُ كتابًا عن العقل الإجرامي، أو شيء من هذا القبيل. كان الرجل مهتمًّا بكيفية تحوِّل سبول إلى قاتل. المعروف حتى ذلك الحين أن سبول ارتكبَ جريمتهُ الأولى في عام 1988، في مقاطعة كارول بولاية ميزوري، عندما طعنَ رجلًا مسنًّا أخطأَ في إيصاله على طريق 65 السريع. كان عمره ثلاثة وعشرين عامًا في ذلك الوقت، وقد قضى عامين في مستشفى ترنتون للأمراضِ النفسية، في نيو جيرسي،

بعد اعتقالهِ بسبب عملية سطو، إذ تمَّ إعلان أنهُ غير سوي عقليًّا. لم يكن لدى الرجلِ شيء ليخسره- لقد كان في السجن منذ عام 2005، إذ رفضت المحكمة العليا في ميزوري استئنافهُ قبل شهرين، ونيكسون حاكمُ الولاية يفضِّلُ أن يضع مسدسًا في فمه على أن يعفو عن مخلوقٍ

مثله. لقد قرَّر ترتيبَ أموره، لكي يُسجِّل التاريخ الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة عن حياته العظيمة... أعتذر للحظة من فضلك.

نهض بجسدهِ الضخم من بين الكرسي والطاولة، واتَّجه نحو الحمام. شعرتُ بالتعب، وطلبت من النادلة أن تحضر لي مزيدًا من القهوة. ابتسمت لي وهي تصبُّها. كُتِبَ اسم «أليس» على شارتها، وتبدو في نفس عمر ابني. نظرتُ نحو الساعة على شكل شخصية «نينجا تيرتل» فوق الحائط- كان لا يزال أمامنا الكثير من الوقت.

تابع «مات» بعد أن عاد إلى الطاولة، وسكبت له النادلة فنجانًا آخر من القهوة: «كما كنتُ أقول، قرر سبول أن يقنع هذا الرجل -من كاليفورنيا- بأنَّ كل شيءٍ بدأ بسبب شيء مجنون فعله البروفيسور ويدر به منذ سنوات».

- هل تقصد أنه يقول: إنه قتل ويدر، لكن الضحية هو الملام؟

- حسنًا، الأمرُ مُعقَّد قليلًا. كما أخبرتك، عندما كان في العشرين من عمره، حدثت مشادَّة بينه وبين بعض الأشخاص، وسرقَ بعضَ المالِ من أحدهم، وضربهُ بعُنفٍ للغاية. طلب محاميهِ إجراءَ اختبارٍ نفسي، والذي أجراهُ ويدر. واعتُبرَ سبول غير مؤهَّل للمثول أمام المحكمة، وأودِعَ في مستشفى. وطمأنه محاميه أنه في غضون شهرين، أو ثلاثة سيطلب من ويدر اختباره مرة أخرى، وسيُفرَجُ عنه. لكنهُ بقيَ محتجزًا لمدة عامين، لأن ويدر عارض إطلاق سراحه.

- كما قلت، راجعتُ القضية مؤخرًا، بعد أن تواصل معي ذلك الصحفي. كان هذا خيطًا وضعتهُ في الاعتبار في ذلك الوقت: احتمالُ الانتقام نتيجةَ القضايا التي تعاملَ معها ويدر بصفتهِ خبيرًا. لكن اسم فرانك سبول لم يظهر قط.

- من يدري، ربما لأنه كان مجرد محتالٍ صغير في ذلك الوقت، فتى يبلغُ من العمر واحدًا وعشرين عامًا؟ لم تعتقد أنه كان مهمًّا. لكنه سيخبرك بكل شيء. لا يهمُّني القصص التي يرويها الحمقى مثله. على أي حال، أنا سعيدٌ لأنك أتيت. هل ستبقى في منزلنا الليلة؟

- أنا في خضمِّ إصلاحِ منزلي، وأريدُ الانتهاءَ قبل أن تأتي الأمطار. في وقتٍ آخر، يا صديقي. هل نُغادر؟

- لدينا الكثير من الوقت، استرخِ. حركةُ المرور على الطريق السريع I-55 خفيفة في هذا الوقت. سيستغرقُ الأمر ساعة ونصفًا للوصول إلى هناك.

تنهَّد بعُمق.

- يشكو سبول من إرسالِهِ إلى مستشفى الأمراض العقلية حينما كان عاقلًا، ولكن عادةً ما يكونُ الأمرُ بالعكس. هل تعلم أن ثُلث الرجالِ المسجونين في السجون ذات الحراسة المشدَّدة ليسوا على ما يرام عقليًّا؟ قبل شهرين كنت في شيكاغو، في تدريبٍ حول الإجرام. كان هناك جميع أنواع الشخصيات المهمة من الوكالات في واشنطن. يبدو أنه بعد دورة استمرت لعقدين تراجعت خلالها معدلات الجريمة، دخلنا دورة معاكسة. بما أن مستشفيات الأمراض النفسية أصبحت مزدحمة، فكل مجنون لديهِ فرصة جيدة لأن يُلقى به في السجن بين النزلاء العاديين. وأمثالي، الذين يحرسونهم، عليهم التعامل مع نماذج مثل هذه كل يوم.

نظر إلى ساعته.

- هل ننطلق؟

بينما كنا نسيرُ عبر الطريق السريع، بدأت أفكِّر في فرانك سبول، الذي درستُ قضيتهُ قبل أن أتوجَّه إلى سانت لويس. كان واحدًا من أخطرِ القتلة على قائمةِ الإعدام. لقد قتلَ سبعةَ أشخاص –ثمانية،

إذا صحَّ أنهُ قتلَ ويدر أيضًا– في ثلاث ولايات قبل أن يقبضوا عليه. كما ارتكبَ أربع جرائم اغتصاب، وعددًا لا يُحصى من السَّرقات. آخر ضحيتين له كانتا امرأةً تبلغُ من العمرِ خمسة وثلاثين عامًا، وابنتها البالغة من العمر اثني عشر عامًا. لماذا فعل ذلك؟ قال: إن المرأة أخفت عنهُ بعض المال. كان سبول قد التقاها في حانة قبلها بشهرين، وعاشا معًا في مقطورة بجانبِ النهر.

كما قال مات، اكتشفَ المحققون لاحقًا أن فرانك سبول ارتكبَ أول جريمة قتل معروفة له في عام 1988، عندما كان عمره ثلاثة وعشرين عامًا فقط. لقد وُلدَ ونشأَ في مقاطعة بيرجن، نيو جيرسي، وارتكبَ أول جريمة خطِرة له في عمر الحادي والعشرين. أُطلِقَ سراحهُ من مستشفى الأمراض النفسية بعد عامين، وتوجَّهَ إلى الغربِ الأوسط، حيثُ عمل في وظائف متنوِّعة لبعضِ الوقت. كانت أولى ضحاياهُ رجلًا يبلغُ من العمر أربعة وسبعين عامًا من مقاطعة كارول، ميزوري، والذي أوصل سبول في شاحنتهِ على الطريق 65 السريع. الغنيمة؟ بضع دولارات، وسترة جلدية قديمة وزوجٌ من الأحذية التي صادف أنها مقاسه.

قرَّر بعد ذلك الذهاب إلى إنديانا، حيث ارتكب جريمته الثانية. ثم انضمَّ إلى عصابة من ماريون، متخصصة في السطو. بعد أن تفرَّق أفرادُ العصابة، عاد إلى ميزوري. ومن المثيرِ للاهتمام أنه لمدة ثماني سنوات بعد ذلك لم يرتكب جريمة واحدة، وعمل في سانت لويس في مطعم بيتزا. ثم انتقلَ إلى سبرينغفيلد، وعمل في محطة وقود لمدة ثلاث سنوات أخرى. لكن فجأة بدأ من جديد. قُبِضَ عليه في عام 2005، بعد أن أوقفتهُ دورية روتينية على الطريق السريع.

في وقتِ مقتل ويدر، كنت في نهاية طلاقي، ووجدتُ نفسي أعيشُ وحيدًا في منزلٍ أكبر بكثير مما أحتاج. وكأي مدمن كحوليات حقيقي،

استخدمتُ ذلك كعُذر لسكبِ المزيد من الزجاجات في حلقي، والبكاء على كتف أي شخص مستعد للاستماع. وبآخر ما تبقّى لديَّ من الشفافية، حاولتُ القيام بعملي، لكنني دائمًا ما افترضتُ أنني أفسدتُ قضية ويدر، إلى جانب بعض القضايا الأخرى في تلك الفترة. الرئيس -إيلاي وايت- كان رجلًا طيبًا جدًّا، لو كنتُ مكانهُ لطردتني من الخدمة بتوصياتٍ شديدة السوء، لدرجة أنني لن أتمكَّن حتى من العثور على وظيفة كحارس ليلي في مركز تجاري.

بينما نسيرُ عبر السهول على الطريقِ السريع I-55، فتح «مات» النوافذ، وأشعل سيجارة. إذ كان الصيفُ في بدايته، والطقس جميل.

سأل وهو يتحدَّث بصوتٍ عالٍ ليكون مسموعًا فوق صوت دون ويليامز، الذي يتذمَّر في محطة موسيقى الريف عن فتاةٍ لم تعرفهُ قط: «متى كانت آخر مرة زرت فيها السجن؟».

قلت: «أعتقدُ أن آخر مرة كانت في خريف 2008، أخذتُ إفادة من رجل في رايكرز، فيما يتعلَّق بقضية عِلمتُ عليها. كان مكانًا سيئًا، يا صديقي».

- هل تعتقدُ أن المكان الذي نحن في طريقنا إليه أفضل؟ كل صباح عندما أبدأُ مناوبتي أشعر برغبة في تكسير شيءٍ ما. لماذا بحق الجحيم لم نصبح أطباء أو محامين؟

- لا أعتقدُ أننا بالذكاء الكافي يا مات! ولم أكُن لأحب تقطيع الناس.

اثنان

كان مركز إصلاحية بوتوسي عملاقًا من الطوب الأحمر، محاطًا بأسوارٍ من الأسلاك الكهربائية الشائكة، يقع في وسط السهول كوحشٍ ضخم عالق في فخ. كان سجنًا شديد الحراسة، حيث يقضي قرابة ثمانمائة سجين أيامهم، إلى جانب مئة حارس، وموظف مساعد. وكانت الأشجار الهزيلة القليلة التي تُحيطُ بموقفِ الزوَّار هي البقعة الوحيدة ذات اللون في هذا المشهدِ الكئيب.

أوقفَ «مات» السيارة، ثمَّ ذهبنا إلى بوابة الموظفين في الجانب الغربي، مررنا عبر ساحة مرصوفة بشرائح حجرية حمراء كالدماء، ثم دخلنا ممرًّا يغوصُ في أعماقِ المبنى. حيًّا «مات» الرجال -بالزي الرسمي- الذين قابلناهم في الطريق، وهم رجالٌ ضخام القامة بوجوهٍ قاسية، شهدوا الكثير.

مررنا عبر جهازِ كشفِ المعادن، ثمَّ جمعنا متعلِّقاتنا الشخصية من الصواني البلاستيكية، ووصلنا إلى غرفة بلا نوافذ، ذات أرضية يكسوها المشمع، حيثُ ثبَّتت بعضُ الطاولات والكراسي في الأرض.

أعطاني ضابطٌ يُدعى جاري موت التعليمات المعتادة، متحدِّثًا بلكنة جنوبية قوية: «اللقاء سيستمرُّ لمدة ساعة بالضبط. إذا أردتَ إنهاءهُ مبكرًا، فأخبر الضبَّاط المرافقين للسجين. يُمنعُ الاتصال الجسدي بأي شكل خلال اللقاء، وأي شيء ترغبُ في إعطائهِ للسجين، أو يرغب هو في إعطائه لك يجب تفتيشهُ أوَّلًا. ستكونُ تحت مراقبة الكاميرا في أثناء اللقاء، بشكلٍ مستمر، وأي معلومات تحصلُ عليها قد تُستخدَم لاحقًا في الإجراءات القانونية».

استمعتُ إلى الخطاب -الذي كان مألوفًا لي بالفعل- ثم غادر، وجلستُ أنا، ومات.

قلت: «إذًا هذا هو مكانُ عملك».

قال بوجهٍ كئيب: «ليس أسعد مكان في العالم. وبفضلك، ضاع أحدُ أيام إجازتي».

- سأشتري لك غداءً جيدًا عندما نخرجُ من هنا.

- ربما يجب أن تشتري لي بعض الشراب.

- إذًا ستشربه وحدك.

وأشار بذقنه نحو الزاوية حيث الكاميرا تنظرُ إلينا، وقال: «يمكنك الإشارة بهذا الاتجاه. جوليا في الخدمة بمركز المراقبة».

وقف وقال: «عليَّ الذهاب. عليَّ التسوُّق قليلًا. سأعودُ بعد ساعة لإخراجك من هنا. كن لطيفًا، وتأكد من ألا يتأذَّى أحد».

قبل أن يغادر، لوَّح للكاميرا، وتخيَّلتُ زوجته جالسة على كرسي تنظر إلى شاشاتِ الفيديو أمامها. كانت امرأة قوية، بطولِ «مات» تقريبًا، وُلدَت، وترعرعت في مكانٍ ما في كارولينا.

انتظرتُ لبضعِ دقائق، ثم سمعتُ صوت طنينِ الباب. دخل فرانك سبول برفقةِ ضابطينِ مسلحين. ارتدى بدلةً رمادية. وعلى الجانب الأيسر من صدره هناكَ بطاقة بيضاء تحملُ اسمه. كانت يداهُ مكبَّلتانِ خلف ظهره، وساقاهُ مقيدتان بسلسلة، مما قصَّر من طول خطواته، وجعلها تقعقعُ كلما تحرك.

كان قصيرًا ونحيفًا، ولو قابلتهُ في الشارع لما نظرت إليه مرتين. لكن الكثير من الرجال الذين ينتهون وراء القضبان، لارتكاب جرائم قتل مروِّعة يبدون مثله– شخص عادي تقريبًا، يشبه ميكانيكيًّا، أو سائق حافلة. قبل الثمانينات كان بإمكانك التعرُّف على المجرمين من خلال الوشوم التي حصلوا عليها في السجن، لكن بعد ذلك بدأ الجميعُ بوشمِ أجسادهم.

جلس سبول على الكرسي المقابل لي، وابتسم كاشفًا عن أسنانٍ صفراء كالبيض المخفوق. كان لديه شاربٌ بلون رملي، يتدلَّى على جانبي فمه ليلتقي بلحية. وكان شبه أصلع، والشعرات القليلة المتبقية على رأسه مبللة بالعرق.

قال أحد الضباط: «ستكون ولدًا مطيعًا، أليس كذلك، يا فرانك؟».

فأجاب سبول دون أن يلتفِت: «وإلا يمكنني توديعُ إطلاق سراحي، أليس كذلك؟ ما رأيك، ماذا سأفعل؟ كيف سأفك الأصفاد اللعينة؟».

فقال الضابط: «انتبهي لألفاظك أيتها الأميرة!». ثم قال لي: «سنكونُ بجوارِ الباب لو احتجتنا. إذا بدأ يتلاعب ستجدنا هنا في ثانية».

ثم خرج الاثنان، وتركوني وحدي مع السجين.

فقلت: «مرحبًا، أنا روي فريمان. شكرًا لموافقتك على التحدُّث معي».

- أنت شرطي؟

- شرطي سابق. أنا متقاعد.

- كان يمكنني القسم إنك شرطي. في عام 97 التقيتُ رجلًا غريبًا اسمه بوبي، هناك في إنديانا. كان لديه كلب اسمه تشيل، يستطيعُ شم رائحةِ الشرطي، حتى لو لم يرتدِ الزيَّ الرسمي، هل تفهم ما أقصده؟ كان كلبًا رائعًا. لم أستطع قط فهم كيف فعلَ ذلك. كان يبدأُ النباح كلما شمَّ رائحة شرطي.

وافقته: «يا له من كلب عظيم».

- أجل... سمعتُ أنك مهتمٌّ بتلك القصة القديمة التي حدثت في نيو جيرسي.

- كنت أحد المحقِّقين في قضية ويدر، البروفيسور الذي تعرَّضَ للضرب حتى الموت.

- أجل، أتذكَّرُ اسمه... هل معك سيجارة؟

لم أدخِّن منذُ خمسة عشر عامًا، لكن بناءً على نصيحةِ «مات» أحضرتُ معي علبة سجائر كاميل. أعلمُ أنه في السجن، تعتبر السجائر وحدة العملة الأساسية بعد المخدرات، والحبوب المنوِّمة. أخرجت العلبة من حقيبتي، وأريتها له، ثم أعدتها.

وقلت: «ستحصلُ عليها بعد أن أغادر. يجب أن يفحصها الرجال».

فقال: «شكرًا. ليس لديَّ أحدٌ بالخارج. ولم أرَ أهلي منذ أكثرَ من عشرين عامًا. لا أعرفُ حتى إن كانوا لا يزالونَ على قيدِ الحياة. بعد أربعة أسابيع سأكونُ ميتًا، وسأكون كاذبًا إذا قلتُ: إني لستُ خائفًا. إذًا تريدُ أن تعرف ما حدث، أليس كذلك؟».

- أنت تزعم أنك قتلت جوزيف ويدر يا فرانك! هل هذا صحيح؟

- أجل يا سيدي، أنا من فعلتُ ذلك. بصراحة، لم أرغب في قتله، لم أكن قاتلًا. ليس في ذلك الوقتِ على الأقل. أردتُ ضربهُ قليلًا فحسب، إن كنت تفهمني. أعني إلى المستشفى، وليس المشرحة. لقد أذاني، وأردتُ الانتقام. لكن الأمورَ انتهت بشكلٍ سيئ، وأصبحتُ قاتلًا. لكن بعد عامين في ذلك المصحِّ العقلي، لم يكن يجبُ أن يفاجئني أيُّ شيءٍ بعد الآن.

- لماذا لا تخبرني القصةَ كاملة؟ لدينا ساعة.

فقال بابتسامة لئيمة: «الرجالُ في الخارج سيكونون مشغولين بغسلِ سيارتي الجاجوار في هذه الأثناء، فلماذا لا؟ سأخبرك ما أخبرتُ الرجل الآخر، الذي قال: إنه يكتبُ كتابًا».

في سن الخامسة عشرة، ترك فرانك سبول المدرسة الثانوية، وبدأ يتسكَّعُ مع بعض الشبَّان الذين أداروا قاعة ألعاب. عمِلَ لديهم كصبي مهمات. وكان والدهُ يعمل في محطة وقود، ووالدتهُ ربَّة منزل ولديه أختٌ تصغره بخمسِ سنوات. وانتقلت عائلته من نيوجيرسي بعد عامين، ولم يرهم فرانك مرة أخرى.

في سن العشرين رأى نفسه محتالًا بالفعل، وقد تورط في جميع أنواع الجرائم الصغيرة: كان ينقلُ البضائع المسروقة إلى التجار في بروكلين، ويبيعُ السجائر المهرَّبة، والسلع الإلكترونية المزيفة. وأحيانًا كان يجمعُ مبالغ صغيرة من المال لصالح مُرابٍ، وفي أحيان أخرى عمِلَ قوَّادًا لعدد من بنات الليل.

في العصابات، دائمًا ما يوجد الكثيرُ من الأشخاص الصغار مثله، الأسماك الصغيرة في سلسلة معقدة، تمتدُّ من شوارع الأحياءِ الفقيرة إلى المنازل التي تبلغُ قيمتُها ملايين الدولارات، وبها حمامات سباحة. معظمهم ينتهي بهم الحال في نفس الوضع: يلاحقون ورقة العشرين

دولارًا التالية، يزدادون تقدُّمًا في العمر، ويصبحون أقل أهمية. بعضهم يرتقي في الصفوف، ويرتدي بدلاتٍ باهظة الثمن، وساعات ذهبية. وقلَّة منهم ينتهي بهم الأمرُ بارتكاب جرائم كبيرة، ويهلكون في السجن، منسيين من الجميع.

في خريف عام 1985، باع سبول صندوقين من السجائر لاثنين من الرجال في برينستون، وقد دفعوا له بعطور فرنسية. لاحقًا اكتشف أن أكثر من نصف زجاجات العطر مزيفة، فذهب ليطلب أمواله مرة أخرى. ووجد أحد الرجلين، وحدثت معركة، فقام بضربه، وأخذ كل المال الذي وجده في جيوبه، لكن دورية شرطة كانت تمرُّ بالمكان، فقُبِضَ عليه بتهمة السرقة. لم يقل شيئًا عن السجائر، لأنه كان يعلم أن ذلك سيزيدُ من تورُّطه.

عيَّنت المحكمة لسبول محامي دفاع عامًّا يدعى: تيري دوين. وتصادفَ أن السجل الجنائي للرجل الذي ضربه سبول كان نظيفًا. حيث امتلك متجرًا صغيرًا، وبلغ من العمر ثمانية وثلاثين عامًا، ومتزوج، وله ثلاثة أطفال. من ناحية أخرى، ترك سبول المدرسة، وتلقَّى بالفعل عدة تحذيرات لانتهاكِهِ القانون. حاول دوين التوصُّل إلى اتفاق مع الضحية، لكن لم ينجح في ذلك.

أمام خيارين، إما أن يُحاكَم كبالغ، مما يعني السجن المشدد لمدة تتراوح بين خمس، وثماني سنوات، وإما أن يُعلن خبير طبي أنه غير متزن مؤقتًا، نصحه محاميُّه بالأخذ بالخيار الثاني. وألمح دوين إلى أنه يعرفُ الخبير جيدًا، وأن فرانك سيخرجُ من المستشفى في غضون بضعة أشهر. ولم يكن مستشفى ترينتون للأمراض النفسية أفضل مكانٍ في العالم، لكنه أفضل من سجن بايساید.

فحص جوزيف ويدر فرانك سبول، وخلُصَ إلى أنه عانى اضطرابًا ثنائيَّ القطب، وأوصى بإيداعه في مستشفى للأمراض النفسية. وبعد بضعةِ أيام، نقل إلى ترينتون، واثقًا من أنه سيخرج في غضونِ بضعة أشهر.

سألت: «لماذا لم يُطلق سراحك؟».

- هل سبق لك أن أودِعتَ مستشفى مجانين؟

- لا.

- لا تذهب أبدًا. كان مكانًا فظيعًا يا رجل! بعد وقتٍ قصير من وصولي، جعلوني أشربُ كوبًا من الشاي، واستيقظتُ بعد يومين، ولم أعرف حتى اسمي. كان هناك رجالٌ يبدؤون بالعويل مثل الحيوانات البرية، أو يقفزون عليك، ويضربونك بلا سبب. أحدهم قطعَ أُذن ممرضة بأسنانه، وهي تحاولُ إطعامه. ما رأيتهُ هناك... سمعتُ أنه حتى الستينات كانوا يقتلعونَ أسنانَ جميعِ المرضى، بدعوى منع العدوى. عدوى! أي هراء...

ثم بدأَ يحكي قصَّته. لقد تعرَّض للضرب من قبل الحراس، والنزلاء على حدٍّ سواء. كان الحراس -على حد قوله- فاسدين، فإذا كان لديك نقود يمكنك الحصول على كل ما تريده، لكن إذا لم يكن لديك، فأنت لحم ميت.

قال: «يعتقدُ الناس أنه عندما تقضي عقوبة مشددة، فإن الشيء الأكثر أهمية في ذهنك هو النساء. لكنني أقول لك: إن الأمر ليس كذلك. بالتأكيد تفتقدُهم، لكن الأهم هو المال، صدِّقني. إذا لم يكن لديك نقود، فأنت تُعتبر ميتًا- لا أحد يهتمُّ بك، إلا أولئك الذين سيضربونك. وأنا لم يكن معي ولا قرش، يا رجل! في السجن يمكنكَ العمل لكسبِ بعض المال، حتى لو لم يُرسل لك أهلك أي شيء، لكن في مستشفى المجانين،

إذا لم يكن لديك أحدٌ في الخارج يرسل لك المال، فإنك تقضي اليومَ كلَّه تحدِّقُ إلى الجدران. ولم يرسل لي أحدٌ قرشًا».

قال سبول: إنه بعد ثلاثة أسابيع من دخوله، نُقِل إلى جناحٍ خاص، حيث كان هناك نحو عشرة نزلاء آخرين، جميعهم تتراوح أعمارهُم بين العشرين والثلاثين، وجميعهُم مجرمون عنيفون. واكتشفَ لاحقًا أنه هو والبقية تلقوا أدوية تجريبية، كجزءٍ من برنامج أشرَفَ عليه بروفيسور يدعى جوزيف ويدر.

- تحدَّثت مع محاميي عدة مرات، لكنه ماطلني فحسب. وفي النهايةِ، قال لي بصراحة: إنه في غضون عام يمكنه التقدُّم بطلب إلى القاضي لإخراجي أو نقلي إلى مستشفى أقلِّ حراسة. لم أصدِّق ما يحدثُ لي. خدعني شخصان، وقد ضربتُ أحدهما، وأخذتُ ثمانين دولارًا من محفظته، وهو مبلغ لم يعوِّض حتى خسائري من السجائر، وها أنا محبوسٌ في مستشفى المجانين لمدة لا تقل عن سنة.

- ألم تحصل على فرصة للتحدث مع البروفيسور ويدر؟

- بالتأكيد، كان يأتي أحيانًا إلى جناحنا. يسألنا جميع أنواعِ الأسئلة، ويجعلنا نختارُ ألوانًا، ويملأُ استبيانات، أشياء من هذا القبيل. كنا مجرد فئران تجارب، يا رجل! فئران بيضاء، تفهمني؟ قلتُ له مباشرةً، دوين قال لي: إنه يعرفك، فوافقتُ على مستشفى المجانين لأخرجَ من شيءٍ أكثرَ خطورة فحسب. لكني سليمُ العقل مثلك تمامًا. ما المشكلة؟ نظر الرجل إليَّ بعينين ميِّتتيْن كأعين الأسماك فحسب –ما زلت أستطيعُ تذكُّرهما بوضوح حتى الآن– وتعرفُ ماذا قال؟ قال: إنه لا يعرفُ عما أتحدَّث، وأنني هنا لأن

لديَّ مشكلاتٍ عقلية، ومن مصلحتي تلقِّي العلاج، وأنني سأبقى هناك ما دام يرى ذلكَ مناسبًا. هراء.

ثم أخبرني سبول أنه بدأ يعاني كوابيسَ مروِّعة، ولم يكن متأكدًا حتى إذا كان مستيقظًا أم يحلم، وأن الحبوب التي أخذها سبَّبت له ضررًا أكثر من النفع. معظم الرجال في الجناح عانوا من صداعٍ مرعب، ومع استمرار العلاج، انتهى بهم الأمرُ بقضاءِ معظم وقتهم مقيَّدين إلى أسِرَّتهم، يهذون. معظمهم كانوا يتقيؤون كل ما يأكلونه، ويصابونَ بطفحٍ جلدي.

بعد عام، زارهُ محامٍ آخر يدعى كينيث بالدوين. قال له المحامي: إنه تولَّى القضية بعد مغادرة دوين لنيوجيرسي. أخبر سبول بالدوين كيف انتهى به الأمر هناك، وماهية الاتفاق الأصلي. لم يعرف ما إذا صدَّقه المحامي الجديد، لكنه قدَّم طلبًا إلى القاضي لإعادةِ فحصِ قضيته. ووجد سبول نفسه مرة أخرى وجهًا لوجه مع ويدر الذي رفضَ طلبه بالإفراج عنه، ورفض أيضًا الموافقة على نقله إلى مستشفى مارلبورو للأمراض النفسية، والذي كان نظامه أسهل. وتمَّ إعادةُ سبول إلى ترينتون.

- قبل نحو ستة أشهر من مغادرتي لهذا المكان اللعين، نُقلنا إلى أجنحة أخرى، وأُغلِقَ الجناح التجريبي. غيَّروا علاجي، وبدأتُ أشعرُ بتحسُّن. لم أعُد أعاني كوابيس، أو صداعًا، لكنني كنتُ أستيقظ، وما زلت لا أعرف من أنا. شعرتُ باضطرابٍ داخلي، حتى لو حاولت إخفاءه، والحفاظ على علاقات جيدة مع الجميع لأثبت أنني لستُ مجنونًا. كيف يمكنهم فعل هذا بي، يا رجل؟ حسنًا، لم أكن ولدًا مطيعًا، لكنني لم أقتل أحدًا، ولم أكن حتى لأضرب ذلك الرجل لو لم يخدعني. لقد عاملوني كالحيوان، ولم يهتم أحد.

عندما فُحصَت قضيته في المرة التالية، لاحظ سبول أن ويدر لم يعُد في اللجنة. ووافقوا على طلبه بالإفراج تحت إشراف قانوني، وبعد بضعةِ أسابيع خرج من المستشفى.

كان ذلك في أكتوبر 1987. عندما خرج، لم يعرف حتى أين سيعيش. بيعَت جميع متعلقاته من قِبَل صاحب المكان الذي عاش فيه قبل القبض عليه مقابل الإيجار. ولم يرغب رجال عصابته في التعامل معه بعد الآن، خوفًا من أن يجذبوا انتباهَ الشرطة إذا تقرَّبوا منه. شخصٌ واحد فقط، وهو صيني أمريكي تعرَّفَ إليه قبل أن يُرسل إلى ترينتون، أشفق عليه، وقدَّمَ له الطعام والمأوى لبضعةِ أيام.

بعد بضعة أسابيع، تمكَّنَ من الحصولِ على وظيفة في غسلِ الصحون في مطعم قرب محطة تقاطع برينستون، وكان المالك رجلًا لطيفًا، فقد سمح له بالنوم في المخزن. بدأ فورًا في مراقبة ويدر الذي عاش بالقرب من ويست ويندسور. كان مصممًا على الابتعادِ، وبدء حياة جديدة، لكنه لم يرغب في المغادرة قبل أن ينتقم من البروفيسور. إذ كان مقتنعًا بأنَّ ويدر مع دوين، وربما بعض المتواطئينَ الآخرين، أداروا نوعًا من المخططات، حيث يوفرون أشخاصًا لتجارب سريَّة، وأنه وقعَ في فخِّهم. وكان ينوي جعلهم يدفعون الثمن. ولكن بما أنَّه ليس ممكنًا العثور على دوين، فعلى ويدر أن يدفع هو الثمن.

عثر على عنوان ويدر، ورأى أنه يعيشُ بمفردهِ في منزلٍ منعزل. في البداية خطط لضربه في الشارع تحت جُنحِ الظلام، ولكن بعد مراقبته لمنزل البروفيسور، قرَّر أن المكان المثالي للاعتداء هو المنزل نفسه. لم ينوِ قتله، بل أراد فقط أن يضربهُ ضربًا مبرحًا، كما أكد مرة أخرى، لذا حصل على مضربِ بيسبول من بعض الأولاد، ولفَّهُ بمنشفة قديمة

لتخفيفِ الضربات. وأخفى المضرب على شاطئ البحيرة بجانب منزل البروفيسور.

في ذلك الوقت، قال: إنهُ أصبحَ صديقًا لأحد السُّقاة، رجلٌ من ميزوري يُدعى: كريس سلايد. كان سلايد يبحثُ عن الخروج من جيرسي، وقد وجد وظيفة في موقف انتظار مقطورات في سانت لويس، لذا اقترح على سبول أن يذهبَ معه. وأراد المغادرة بعد عطلة الشتاء مباشرة، مما جعل الأمور تتحرك بشكل أسرع مما توقَّع.

راقب سبول منزل ويدر على مدار عدة مساءات. كان المطعم يغلق في تمام الساعة العاشرة مساءً، لذا فإنه بحلول الساعة العاشرة والنصف تقريبًا اختبأ في الحديقة الخلفية يراقبُ المنزل. ولاحظ أن هناك شخصين كانا يأتيان إلى المنزل بشكل متكرر؛ شاب يبدو طالبًا، ورجلٌ طويل القامة، قوي البنية، وبلحية غير مهذبة، ويبدو أنه نوع من عمَّال الإصلاح. لكن لم يبقَ أيٌّ منهما طوال الليل.

- في الحادي والعشرين من ديسمبر، استقلتُ من العمل، وأخبرتُ المالك أنني متَّجهٌ إلى الساحل الغربي. وحين كنت على وشك المغادرة، أعطاني أجرتي، وحزمتين من السجائر. لم أرغب أن يراني أحد في المنطقة، لذا توجهتُ إلى جدولِ أسونبينك، حيث اختبأت في مخزنٍ حتى حلول الظلام، ثم انطلقتُ نحو منزلِ البروفيسور. وأعتقدُ أنني وصلت قرابة التاسعة مساءً، لكن البروفيسور لم يكن بمفرده. كان مع الشاب يشربانِ في غرفة المعيشة.

سألته ما إذا كان يتذكَّر شكل الشاب، لكنه قال: إنه لن يستطيع وصفه، مضيفًا أنه بدا مثل جميع الأطفال المدللين الآخرين الذين يعيشون على أموال والديهم في الحرم الجامعي. قبل نحو ثلاثة أيام

من الهجوم، عندما كان يراقب منزل ويدر، كاد الشاب أن يراهُ من خلال النافذة؛ نظر مباشرةً إليه قبل أن يتمكَّن من الاختباء. ولحسن حظه، كانت الثلوج تتساقطُ بكثافة، لذا ربما اعتقدَ الشاب أنه مخطئ.

قلت: «أعتقدُ أنه كان شخصًا يُدعى: ريتشارد فلين. هل أنت متأكِّد أنه لم يكن هناك فتاة شابة معهما؟».

أجاب بثقة: «متأكِّد. كانا الاثنين فحسب. كما قلت، وصلت قرابة التاسعة. وغادر الشاب في الحادية عشرة تقريبًا، وكان البروفيسور وحيدًا في المنزلِ بعد ذلك. وانتظرتُ نحو عشر دقائق إضافية للتأكد من أن الشاب قد غادر. فكَّرتُ في قرع الجرس، وضرب ويدر عندما يفتح الباب، لكنه جعل مهمتي أسهل؛ فتح النوافذ التي تطلُّ على الفناء الخلفي، ثم صعد إلى الطابق العلوي. لذا تسلَّلتُ إلى داخل المنزل، واختبأتُ في الردهة.

عاد ويدر إلى غرفة المعيشة، أغلق النوافذ، وجلس على الأريكة يطالعُ بعض الأوراق. تقدَّم سبول من خلفه، وضرب رأسه بمضرب البيسبول. لم تكن الضربة قوية جدًّا على الأرجح، لأن البروفيسور استطاع النهوض، والالتفات نحوه. التفَّ سبول حول الأريكة، وبدأ يضربُ البروفيسور بجنون، عشر أو اثنتي عشرة مرة، قبل أن يسقطَ على الأرض. ارتدى سبول قناعًا، فلم يخَف من تعرف ويدر عليه. وكان على وشكِ البحث عن النقود في المكان عندما سمعَ شخصًا يفتحُ الباب الأمامي. ففتح الباب الزجاجي، وركض حول المنزل، وهرب في عاصفة الثلج.

ألقى بالمضرب في الجدول شبه المتجمِّد، واختبأَ في مخزن الخشب قرب جدول أسونبينك طوال الليل. وفي صباح اليوم التالي، التقى سليد في تقاطع برينستون، وانطلقا إلى ميزوري. ثم اكتشف لاحقًا أن البروفيسور قد توفي.

استنتج: «ربما ضربته أقوى مما ظننت. ولذا انتهى بي الأمرُ أن أصير قاتلًا. أتعرف؟ بعد ما حدث، كلما فعلتُ شيئًا سيئًا، بدا الأمر وكأني أستيقظُ من حلم، ولم أستطع تصديق أنني من فعلَ ذلك. كنتُ دائمًا مقتنعًا أنني فقدتُ عقلي بسبب الحبوب التي أعطوني إياها في ذلك المكانِ المروِّع. لا أقول ذلك لأبدو غير مذنبٍ فحسب؛ في كل الأحوال، لا جدوى من ذلك الآن».

قلت: «كنت في الإفراجِ المشروط. ألم يدقَّ أحدٌ ناقوس الخطر عندما غادرتَ نيو جيرسي؟ ألم يأتوا للبحثِ عنك؟».

- ليس لدي فكرة يا رجل! لقد رحلتُ فحسب. لم يسألني أحدٌ أي أسئلة بعد ذلك، ولم أواجه مشكلاتٍ مع القانون مرة أخرى حتى عام 2005، عندما أوقفوني على الطريق بسبب السرعة. أخبرتُ محاميَّ أنني كنتُ مريضًا في ترينتون قبل سنوات، لذا طلبَ اختبارًا نفسيًّا. وحكم الخبير المعيَّن من قِبَل المحكمة بأنني عاقل بما يكفي للمثول أمام المحكمة، لذلك حوكمت، وتمَّت إدانتي. هل تعرفُ ما هي المفارقة؟ عندما كنت عاقلًا –وأقول لك: إنني كنتُ حقًّا عاقلًا– انتهى بي الأمرُ في مصحَّة عقلية. لكن عندما لم أكن حتى مقتنعًا أنني سليمُ العقل، رفضوا إرسالي إلى المصحة العقلية، وقرروا إعدامي بدلًا من ذلك».

- لقد مرَّت عدة سنوات منذُ ذلك الحين، وربما لا تتذكَّر كل شيءٍ جيدًا، لذا دعني أسألك مرة أخرى: هل أنت متأكد أن البروفيسور قضى تلك الليلة مع شابٍّ أبيض في قرابة العشرين من عمره، ولم يكن معه أحد آخر؟ ربما لم ترَ جيدًا -كان الثلجُ يتساقط في الخارج، واختبأتَ في الفناء الخلفي، وربما لم يكن لديك زاوية جيدة للرؤية-.

- أنا متأكد يا رجل! قلت: إن القضية أُسندت إليك...

- صحيح.

- إذًا ربما تتذكَّر كيف بدا المكان. كان في غرفةِ المعيشة نافذتان كبيرتان، وباب زجاجي، يفتحُ على فناءٍ خلفي والبحيرة. عندما كانت الأضواء مضاءة، والستائر مفتوحة، كان بإمكانك رؤيةُ كل شيءٍ في الغرفة بوضوح. جلس البروفيسور، وذلك الشاب أمام الطاولة يتناولانِ الطعام. تحدَّثا، ثم غادر الشاب، وبقي ويدر وحده.

- هل حدثت مشادة بينهما؟

- لا أدري، لم أستطع سماع ما قالوه.

- تقول: إن الساعة كانت الحادية عشرة مساءً عندما غادر الشاب؟

- قرابة الحادية عشرة، لستُ متأكدًا جدًّا. ربما الساعة الحادية عشرة والنصف، لكن لا أعتقدُ أنها كانت بعد ذلك بكثير.

- وبعد عشرِ دقائق، هاجمت ويدر.

- كما قلت، دخلت المنزل أوَّلًا، واختبأت، ثم عاد إلى الغرفة، وفي ذلك الحين ضربته. ربما لم تكن عشر دقائق، ربما عشرون، لكن لا أكثر من ذلك. كانت يدي لا تزالُ متجمِّدة عندما ضربته للمرة الأولى، لذلك أخطأتُ في الضربة، لذا لا يمكن أنني اختبأتُ في الداخل طويلًا.

نظرتُ إليه، وتساءلتُ كيف أفلت اسمه مني تمامًا عندما حققتُ في إمكانية أن الجريمة عمل انتقام، نفَّذهُ أحدُ مرضى البروفيسور السابقين.

صحيحٌ أن قائمة القضايا التي شهد فيها ويدر كخبير كانت طويلة جدًّا. وأن المدَّعي العام كان غبيًّا، وغير منظَّم. لذا فقد أرسلنا في كل اتجاه، ثم غيَّر رأيهُ في اليوم التالي بشأن الخيوط التي انبغى لنا متابعتها، لذا ربما لم أحصل على الفرصة الكافية للتحقُّق من كل شيء حتى آخر تفصيلة. ضايقتنا الصحافة، وكتبت شتى أنواعِ الأشياء المجنونة في الصحف. وكنت أقود سيارتي مع زجاجة من الكحول مخبَّأة فيها، متسائلًا عما إذا كنتُ سكرانًا بما يكفي لأطرد من العمل. عندما أُفكِّر في تلك الفترة، أتساءل إلى أي درجة اهتممتُ حقًّا بمن قتل جوزيف ويدر، كل ما شغلني في ذلك الوقت هو الشفقة على نفسي، والبحث عن أعذار لسلوكي.

- إذًا، هل لديك أدنى فكرة عمَّن سمعته يدخل منزل البروفيسور بعد أن ضربته؟

- لا، لقد انطلقتُ على الفور. لم أتوقَّع ظهور أحد في تلك الساعة، لذا خرجتُ من هناك بأسرع ما يمكن، ولم أنظر إلى الوراء. اعتقدت أن كلَّ ما فعلته هو إعطاؤه ضربة مبرحة. كان هناك الكثير من المدمنين في المنطقة، لذا ستعتقدُ الشرطة أنها محاولة سطو. لم أعتقد أنه سيكونُ هناك مشكلة كبيرة في أن يتعرض شخصٌ ما للضرب، وعمومًا، سأكون بعيدًا بحلول ذلك الحين. لكنه توفي، وهذا غيَّر كل شيء، أليس كذلك؟

- لا تعرف ما إذا وُجِدَ أكثر من شخص عند الباب؟

هزَّ رأسه.

- آسف، لقد أخبرتك بكل ما أعرفه.

قلت: «لم يمُت ويدر على الفور، بل بعد ساعتين، أو ثلاث ساعات. إذا جاءَ أحدهُم قرابة منتصفَ الليل، كان ينبغي لذلك الشخص أن يتَّصل

بالإسعاف، لكنهُ لم يفعل. ربما ظننت أنك سمعت الباب. كانت الرياح قوية تلك الليلة، وربما اهتزَّت المفصَّلات فحسب».

قال بحزم: «لا. كما قلت. فتحَ أحدهم الباب ودخل المنزل».

- وتركهُ ذلك الشخص هناك ليموتَ على الأرض؟

رمقني بنظرة طويلة، مجعِّدًا جبينهُ، مما جعلهُ يبدو كقردٍ مرتبك.

- لم أعلم ذلك... إذًا، لم يمُت على الفور؟

- لا. كان بإمكان هذا الشخص المجهول إنقاذهُ بالاتصال بالإسعاف. لم يتصل عاملُ الصيانة برقم 911 إلا في صباحِ اليومِ التالي، وبحلول ذلك الوقت كان قد فات الأوان. إذ كان ويدر وقتها ميتًا منذُ بضعِ ساعات».

- لهذا السبب أنت مهتمٌّ بمن حضر؟

- أجل. خلال الاعتداء، هل قال ويدر أي شيء؟ هل نادى على المساعدة، أو سأل من أنت؟ أو شيء من هذا القبيل؟ هل ذكر أي أسماء؟

- لا، لم يطلب المساعدة. ربما همسَ بشيءٍ ما، لا أستطيعُ التذكُّر. في البداية حاولَ الدفاعَ عن نفسه، ثم سقط، وحاول حمايةَ رأسِهِ فحسب. لكنه لم يصرخ، أنا متأكِّد من ذلك. على أي حال، لم يكن هناك أحدٌ حوله ليسمعه.

دخل الضابطان المسلحانِ، وأشار لي أحدهما بأن وقتنا انتهى. وكنتُ على وشك أن أقول لسبول: «أراك لاحقًا»، لكنني أدركتُ أن ذلك سيمثِّل مزحة سيئة. إذ بعد ثمانية أسابيع سيكونُ الرجل ميتًا. شكرت سبول مرة أخرى على قبوله التحدُّث معي. وقفنا، وقام بحركةٍ كما لو

أراد مصافحتي، لكنه استدار على كعبيه، وابتعد مشيًا مع الضباط، بتلك الخطوات المتعثِّرة بسبب القيود.

بقيتُ وحدي في الغرفة. أخرجتُ السجائر من الحقيبة، وأمسكتُ بها، حتى لا أنسى إعطاءها للضباط في طريقي للخارج.

من الذي حضر إلى منزل البروفيسور في منتصفِ الليل، ووجدهُ ممددًا على الأرض، لكنه لم يتصل بالإسعاف؟ إذا كان سبول يقول الحقيقة، فإن ذلك الشخص لم يضغط الجرس، أو يطرق الباب، بل استخدمَ مفتاحًا للدخول. بعد كل هذه السنوات، يمكن لذاكرةِ المرء أن تخدع. على أيِّ حال، كان هناك شيءٌ واحد مؤكد؛ ما قالهُ لي لم يتطابق بالتأكيد مع ما قاله ديريك سيمونز في ذلك الوقت، والذي كرَّرهُ لذلك الصحفي قبل بضعة أشهر.

كتب جون كيلر نوعًا من الملخص لكل المعلومات التي جمعها، في نهاية التحقيق الذي أجراه، وكان هناك نسخةٌ منه في الأوراق التي أحضرها إلى منزلي. اشتبه في أنَّ لورا باينز كانت في المنزل وقت الجريمة، وأنها سرقت مخطوطة البروفيسور، التي كان قد انتهى منها للتو، وعلى وشك إرسالها إلى ناشره. افترض كيلر أن لورا وريتشارد ربما يكونانِ متواطئين، لأن لورا لم تكن قادرة جسديًّا على قتل ويدر بمفردها. اعتقدَ أنَّ فلين هو من استخدمَ المضرب، لكن لورا باينز هي الفاعل المعنوي، والعقل المدبِّر، والمستفيد الوحيد من الجريمة.

لكن إذا كان سبول يقولُ الحقيقة، فإن لورا باينز لم تكُن بحاجة إلى فلين كمتواطئ في الجريمة. فإذا وصلت إلى هناك مصادفةً بعد الاعتداء، لوجدت البروفيسور مُلقًى على الأرض، ويمكن أن تستغلَّ الموقف لسرقةِ المخطوطة، وأغلقت الباب الزجاجي الذي قفز منه سبول، وأغلقت باب

المدخل خلفها. وقد ذكر ديريك سيمونز أنهُ في الصباح، عندما وصل إلى منزل البروفيسور، وجدَ النوافذ والأبواب مغلقة.

ثم تذكرتُ تفصيلة مهمة أخرى، ذُكرت في تقرير الطبيب الشرعي. كان المحقِّق محتارًا بشأن شيءٍ واحد: من بين جميع الضربات التي تعرَّض لها ويدر خلال النزال، ضربة واحدة فقط كانت قاتلة. ربما الضربة الأخيرة، على الصَّدغ الأيسر، عندما كان الضحية ملقى بالفعل على الأرض، وربما فاقدًا للوعي. قال سبول: إنه لفَّ مضربهُ في منشفة. لم يكُن المضرب الملفوف في منشفة سلاحًا مدمِّرًا إلى هذه الدرجة. لكن ماذا لو أنَّ الضربة الأخيرة -التي قتلت ويدر- قد نُفِّذت بواسطة شخص آخر؟

وصل «مات» بعد بضع دقائق، وخرجنا من الطريق الذي جئنا منه. تركتُ السجائر لفرانك سبول عند البوابة، وذهبنا إلى موقف السيارات. كانت السماءُ قد صارت الآن صافية، وتمتدُّ فوق السهول دون أي أثر للغيوم. وهناك صقرٌ يطير عاليًا في السماء، ويصدرُ صرخةً حادَّة بين الحينِ والآخر.

سألني «مات»: «هل أنت بخيرٍ يا صديقي؟ وجهكَ شاحبٌ كالموت».

- أنا بخير. ربما الهواء لا يناسبني هناك. هل تعرفُ أي مطاعم جيدة قريبة؟

- هناك مطعم بيل، على بُعدِ ثلاثة أميال تقريبًا من هنا، على الطريق السريع I-55. هل ترغبُ في الذهاب إلى هناك؟

- قلت لك: إنني سأشتري لك الغداء، أليس كذلك؟ لا يزالُ لدي أربع ساعات حتى موعد رحلتي.

قاد في صمت إلى المكانِ الذي ذكره، بينما أفكِّر في قصة سبول.

بدا غريبًا بالنسبةِ لي أنَّ اعترافهُ لا يتناسبُ مع قصة ديريك سيمونز. زعم سيمونز أيضًا أنهُ اختبأ في الفناءِ الخلفي. إذا كان هذا هو ما حدث حقًّا، فمن المستحيل ألا يكون هو وسبول قد رأيا بعضهما بعضًا. كان الفناء الخلفي كبيرًا، لكن المكان الوحيد الذي يمكنُ الاختباءُ فيه دون أن يُرى من الداخل، وفي الوقت نفسه يتيحُ مجال رؤية لنافذة غرفة المعيشة، هو في مكانٍ ما على اليسار، في الجانب المُقابِل للبحيرة، حيث كان هناك في ذلك الوقت بعضُ أشجارِ الصنوبر القزمة الزخرفية، بارتفاعِ نحو عشرة أقدام، وتجمُّع من أشجار الماجنوليا.

سأل «مات» بينما ندخل موقف السيارات المقابل للمطعم: «أنت تُفكِّر فيما قالهُ الرجل، أليس كذلك؟».

أومأتُ برأسي.

- لا يمكنك حتى الوثوق من أنهُ لم يخترعْ كل ذلك. أناسٌ مثلُ هؤلاء سيكذبونَ لأبعد حد فقط من أجل الحصول على بعض السجائر. ربما اخترع ذلك كلَّه لجذبِ الانتباه فحسب، أو أنهُ يأملُ أن يؤجِّل تنفيذ الحكم إذا أُعيدَ فتحُ قضيةِ ويدر. كانت الجريمةُ في ولاية أخرى، لذا ربما يأملُ أن يتمَّ إرسالهُ إلى نيوجيرسي للمحاكمة بتهمةِ القتل، مما يعني سنواتٍ في المحكمة، والمزيد من الدولارات الضريبية التي تذهبُ هباءً. لقد جرَّبَ محاميهِ شيئًا من هذا القبيل بالفعل، ولم ينتج شيء عن ذلك. وهذا أمرٌ جيِّد أيضًا، إذا سألتني.

- لكن ماذا لو لم يكن يكذب؟

نزلنا من السيارة. وخلع «مات» قبَّعة البيسبول، ومرَّر يدهُ في شعره الفضيِّ قبلَ أن يرتديها مرة أخرى.

- تعلم، كنتُ أفكِّر في ذلك الرجل من كاليفورنيا، الذي يكتُبُ ذلك الكتاب عن القتلة. لقد عشتُ بين المجرمين طوال حياتي. في

البداية حاولتُ وضعهم في السجن، ثم حاولتُ إبقاءهم هناك لأطول فترة ممكنة حسبما تقرِّر هيئة المحلفين والقاضي. أنا أعرفهم جيدًا، وليس هناك الكثير لأقوله عنهم: بعضهم يولد هكذا، تمامًا مثلما يولد المرء بموهبة الرسم، أو كرة السلة. بالتأكيد، جميعهم لديهم قصة حزينة يروونها، لكنني لا أبالي.

دخلنا المطعم، وطلبنا الغداء. وفي أثناء الوجبة، تحدَّثنا عن هذا وذاك، دون أي ذكر لسبول. بعد أن انتهينا، سألني: «على أي حال، ما الذي أصابك لتتورَّط بكل هذه الأمور؟ أليس لديك شيءٌ أفضل لتفعله؟».

قررتُ إخبارهُ بالحقيقة. إذ لم يكن «مات» رجلًا يستحقُّ الكذب عليه، وكنت متأكدًا من أنه لن ينظر إليَّ نظرة الشفقة تلك التي لا أطيقها.

قلت: «قبل نحو ستة أشهر، ذهبتُ لرؤية الطبيب. بعد أن بدأتُ نسيان أشياء، خاصةً أسماء الشوارع، رغم أنني دائمًا ما تمتَّعتُ بذاكرة جيدة. حاولتُ القيامَ ببعضِ التمارين: أيُّ ممثلٍ كان في أيِّ فيلم، من الذي غنى لحنًا معينًا، وما هي النتيجة في بعض المباريات، أشياء من هذا القبيل. لاحظت أنني واجهتُ مشكلات أيضًا مع الأسماء، لذا ذهبتُ إلى الطبيب. أجرى بعض الفحوصات، وسألني كل أنواع الأسئلة، وبعد أسبوعين أعطاني الخبر الكبير».

- لا تقل لي: إنه...
- حسنًا، لن أخبرك.

مكتبة
t.me/soramnqraa

رمقني بنظرة، فواصلت.

- أجل، إنه مرضُ ألزهايمر، في مراحله المبكرة. لم أبدأ في نسيانِ الذهاب إلى الحمام بعد، أو ما أكلته الليلة الماضية. أخبرني الطبيب أن أُبقي ذهني نشطًا، وأقوم بتمارين؛ أعطاني كتابًا، وبعض الفيديوهات لمساعدتي. لكنني تذكرت ذلك الصحفي الذي كان مهتمًّا بقضية ويدر. فذهبت إلى القسم، وحصلتُ على بعض

الأوراق له من الأرشيف. أرسل لي ما اكتشفه، فقلت لنفسي: إنه يبدو من الجيد إبقاء ذهني مشغولًا بشيءٍ من هذا القبيل، شيء مثير للاهتمام ومهم، بدلًا من محاولة تذكُّر مباريات قديمة. أدركتُ أنني دائمًا ما ظننتُ أنني أفسدتُ القضية، لأنهُ في ذلك الوقت كنت مجرد سكِّير رديء. لذا، اتصلتُ بك بعد ذلك وجئت، إلى هنا.

- لستُ متأكدًا من أنني فعلتُ شيئًا جيدًا، بنبش القبور هكذا. لقد أخبرتك من أجل الدردشة فحسب، بالمناسبة، لم أتوقَّع أن تأتي إلى هنا بسبب ذلك. أنا آسف حقًّا لسماع...

- من المهم بالنسبة لي أن أعرف ما حدث آنذاك، وكيف سمحتُ للقاتل بالهرب. وبعد عامٍ أو اثنين، لكن ليس أكثر من ثلاثة، لن أعرف من كان ويدر، أو حتى أتذكَّر أنني كنتُ شرطيًّا. أحاولُ تصحيح الفوضى التي تسببت بها، كل الأذى الذي حدث بسببي، ومعظمها لا أزال أدفع ثمنه.

قال، وهو يشيرُ إلى النادلة، ويطلب المزيد من القهوة: «أعتقد أنك تقسو كثيرًا على نفسك. لقد مررنا جميعًا بفتراتٍ جيِّدة، وأخرى سيئة. لا أستطيعُ التذكُّر أنك لم تؤدِّ واجبك قط. احترمناكَ جميعًا، روي! ونعتقد أنك رجل جيد. حسنًا، كنا جميعًا نعلم أنك تحب الشراب، لكن كان علينا حمايةُ أنفسنا بأفضل ما يمكن من الأمور التي تحدث من حولنا، أليس كذلك؟ تخلَّ عن الماضي، وابدأ في الاهتمام بنفسك».

توقَّف قبل أن يسأل: «هل أعطاك دورة علاج؟ أعني: الطبيب، الحبوب وهذه الأشياء؟».

- أتناولُ بعض الحبوب. أفعل كل ما يأمرني به الطبيب، لكنني لا أتمسَّكُ بالكثير من الأمل. لقد قرأتُ عن ألزهايمر على الإنترنت، لذا أعلمُ أنه لا يوجد علاج. إنها مسألةُ وقت. وحين لا أصبحُ قادرًا على العناية بنفسي، سأذهبُ إلى دار المسنين.

- هل أنت متأكد أنك لا تريدُ البقاء لليلة واحدة؟ يمكننا التحدث أكثر.
- سأخسر المال إذا غيَّرت التذكرة الآن. لكن ربما سأعود إلى هنا في مرحلةٍ ما. ليس لدي الكثير غير ذلك لأفعله.
- أنت مرحَّبٌ بك في أي وقت، كما تعلم. لكن لا مزيد من الزيارات إلى السجن.
- أعدك.

أوصلني إلى المطار. وشعرتُ بشعورٍ غريب أنها ستكونُ المرة الأخيرة التي سأراهُ فيها، بالرغم من حديثنا، وبعد أن بدأ يمشي عائدًا إلى المدخل، شاهدتهُ يتنقَّلُ بين الحشود، مثل قارب شراعي بين قوارب التجديف، حتى اختفى خارجًا.

بعد ثلاث ساعات، هبطت في نيوارك، وأخذتُ سيارة أجرة إلى المنزل. وفي الطريق، شغَّل السائقُ أسطوانة قديمة لفريق «كريدنس كليرووتر ريفيفال Creedence Clearwater Revival»، وبينما كنتُ أستمع، حاولتُ أن أتذكَّر أيامي الأولى مع ديانا: كيف التقينا في نزهة؛ وكيف فقدتُ رقمها، ثم التقيتها مصادفةً وأنا خارجٌ من سينما مع بعض الأصدقاء؛ كيف قضينا أول ليلة حب لنا في نُزُل على شاطئ نيو جيرسي. من الغريب أن تلك الذكريات بدت أكثر وضوحًا من الزيارة التي قمتُ بها لتوِّي إلى بوتوسي.

لقد لاحظتُ منذ فترة طويلة أنه عندما تكونُ مشغولًا بشيءٍ ما بشدة، يظلُّ جزءٌ من دماغك يعيد التفكير فيه، حتى عندما تفكِّر في شيء آخر. دفعتُ أجرة التاكسي، وبينما كنتُ أفتح باب منزلي، قررت أن قصة قتل سبول لويدر صحيحة -عليها أن تكون كذلك، لأنه ليس لديه ما يخسره- وأن ديريك سيمونز كذبَ عليَّ لسببٍ، أو لآخر حين استجوبته قبل نحو ثلاثين عامًا. والآن صار عليَّ أن أكتشفَ السبب.

ثلاثة

زرتُ سيمونز بعد يومين، بعد أن اتصلت به أولًا. وجدتُ عنوانه بين الأوراق التي تسلمتها من جون كيلر. كان سيمونز يسكن بالقربِ من قسم شرطة برينستون، ووصلتُ إلى هناك قرابة الثالثة بعد الظهر، وبعض الغيوم الممطرة تسكُب حمولتها على الأسطح المغطاةِ بالقرميد.

قبل اللقاء حاولتُ تذكُّر وجهه، لكنِّي لم أستطع. كان في أوائل الأربعينيات عندما حقَّقتُ في القضية، لذا توقَّعت أن أجد رجلًا منهكًا. وكنت مخطئًا- بدا أصغر بكثير، إذا تجاهلت التجاعيد العميقة في وجهه، والشعر الأبيض.

قدَّمتُ نفسي، فقال لي: إنه يتذكرني بشكل مبهم- الشخص الذي بدا وكأنَّه قسيس، وليس شرطيًّا. سألته أين المرأة التي قرأتُ عنها في ملاحظات كيلر، ليونورا فيليس، فقال: إنها ذهبت إلى لويزيانا لرعايةِ والدتها التي خضعت لعملية جراحية.

دخلنا غرفة المعيشة، وجلستُ على الأريكة، بينما جلب لي كوبًا من القهوة بطعم القرفة. أوضح أنها خدعة تعلَّمها من ليونورا، وهي تقنية

كاجونية. وحضَّر لنفسه كوبًا من القهوة، ثم أشعل سيجارة، وسحب منفضة سجائر ملأى بالفعل بالقرب منه.

- لا أعتقدُ أنني كنت سأتعَرَّفُ عليك لو صادفتك في الشارع. بصراحة، حاولتُ نسيان كل ما حدث. هل تعلم أن صحفيًّا جاء إلى هنا ليسألني عن الأمر منذ بضعة أشهر؟

- أجل، أعلم، لقد تحدَّثتُ معه أيضًا.

أخبرته بقصة فرانك سبول، مستندًا إلى الملاحظاتِ التي دوَّنتُها في المفكِّرة التي استخدمتها لتنظيمِ كل المعلومات التي بحوزتي، كما اعتدتُ أن أفعل في الأيام الخوالي. استمع إليَّ بعناية، دون مقاطعتي، بينما يأخذ رشفة من قهوته من حينٍ لآخر، ويشعل سيجارة تلو الأخرى.

لم يعلق حين انتهيتُ، بل سألني فقط إذا كنتُ أرغب في المزيد من القهوة. امتلأت المنفضة بأعقابِ السجائر لدرجة أنها كانت على وشك أن تتساقط على الطاولة المصنوعة من خشب الماهوجاني.

سألت: «هل تفهم الآن لماذا أردتُ التحدث معك؟».

أجاب بهدوء: «لا. لم يسألني أحد عن هذا الأمر منذُ قرابة ثلاثينَ عامًا، والآن يبدو أن الجميع صاروا يهتمُّون. لا أفهم، هل تعرف ماذا أقصد؟ لا أشعر بأيِّ نوعٍ من الراحة في الحديث عما حدث في ذلك الوقت. كان البروفيسور هو صديقي الوحيد».

- ديريك، هل تتذكَّرُ ما قلته في شهادتك في ذلك الوقت؟ وما أخبرت به الصحفي مؤخرًا؟

- أجل.

- ما قلته لا يتطابقُ مع ما قاله لي سبول. إنه يزعم أنه اختبأ في الفناء الخلفي في ليلة الجريمة، خلف المنزل. وأنت قلت: إنك اختبأتَ

هناك في الوقت نفسه، في التاسعة مساءً. كيف لم تتصادفا؟ وقلت: إن البروفيسور كان هناك مع لورا باينز، وريتشارد فلين، الذي بدأ في الجدال مع ويدر؛ ثمَّ قلت إن لورا غادرت، رغم أنك رأيت سيارتها متوقِّفة بالقرب فيما بعد. لكن سبول لم يقُل شيئًا عن لورا باينز. وزعم أن البروفيسور كان مع ريتشارد فلين، وأنه لم يلحظ أي خلافٍ بينهما.

لقد كتبتُ في مفكِّرتي جميع التناقضات بين النسختين، نقطة بنقطة.

قال غير مهتم: «وماذا في ذلك؟ ربما نسي الرجل ما حدث في هذه الأثناء أو ربما يكذب. لماذا تصدِّقهُ ولا تصدِّقني؟ ماذا تريدُ مني على أي حال».

أجبت: «ليس من الصعب التخمين. أحدكُما لا يقولُ الحقيقة، وأنا أميلُ الآن إلى الاعتقاد بأنه أنت. وما يهمُّني هو لماذا تكذبُ عليَّ».

ابتسم، لكن دون أيِّ أثرٍ للمرح.

- ربما لا أكذب، لكنني لا أستطيعُ تذكُّر تلك الليلة جيدًا. أنا كبيرٌ في السن: أليس من الطبيعي أن تنسى عندما تكبر؟

قلت: «أنا لا أتحدَّثُ عما قلتهُ لكيلر قبل بضعة أشهر فحسب، بل أيضًا عما قُلته للشرطة في ذلك الوقت، مباشرةً بعد القتل. الروايتان متطابقتان تقريبًا. وقلت لكيلر: إن ويدر ولورا كانا على علاقة، أليس كذلك؟».

- ربما. كيف تعرفُ أنهما لم يكونا؟

- أنت الشخصُ الوحيد الذي زعم في ذلك الوقت أن لورا باينز والبروفيسور كانا عاشقين. وبما أن فلين أحبَّها، فقد أعطى ذلك

للمحقّقين سببًا للاعتقادِ بأنه ربما قتل ويدر مدفوعًا بالغيرة؛ وهو دافعٌ محتمل.

- هذا ما ظننتهُ دائمًا، أنهما كانا عاشقين. وما زلتُ أعتقد أن ريتشارد تظاهر فقط بالمغادرة تلك الليلة، ثم عادَ وقتل البروفيسور. إذا لم تتمكَّن من إثباتِ ذلك، فهذه مشكلتك، هل تفهم؟ أما عن علاقتهما، ربما لم تسأل الأشخاص المناسبين.

- أنت لم تختبئ خلفَ المنزلِ تلك الليلة، أليس كذلك، ديريك؟ لماذا حاولتَ توريطَ فلين؟

بدا فجأةً غاضبًا، ومضطربًا.

- لم أحاول توريطَ أحد يا رجل! الأمرُ بالضبط كما قلت: كنت هناك، ورأيتُ الثلاثة في غرفة المعيشة.

- إذًا، تقولُ: إنك وقفتَ في الثلج لمدةٍ تقارب الساعتين؟ ماذا ارتديت؟

- كيف لي أن أعرف بحق الجحيم؟ لا أتذكَّر.

- كيف لم ترَ سبول، ولم يرك؟

- ربما هو يكذب، ولم يكن هناك، أو ربما أخطأَ في التوقيت. لماذا عليَّ أن أهتم؟

- لماذا زعمت أن لورا باينز كانت هناك؟

- لأنني رأيتُها، وكانت سيارتُها متوقِّفة على مقربة. تستمرُّ في جعلي أكرِّرُ نفس الأمور، كالببغاء، يا رجل!

وقف فجأة.

- آسف، لكنني وعدتُ زبونًا بالانتهاء من إصلاح سيارته هذا المساء. السيارة في المرأب. يجب أن أذهب. لا أشعرُ برغبةٍ في الحديث

معك، لا أقصدُ الإساءة، لكن لا تعجبُني نبرتك. حان الوقت الآن للعب الكرة. شكرًا لتعاونك.

- ماذا قلت؟

- يانكيز ضدَّ بالتيمور أوريولز: كنتُ هناك عندما قال المذيع ذلك بعد أن قُتِل ماسكُ الكرة -ثورمان لي مانسون- في حادث تحطُّم الطائرة. والآن، للعلم فقط، لن أتحدَّث مع أي شخص عن ويدر، ما لم يكن لديهِ أمر قضائي. سأرافقك إلى الخارج.

غادرتُ وأنا أشعر بالتفاهة تقريبًا، كطفلٍ يؤدي دور المحقق، وتم طرده من المنزل من قبل أحد «المشتبهين». كنتُ شرطيًّا في يومٍ من الأيام، لكن تلك الأيام ولَّت منذ زمن طويل. الآن أنا مجرد رجل عجوز يعبثُ، بلا شارة ولا مسدس في حزامي. ركبتُ سيارتي، ورميتُ الدفتر الحلزوني في صندوقِ التابلوه.

عندما انعطفتُ إلى شارع فالي رود، وكانت ماسحات الزجاج الأمامي بالكاد تستطيعُ التعامل مع المطر الغزير، سألت نفسي إلى أين أريدُ الوصول بهذه القصة كلها. كنت شبه متأكد أن ديريك يكذب، وأنه كان يكذب أيضًا في الشهادة التي أدلى بها بعد الجريمة مباشرةً، لكن لم يكن بإمكاني فعلُ شيءٍ حيال ذلك. أخبرني «مات» أن محامي سبول حاول إعادة فتح القضية، لكنه لم ينجح. لستُ سوى شرطي متقاعد مجنون يعبث.

في الأيام القليلة التالية، بينما أفكِّر في القضية، أصلحتُ سقف منزلي وطليت غرفة المعيشة.

نظَّفتُ الفناء الخلفي يوم السبت، وعبرت النهر يوم الأحد، وزرت زميلًا سابقًا في المدينة، جيم فوستر، الذي نجا من نوبة قلبية، وخُرِّج من المستشفى قبل بضعةِ أسابيع. كان يومًا جميلًا، لذا خرجنا في

نزهة، ثم جلسنا لتناول الغداء في مطعم بالقرب من شارع لافاييت. أخبرني بكل شيء عن الحمية الصارمة التي يتَّبعها. سألته عما إذا كان يتذكر أي شيء عن قضية جوزيف ويدر، وتعجَّب قليلًا، قائلًا: إن الاسم غير مألوف.

- ذلك البروفيسور من برينستون الذي قُتل في منزله في ديسمبر 1987. سجينٌ محكومٌ عليه بالإعدام في بوتوسي، ميزوري، يزعم أنه قتله. اسمُ الرجل هو فرانك سبول، وكان عمره 22 عامًا فقط في ذلك الوقت. كنتُ أنا المسؤول عن القضية حينها.

قال وهو ينظرُ إلى النقانق الإيطالية في طبقي: «لم أحب قط اسم فرانك. عندما كنت طفلًا قرأتُ رواية «ذهب مع الريح»، وكان هناك شخصية تدعى فرانك، ورائحة فمِهِ كريهة. لا أعرف لماذا التصق هذا التفصيل في رأسي، لكنني دائمًا ما أتذكَّرهُ عندما أسمعُ الاسم. لماذا لا تزالُ مهتمًّا بهذه القصة؟».

- هل سبق وتعاملتَ مع قضية استحوذت على عقلك، تذكرها طوال الوقت، حتى بعد مرور سنوات؟

- لقد تعاملتُ مع العديد من القضايا، يا روي.

- أجل، أعلم، لكنني أدركتُ بعد كل هذه السنوات أن هذه القضية لا تزالُ تؤرِّقني. أشعرُ بأن هناكَ شيئًا أكبر تحت السطح، شيئًا مهمًا ينتظرني، تفهم؟ لا أتحدث عن هراء مثل (لوو آند أوردر Law & Order) بل عن العدالة، عن الإحساس بأنه إذا فشلت، فسينتهي الأمر.

فكَّر لبضع لحظات.

- أعتقدُ أنني أفهم ما تقصده... بعد أن انتقلت إلى شرطة نيويورك في التسعينات، عملت لفترة في قسم المخدرات. كان ذلك عندما

عملنا مع الفيدراليين، نحارب عصابة ويستيز في هيلز كيتشن وأفراد غوتي. لم يكن هناك وقتٌ للشعور بالملل. أخبرتنا زوجة زعيم أيرلندي سابق، شابة تُدعى مايرا، أنها مستعدة للكشف عن الأسرار إذا وفرنا لها الحماية. رتبتُ لقاءً معها في حانة بشارع ويست 43، تسمى فول مون.

ذهبتُ مع زميلٍ لي، كين فينلي، الذي قُتِل في معركة بالأسلحة النارية ضد بعضِ الرجال من نيكاراجوا في نيوجيرسي بعد عام. الآن، وصلت السيدة، طلبنا مشروبات، وأخبرتها عن برنامج حماية الشهود، إذا كانت مستعدة للتعاون معنا. ثم قالت: إنها بحاجة للذهاب إلى الحمام، فانتظرت. وجلستُ مع فريقي لمدة عشر دقائق أو نحو ذلك، ثم أدركنا أن هناك شيئًا ليس على ما يرام. طلبت من نادلة الحانة الذهاب إلى الحمام والبحث عنها، لكنها لم تكن هناك. في النهاية تحدَّثتُ إلى المدير وقمنا بالبحث. لا شيء، يا رجل!

لم يكن هناك أيُّ نوافذ، والطريقة الوحيدة للخروج كانت عبر المرحاض أو فتحة الهواء، التي لم تكن حتى كبيرة بما يكفي لمرور طفل صغير. لم نستطع فهم ما حدث: طاولتنا كانت بالقربِ من الحمامات، لذا لو خرجت لرأيناها. وبالإضافة إلى ذلك، كانت الحانة شبه فارغة، ولم يدخُل أو يخرج أحد من الحمام في ذلك الوقت.

- يا لها من قصة... هل عرفت يومًا ما حدث؟

هزَّ رأسه.

- ربما لم أرغب في التفكير في الأمر. فهو لا يزالُ يجعل شعري يقف حتى الآن. وكأنها تلاشت في الهواء الطلق، على بعد بضعة أقدام مني، ولم أفعل شيئًا. لم يُعثَر عليها قط، لا ميتة ولا حية. لسنوات وأنا أحاولُ فهم كيف يمكن أن يحدث ذلك. ربما كل شرطي لديه

قردٌ على ظهره مثل ذلك، يا روي. ربما لا ينبغي أن تفكِّر كثيرًا في قصتك.

بعد أن أوصلتُ جيم إلى منزله، ذهبتُ إلى موقف السيارات حيث تركت سيارتي. وبينما أمرُّ بجانب مكتبة ماكينلي جاكسون، رأيتُ ملصقًا صغيرًا يعلن أن الدكتورة لورا ويستليك ستلقي محاضرة هناك بعد ظهر الأربعاء، أي بعد ثلاثة أيام. لم أكن لأجرؤ على الاقترابِ منها في لقاءٍ خاص، لذا فكَّرت أنني قد أتمكَّن من التحدث معها قليلًا بعد توقيعِ الكتاب. شعرتُ أن عثوري على هذا الملصق بمثابة علامة، لذا قرَّرتُ اغتنام الفرصة.

لم يكن هناك صورة على الملصق، لذا في تلك الليلة حاولتُ العثور على صورة لها على الإنترنت. تذكَّرتها بشكل مبهم -سيدة طويلة ونحيلة وواثقة من نفسها، أجابت جميع أسئلتي بهدوء في أثناء المقابلة في ذلك الوقت- لكنني لم أتمكَّن من تذَكُّر ملامح وجهها. وجدت بضع صور حديثة، ودرستها لبضع دقائق، ولاحظت جبينها العالي، ونظرتها الباردة، والتعبير القاسي على فمها. لم تكن جميلة من عدة نواحٍ، لكنني أستطيعُ تفهُّم لماذا وقع ريتشارد فلين في حبها بجنون.

قبلَ ثلاثةِ أشهر، وبِناءً على طلبِ جون كيلر، ذهبتُ إلى أرشيف قسم شرطة ويست ويندسور، ونسختُ الوثائق المتعلقة بقضية ويدر. وذهبت الآن إلى قسم شرطة برينستونُ، وسألت عن قضية سيمونز، حين اتُّهم ديريك بقتل زوجته. ذكر ريتشارد فلين القضية في مخطوطته بشكلٍ عابرٍ فحسب، قائلًا: إنه سمع التفاصيل من لورا باينز. لم يكن هناك ضرر من إلقاءِ نظرة على الملف. وقعت الجريمة في عام 1982، بعد بضع سنوات من انتقالي إلى قسم ويست ويندسور.

تحدَّثتُ عبر الهاتف مع بروكاتو رئيس الشرطة، الذي كنتُ أعرفه منذ أيام عملي هناك، وسمح لي بمراجعةِ الأرشيف دون طرح الكثير من الأسئلة. أعطاني رجل في الاستقبال بطاقةَ زائر، ثم نزلتُ إلى الطابق السفلي، حيث حُفِظت الأرشيفات بجانب غرفة الأدلة.

بالنسبة لتخطيط الأرشيف، لم يتغيَّر شيء منذ فترة عملي هناك. ضابط مسن يدعى فال مينسكي، أعرفه أيضًا، وضع صندوقًا قديمًا من الكرتون بين يدي، وأخذني إلى مكتب مؤقت، حيثُ يوجد طاولة مع مصباح، وآلة تصوير زيروكس قديمة، وكرسيان، وبعض الأرفف الفارغة. أخبرني أنَّ بإمكاني أخذ وقتي في مراجعة الأوراق التي طلبتها، وترك لي المجال بعد أن أشار إلى أنَّ التدخين ممنوع.

على مدار الساعة التالية، بينما أقرأ الملف، أدركتُ أن رواية فلين دقيقة، رغم أنها موجزة.

لم يعترف ديريك سيمونز بالجريمة، وجاء حكم القاضي بأنهُ غير مذنب بسبب الجنون، بناءً على فحص أجراه جوزيف ويدر. احتُجِزَ سيمونز في سجن ولاية نيوجيرسي بعد اعتقاله، ثم نُقِلَ إلى مستشفى ترنتون للأمراض النفسية، حيث وقَع الحادث الذي تسبَّبَ في فقدانه للذاكرة.

وبعد عام، وكان قد تعافى جسديًّا، نُقِل إلى مستشفى مارلبورو للأمراضِ النفسية، حيث أُطلق سراحه بعد عامين. وكتب جوزيف ويدر التقييمات التي أدَّت إلى قرارِ القاضي بنقل سيمونز إلى مارلبورو ثم إطلاق سراحه. وبعد تسريحه تحت المراقبة، كان هناك وثيقة واحدة أخرى في الملف: قرار القاضي برفع المراقبة، في عام 1994، أيضًا بناءً على تقييم خبير.

دوِّنتُ أسماءَ الخبيرين الآخرين الذين وقَّعا مع ويدر التقرير الذي أخرجَ سيمونز من السجن في عام 1983. كانت إحداهما تدعى ليندسي جراف، والآخر جون تي كولي.

ثم لاحظتُ قائمة بأرقام الهواتف.

لم يُقبَض على سيمونز على الفور؛ بل احتُجِز بعد ثمانية أيام من وفاة زوجته. تضمَّنت القائمة أرقام المكالمات التي تم إجراؤها، وتلقِّيها في منزل عائلة سيمونز قبل أسبوع من الجريمة، وحتى اعتقال ديريك. نسختُ القائمة، ووضعتها في حقيبتي.

توفي أحد زملائي الذين تعاملوا مع قضية سيمونز -نيكولاس كوين- بنوبة قلبية في التسعينات. أما الرجل الآخر في الأوراق، فربما انضمَّ إلى القسم بعد مغادرتي. وكان اسمه إيان كريستودولوس.

أعدت الصندوق إلى الضابط مينسكي، الذي سألني إذا وجدتُ ما أبحثُ عنه.

قلت: «لستُ متأكدًا بعد. هل تعرفُ المحقق كريستودولوس، أحد الرجال الذين عملوا على القضية؟ كنت أعرف الآخر -كوين- لكنهُ توفي قبل نحو خمسة عشر عامًا».

- بالطبع أعرفه. انتقل إلى شرطة نيويورك قبل خمس سنواتٍ تقريبًا.

- هل لديك أي فكرة كيف يمكنني الحصول على رقمه؟

- أمهلني لحظة.

- شكرًا جزيلًا، فال!

- أي شيء من أجل صديق.

أجرى مينسكي بعض المكالمات، ورافقها بنكات حول الزوجات المخادعات، والأمهات السكارى، وكان يغمزُ لي وكأنه يعاني تشنُّجًا. وأخيرًا، ظهرت على وجهه المتجعد والمحمر تعابير انتصار، وكتب رقم هاتفٍ محمول على ورقة ملاحظات، وسلَّمها لي.

- على ما يبدو، لم يتقاعد بعد. يعمل في مركز الشرطة رقم 67 في بروكلين، في شارع شنايدر. ها هو الرقم.

أدخلت رقم كريستودولوس في ذاكرة هاتفي المحمول، وشكرته، وغادرت.

رتبتُ لقاءَ إيان كريستودولوس ذاك ظهيرة اليوم في مقهى بالقرب من بروسبكت بارك، وفي تلك الأثناء حاولتُ تتبع الخبراء الآخرين.

بعد بحثٍ طويل عبر الإنترنت، اكتشفتُ أن هناك طبيبة نفسية تُدعى -ليندسي جراف- تعملُ في المدينة، في شارع إيست 56. وللعيادة موقع إلكتروني، حيث ألقيت نظرة على السيرة الذاتية للدكتورة جراف. كان هناك احتمال بنسبة 99% أنني وجدتُ الشخص الصحيح، بين عامي 1981 و1985، عملت ليندسي جراف كخبيرة لدى مكتب الطب الشرعي الحكومي، وبعد ذلك درَّست في جامعة نيويورك لمدة ست سنوات. وافتتحت العيادة مع زميلين لها في عام 1998.

اتصلتُ بالعيادة، وحاولتُ الحصول على موعد، لكن المساعدة أخبرتني أن الدكتورة جراف لن تكون متاحة حتى منتصف نوفمبر تقريبًا. أخبرتها أن لدي مشكلة خاصة، وأود التحدث مع الدكتورة جراف عبر الهاتف. تركتُ لها رقمي، وقالت إنها ستنقلُ الرسالة.

لم أكُن قد تمكَّنتُ بعد من العثور على أي أثر لجون تي. كولي عندما وصلتُ إلى لقائي مع كريستودولوس تلكَ الظهيرة. كان الرجلُ قصيرَ القامة، وممتلئ الجسم، ذا شعرٍ داكن، ومن النوع الذي ينمو له لحية

يومية بعد ساعة من الحلاقة. وعلى مدى الساعة التالية، أخبرني بصوت غير ودود بما يتذكره عن قضية سيمونز.

قال: «كانت أول قضية مهمة لي. وكنتُ قد قضيت سنة ونصفًا في القسم، ولم أتعامل إلا مع قضايا بسيطة حتى ذلك الحين. طلبت من كوين أن يأخذني كشريكه حين وقعت الجريمة. كما تعلم، لا تنسى أول قضية قتلٍ لك مطلقًا، تمامًا كما لا تنسى أول حبيبة. لكن ذلك اللعين سيمونز أفلتَ منها».

قال إنه لم يشكَّ قط في أن ديريك سيمونز قد قتلَ زوجته، والدافع هو أنها كانت على علاقة غرامية. وقد بدا سيمونز عاقلًا، لكنهُ كان ماكرًا جدًّا، لذلك جاءت نتيجةُ التقييم النفسي مثيرة للاشمئزاز بالنسبةِ لجميعِ أفراد القسم.

- كانت الأدلة قوية، لذلك لو ذهبت القضية إلى المحكمة لحُكِمَ عليه بالسجن مدى الحياة دون إمكانية الإفراج المشروط، لا شك في ذلك. لكن لم يكن هناك شيءٌ يمكننا فعله. هذا هو القانون- لا يمكن لأحد تجاوز حكم الخبراء. أخذوه إلى المستشفى، وخرج من هناك بعد بضع سنوات. لكنني لا أعتقدُ أن الرب كان غافلًا، لأنه مما سمعت، فإنَّ شخصًا ما ضربهُ على رأسه في أثناء وجوده في المستشفى، وفقدَ عقلهُ بالفعل. لقد قاموا بتغيير القانون بعد عامٍ واحد فقط، في عام 1984، بعد أن بُرِّيء الرجل الذي حاول قتل الرئيس ريجان بدافع الجنون، عندما أصدر الكونجرس تعديل قانون الدفع بالجنون.

بعد أن غادر كريستودولوس، وعدت إلى المنزل، واصلتُ البحث عن أي أثر لكولي، لكن دون جدوى. لم تتصل ليندسي جراف بي، لكنني لم أكن حقًّا أنتظر منها ذلك.

قرابة العاشرة مساءً، وبينما أشاهد حلقة قديمة من (تو آند آ هاف مِن Two and a Half Men)، اتصلت ديانا.

قالت بعد تبادل المجاملات المعتادة: «لقد وعدتني أنك ستقوم بالمعروف الذي طلبته منك. لقد مضى أسبوعان، أو ثلاثة منذ آخر مرة تحدثنا فيها».

تذكَّرتُ ما تتحدَّثُ عنه: كان من المفترض أن أعثر على شهادة من شركة عمِلت بها منذ سنوات؛ كانت بحاجة إليها لتقديم طلب تقاعدها. تمتمتُ بعُذر، ووعدت أن أفعل ذلك في اليوم التالي.

قالت: «كنت أتأكَّد فحسب. لا داعيَ للاستعجال. ربما أتمكَّن من السفر لبضعة أيام، والقيامُ بذلك بنفسي في الأيام المقبلة. هل أنت بخير؟».

في كل مرة أسمعُ صوتها، ينتابُني الشعور بأننا انفصلنا قبل بضعةِ أيامٍ فحسب. أخبرتها أنني بخير، وأنني سأحضر لها الشهادة، ولكنني ببساطة نسيت الأمر، ولم أتذكره إلا الآن.

ثم أدركتُ السبب الحقيقي لاتصالها، فسألتُها: «مات اتصل بكِ، أليس كذلك؟».

لم تقل شيئًا لبضع ثوانٍ.

- ذلك الثرثار ليس لديه أي حق في...

- روي، هل هذا صحيح؟ لا يوجد أي شك؟ هل طلبت رأيًا ثانيًا؟ هل يوجد أيُّ شيءٍ يمكنني فعلهُ لأجلك؟

شعرتُ بالحرج، وكأنَّ ديانا اكتشفت شيئًا مخزيًا عني. أخبرتها أنني لن أستطيع أبدًا تقبُّل شفقتها. ولم أعتقد أن أفضل شيء لها هو أن تقضي سنواتها الأخيرة مع زومبي لا يستطيعُ حتى تذكُّر اسمه.

- دي، لا أريد الحديث عن هذا. لا الآن، ولا مطلقًا.

- أودُّ أن آتي لبضعةِ أيام. ليس لديَّ أي شيءٍ آخر أفعله سوى ملء هذا الطلب اللعين، وحتى هذا يمكنه الانتظار.

- لا.

- أرجوك، يا روي.

- أنا أعيشُ مع شخصٍ ما، يا دي.

- لم تخبرني بأيِّ شيءٍ عن هذا حتى الآن.

- انتقلت للعيشِ معي الأسبوعَ الماضي. التقينا قبلَ شهرين. اسمها ليونورا فيليس، إنها من لويزيانا.

- ليونورا فيليس من لويزيانا... بإمكانك أن تقولَ ميني ماوس من ديزني لاند. لا أصدِّقُك، يا روي. لقد عشتَ وحيدًا منذ انفصالنا.

- أنا جادٌّ، يا دي.

- لماذا تفعلُ هذا، يا روي؟

- عليَّ أن أغلق الآن، آسف. سأحضر لك الشهادة، أعدك.

- سآتي، يا روي.

- لا تفعلي ذلك، دي. أرجوك.

أغلقتُ الهاتف، واستلقيتُ على الأريكة، وأغمضتُ عيني بشدَّة حتى آلمتني، وبدأت تدمعان.

لم تكن العلاقاتُ بين الأعراق شائعة في أوائل السبعينات، حتى في الشمال الشرقي. أتذكَّرُ النظرات التي رمقتنا حين ندخل إلى حانة، بعضها كان عدائيًّا، وبعضها غاضبًا. كانت هناك أيضًا نظرات متواطئة، وكأن ديانا وأنا وقعنا في الحب، لإثبات وجهة نظرٍ ما فحسب. كان علينا نحن الاثنين التعامل مع ذلك، واستطعتُ على الأقل أن أواسي نفسي بأنني لن أضطر أبدًا لقضاءِ عيد الميلاد مع أهل زوجتي في ماساتشوستس.

لكن فيما بعد فقدتُ كل شيء عندما بدأتُ الشرب. حين كنت أشرب، لم أكن فظًّا فحسب، بل شريرًا بحق. استهوتني إهانتها، ولومها على كل شيء، وقولِ أشياءَ كنت أعلم أنها ستجرحها للغاية. وحتى بعد مرور كل هذا الوقت، عندما أتذكَّرُ الحال التي كنتُ عليها في ذلك الوقت، لا يزال شعوري بالاشمئزاز يعصف بمعدتي.

نسيانُ كل ذلك هو الشيء الجيد الوحيد الذي سيجلبهُ عليَّ مرضي، سأتوقَّفُ عن التفكير في تلك السنوات، لأنني لن أتذكَّر حتى وجودها.

تمكَّنتُ من التوقُّف عن الشرب بعد ثلاثِ سنواتٍ من الطلاق، بمساعدة العديد من اجتماعات المدمنين المجهولين (AA)، وبفضلِ مدة قضيتُها في عيادة في ألباني؛ وتوجَّبَ عليَّ أيضًا تخطِّي انتكاستين بصعوبة. لكنني كنت أعلم أنني ما زلتُ مدمنًا للكحول، وأنني سأظلُّ مدمنًا حتى النهاية. أعلمُ أن اللحظة التي أدخل فيها حانة، وأطلبُ شرابًا باردًا، أو جاك! فإنني لن أتمكَّن أبدًا من التوقف. أغراني فعلُ ذلك أحيانًا، خاصةً بعد تقاعدي مباشرة، عندما كنتُ أفكِّر أنه لا شيء مهم بعد الآن. لكن في كل مرة قلتُ لنفسي: إن هذه ستكون أقبح طريقة ممكنة للانتحار، هناك طرقٌ أخرى، أسرعُ وأنظف.

ارتديتُ ملابسي، وذهبتُ للتنزُّه في الحديقة، التي على بُعدِ ثلاثمائة قدم تقريبًا من منزلي. كانت على تلَّة، وفي وسطها يوجد مرجٌ كبير به مقاعد خشبية أحبُّ الجلوسَ عليها. من هناك، استطعتُ رؤيةَ أضواءِ المدينة؛ وجعلني ذلكَ أشعرُ وكأنني أطيرُ فوقَ أسطحِ المنازل.

جلستُ هناك لمدة نصف ساعة تقريبًا، أشاهدُ الناس الذين يمشون مع كلابهم، أو يأخذون الطريق المختصر إلى محطة الحافلات في أسفل التل. ثم عدتُ ببطءٍ نحو المنزل، أتساءلُ ما إذا ارتكبتُ أحمقَ تصرُّفٍ في العالم عندما قلت لديانا ألا تأتي لرؤيتي.

أربعة

وصلتُ إلى مكتبة ماكنلي جاكسون في الساعة 4:45 مساء يوم الأربعاء، قبل رُبع ساعة من بدء الحدث. نشرَت لورا باينز كتابها الجديد عن التنويمِ المغناطيسي قبلَ أقلِّ من شهر، وكانت المحاضرة التي ألقتها بعد ظُهرِ ذلك اليوم جزءًا من جولتها الترويجية. اشتريتُ نسخة من الكتاب، وجلستُ في الطابق السفلي. حيثُ امتلأت معظم المقاعد.

في وقتٍ مبكّرٍ من ذلك الصباح، توقّفتُ عند الشركة التي ديانا بحاجة إلى الشهادة منها. وعدتني إحدى الموظفات أنها سترسلها في مرفق بالبريد الإلكتروني في اليوم التالي، لذا أرسلتُ لديانا رسالة نصية، لأخبرها بأن المشكلة قد حُلَّت، لكنها لم ترد، فاعتقدتُ أنه ربما يكون هاتفها مغلقًا.

بدَت لورا أفضلَ مما هي عليهِ في الصور التي وجدتُها على الإنترنت، وكان من الواضح أنها متحدِّثة متمرِّسة. استمعتُ إليها باهتمام، رغم أنني كنتُ متوترًا، أتساءلُ كم ثانية ستستغرقُ، لإبعادي عندما تدركُ من أنا، ولماذا أتيت.

انتهت المحاضرة، وبعد جلسة قصيرة للأسئلة والأجوبة، تشكَّل طابور لتوقيع الكتب. وكنتُ آخرَ شخصٍ يُسلِّمها نسخة، فنظَرَت إليَّ بتساؤل.

قلت: «فريمان، روي فريمان».

قالت بابتسامة: «إلى فريمان، روي فريمان».

ثمّ وقَّعت الكتاب.

- شكرًا.

- وأنا أشكرك. هل أنت طبيبٌ نفسي، سيد فريمان؟

- لا، أنا محقِّق سابق في جرائم القتل. حقَّقتُ في وفاة البروفيسور جوزيف ويدر قبلَ نحو ثلاثينَ عامًا. ربما لا تتذكرينني، لكنني أجريتُ مقابلة معكِ حينها.

حدَّقت إلى وجهي، وفتحت فمها لتقولَ شيئًا، ثمَّ غيَّرت رأيها، ومرَّرت يدها اليسرى عبر شعرها. نظرت حولها، ورأت أنني آخر شخصٍ يرغبُ في توقيع.

أعادت وضع غطاءِ القلم، وأدخلته في حقيبة يدها على الكرسيِّ المجاور لها. وكانت هناك امرأة في منتصف العمر، بشعر مصبوغ باللون البنفسجي، تراقبُ من كثب على بُعدِ بضعة أقدام.

قالت للمرأة البنفسجية، التي نظرت إليها بإعجاب: «أعتقدُ أنني سأتمشَّى قليلًا مع السيد فريمان».

- هل أنتِ متأكدة؟

- أنا متأكدة تمامًا. سأتصلُّ بكِ صباح الغد. اعتنِ بنفسكِ.

ساعدتُها في ارتداءِ معطفها، ثم التقطت حقيبتها وخرجنا. كان الظلامُ قد حل، والهواءُ برائحةِ المطر.

قالت: «ديبي هي وكيلتي. وأحيانًا تتصرَّفُ مثل الدب الأم، كما تعلم. هل استمتعتَ بالمحاضرة، سيد فريمان؟»

- كانت حقًّا مثيرة للاهتمام.

- لكن ليس هذا السبب الذي جئت لأجله، أليس كذلك؟

- كنتُ آملُ أن تتاح لي فرصة للتحدث معكِ لبضع دقائق.

- عادةً لا أوافقُ على التحدُّث إلى أي شخص بعد محاضرة، لكن بطريقةٍ ما شعرتُ وكأنني كنتُ أنتظرُك.

مررنا بمحاذاةِ مقهى زانيللي، وقبلت دعوتي للدخول. طلَبت كأسًا من النبيذ الأحمر، وطلبتُ قهوة.

- أنا أستمع، سيد فريمان! بعد أن وافقتُ على التحدُّث مع صحفي حول هذه القصة قبل بضعة أشهر، أدركتُ أن ساعي البريد يطرُقُ الباب مرتين. فعرفتُ أنني سألتقي بشخصٍ يسألني عن زمنٍ مضى. يمكنك تسميته حدسُ الأنثى. هل تعلم أن ريتشارد فلين حاول كتابة كتاب عن قضية ويدر؟

- أجل، أعلم. قرأتُ جزءًا من تلك المخطوطة. جون كيلر، نفس الصحفي، أعطاني نسخة. لكن حدث شيءٌ ما مؤخرًا، ولهذا السبب أردتُ الحديث معك.

أخبرتها عن فرانك سبول، وروايتهُ عما حدثَ تلك الليلة. استمعت باهتمام، دون أن تقاطعني.

قالت: «ربما لم يصدِّقني الصحفي حين أخبرتهُ أنني لم أنخرط في علاقة حب مع ريتشارد فلين، ولا بالطبع مع البروفيسور ويدر. لكن على أيِّ حال، ما يقوله ذلك الرجل يبدو منطقيًّا، أليس كذلك؟».

- د. ويستليك! لا أعتقدُ أن فرانك سبول قتلَ البروفيسور. بينما كان سبول هناك، دخل شخصٌ ما يملُك مفاتيحَ المنزل. وكان البروفيسور لا يزالُ على قيدِ الحياة في تلكَ اللحظة. ذلكَ الشخص كاد أن يلتقي بسبول وجهًا لوجه، لكنَّ سبول تمكَّنَ من الهرب عبر البابِ الزجاجي في اللحظة الأخيرة. أكرِّر: كان البروفيسور لا يزالُ على قيدِ الحياة. أرادَ سبول أن يلقِّنه درسًا فحسب. لكن عندما يكونُ الرجل فاقدًا للوعي على الأرض، وتضربهُ بقوَّة على رأسه بمضرب بيسبول، فهذا يعني أنك تنوي قتله. على أيٍّ حال، الشخص الذي ظهر لم يتصل بالإسعاف. لماذا؟ أعتقدُ أن ذلك الشخص تصرَّف كمفترس انتهازي، واستغلَّ الوضع. كان ويدر فاقدًا للوعيِ على الأرض، والباب الزجاجي مفتوحًا، لذا من الممكنِ أنَّ شخصًا ما اقتحمَ المكان، وضربهُ، وهرب. كان من الممكن اتهامُ ذلك الشخص بالجريمة.

- وتريدُ سؤالي ما إن كنتُ أنا ذاكَ الشخص، المفترس الانتهازي، كما وصفت؟

لم أجب، لذا واصلت: «سيد فريمان! في تلك الليلة لم أذهب إلى منزل البروفيسور. لم أكن موجودة هناك لعدة أسابيع».

- سيدة ويستليك! صديقتُكِ تلك، سارة هاربر، أمَّنت لكِ حُجَّة مزيفة، وكذبت علينا. وأنتِ أيضًا كذبتِ علينا. جون كيلر تحدَّثَ معها، وأعطاني ملاحظاته. هاربر الآن في ماين، لكنها قد تشهدُ إذا لزِمَ الأمر.

- شككتُ أنَّك عرفت ذلك. سارة كانت إنسانة هشَّة جدًّا، يا سيد فريمان! لو أنَّك ضغطت عليها حينها لانهارت فورًا، وأخبرتكَ بالحقيقة. ولقد جازفتُ عندما طلبتُ منها أن تقول لك: إننا كنا

معًا. لكنني كنتُ أحاولُ ألّا أظهرَ في الصحف، وألا أتعرَّضَ للمضايقة من الصحافة. لم أرغب في أن تُثارَ كل أنواع التلميحات القذرة حولي، وحول البروفيسور. وهذا كلُّ شيء. لم أكن خائفة أن أُتَّهم بالجريمة، ولكن كنت أحاولُ تجنُّب فضيحةٍ فحسب.

- أين كنتِ إذًا بعد ظهرِ ذلكَ اليوم، بعد أن غادرتِ المحاضرات؟ زعمَ ريتشارد فلين في مخطوطتهِ أنكِ لم تكوني معه. وربما ليس مع حبيبك تيموثي ساندرز، وإلا لطلبتِ منه أن يشهد...

قالت بلهجة مقتضبة: «كنت في عيادة في بلومفيلد في ذاك المساء، خضعتُ لإجهاض، فقد حَمَلتُ من تيموثي عندما كان على وشكِ السفر إلى أوروبا. وأخبرتهُ عندما عاد، ولم يبدُ متحمِّسًا على الإطلاق. وأردتُ حلَّ المشكلة قبل العودة إلى المنزل لقضاءِ العطلات، لأنني كنتُ متأكِّدة أنَّ والدتي ستلاحظُ ما يحدث. لم أُخبِر حتى تيموثي إلى أين سأذهب، وذهبتُ إلى العيادةِ وحدي. وعُدتُ إلى المنزل متأخرة، وتشاجرتُ بشدَّة مع ريتشارد فلين. لم يشرب كثيرًا، لكني أعتقدُ أنه كان مخمورًا. لقد قضى المساء مع البروفيسور، وزعم أنه أخبرهُ أنني عشيقته. فحزمتُ أمتعتي، وذهبتُ إلى منزلِ سارة. خططتُ للانتقال بعد العطلات على أي حال. هل تفهم الآن لماذا لم أرغب في إخبارك أين كنت ذلك اليوم، ولماذا طلبتُ من سارة أن تقولَ: إننا كنا معًا؟ كنتُ حاملًا، والناس كانوا يثرثرون حول علاقة حب مع البروفيسور، لذا كان بمقدورِ الصحافة أن تربط بين...».

- الصحفي، كيلر، وصل إلى استنتاج أنكِ سرقتِ مخطوطة ويدر، ونشرتها تحت اسمكِ.

- أيُّ مخطوطة؟

- مخطوطة كتابكِ الأول، الذي نُشر بعد خمسِ سنوات. في مخطوطته، قال فلين: إنك أخبرته عن كتاب مهم جدًّا كان ويدر يعمل عليه، والذي سيكونُ نقطة تحوُّلٍ كبيرة، شيءٌ عن الروابط بين المحفزات العقلية، وردود الفعل. في الواقع، هذا هو موضوعُ كتابكِ الأول، أليس كذلك؟

قالت وهي تهزُّ رأسها: «أجل، هو كذلك، لكنني لم أسرق المخطوطة من البروفيسور. المخطوطة التي تتحدَّثُ عنها ليس لها وجود، يا سيد فريمان! قدَّمتُ للأستاذ مخططًا لأطروحتي، والفصول الافتتاحية. وتحمَّس جدًّا لفكرتي، وقدَّمَ لي بعض المواد الإضافية، وبعد ذلك بدأت الأمور تختلطُ تدريجيًّا، وبدأ يعتقدُ أنها عملهُ الخاص. وجدتُ المقترح الذي أرسلهُ إلى دارِ نشر، حيثُ زعم أنَّ المخطوطة جاهزة للتقديم. في الواقع، لم يكن لديه مشروعُ كتابٍ حقيقي، بل فقط تلك الفصول من عملي، ومزيجٌ غير متماسك من مقتطفات كتبه القديمة».

- هل لي أن أسألكِ متى، وكيف وجدت المقترح الذي تتحدثين عنه؟

أخذت رشفة من النبيذ، ثم قالت: «أعتقدُ أنه طلب مني ترتيبَ بعضِ أوراقه، دون أن يعرف أنَّ المقترح كان من بينها».

- ومتى حدث ذلك؟ لقد قلتِ للتوِّ: إنك لم تذهبي إلى هناك لفترة من الوقت.

- حسنًا، لا أستطيعُ أن أتذكَّر متى وجدتُ المقترح، ولكن كان هذا هو السبب الرئيسي لتجنُّبي زيارته. لقد تشاجر مع الأشخاص الذين كان يعملُ معهم، ولم يستطع التركيز على إنهاءِ كتابٍ آخر. وفي الوقت نفسه، أراد أن يُبهِر الجامعة التي خطَّط للعملِ فيها العام التالي. أرادَ العودة إلى أوروبا لفترة.

- وأيُّ جامعة كانت تلك؟

- أعتقدُ أنها كامبريدج.

- من هؤلاء الأشخاص الغامضون الذين عمِلَ معهم؟

- حسنًا، لم يكونوا غامضين كما أحبَّ البروفيسور أن يعتقد. مما أعرفه، فقد تعاونَ مع قسم الأبحاث في وكالة عسكرية، كانت تدرُس التأثيرات طويلة الأمد للصدمات النفسية التي تعرَّض لها الأشخاص الذين أُجبِروا على التصرُّف في ظروف قاسية. في صيف عام 1987، انتهى العقد. ولكنَّ البروفيسور كان يميلُ أحيانًا إلى التصرُّف وكأنه ملكُ الدراما. بطريقةٍ ما، أحبَّ أن يصدِّق تعرُّضه للضغط من تلك الوكالة، متورِّطًا في جميع أنواع الشؤون السرية، ويتعرَّض للمضايقات، لأنه يعرفُ أكثر من اللازم.

ربما كان هذا تعويضًا بلا وعي عن حقيقة أن مسيرتهُ المهنية في تراجع. قبلَ بضع سنواتٍ من الفاجعة، أصبحت البرامج الحوارية الإذاعية، والتلفزيونية، والمقابلات في الصحف أكثر أهمية له من مسيرته العلمية. فقد أشعرهُ بالزهو أن يتعرَّف عليه الناسُ في الشارع، وشعرَ في الجامعة بأنه متفوِّق على الأساتذة الآخرين. بعبارة أخرى، لقد أصبحَ نجمًا. ولكنهُ أهملَ الجزء المهم حقًّا من عمله، وهذا قد أثَّر عليه– لم يكُن لديه شيءٌ جديد ليقوله، وبدأ يُدركُ ذلك.

- لكن سارة هاربر...

- كانت سارة تواجه مشكلات كبيرة، سيد فريمان! لا تصدِّق أنها أخذت إجازة، لأن البروفيسور ويدر قد قُتِل. لقد عشنا معًا لمدة عام، وأنا أعرفها جيدًا.

- إذًا، الكتاب الذي نشرته لم يكن مشروع ويدر؟

- بالطبعِ ليس كذلك، لقد نشرتُ كتابي حالما تمكّنتُ من إنهائه، بعد أطروحتي. واليوم، أعتقدُ أنه كان سيئ التخطيط، وأتعجَّبُ من الشهرة التي حصلَ عليها في ذلك الوقت.

- لكنَّ الفصل الأول من كتابك مشابهٌ بنسبة مئة بالمئة للفصل الذي أرسلهُ البروفيسور إلى دار النشر. كيلر حصل على نسخة من مقترح البروفيسور. لقد قلتِ: إنك رأيته.

- ذلك لأن البروفيسور قد سرقه مني، أخبرتُك بذلك.

- إذًا، ويدر كان على وشكِ سرقةِ عملك... لماذا لم تحاولي فعل شيء؟ عندما وجدتِ تلك النسخة، كان المقترح قد أُرسِلَ بالفعل إلى دار النشر. إذا لم يُقتَل، ربما كان سينشرُ الكتاب باسمه؛ أعني، كتابك.

- لو اتهمتُ شخصية بهذا القدر من الأهمية بالاحتيالِ الفكري، لاعتبرني الناسُ مصابة بجنون العظمة. كنتُ نكرة، وكان واحدًا من أعظم علماء النفسِ شأنًا في البلاد.

كانت محقَّة. ولكن من جهةٍ أخرى، كانت شخصًا حازمًا جدًّا، وهذا عمل حياتها الذي نتحدَّث عنه، وفرصة للحصول على الاعتراف أنها الأفضل. لم يكن من الصعب تخيُّل ما كانت ستفعله لو حاول أحدهم إيذاءها بأي شكل من الأشكال، خاصةً فيما يتعلَّقُ بمسيرتِها المهنيَّة.

- حسنًا، دعينا نعُد إلى ليلة مقتل البروفيسور. في ذاك المساء، بعد أن تشاجرتِ مع فلين وغادرتِ، هل ظلَّ في المنزل؟

لم تُجب على الفور.

قالت أخيرًا: «لا. أخذ معطفهُ، وغادر المنزل قبلي».

- هل تتذكَّرين التوقيت؟

- وصلتُ إلى المنزل قرابة الثامنة مساءً، ووصلَ هو بعد العاشرة بقليل. أعتقدُ أنه خرجَ مرة أخرى قرابة الحادية عشرة.

- إذًا، كان لديهِ الوقتُ للعودةِ إلى وست وندسور بحلولِ منتصف الليلِ تقريبًا.

- أجل.

- هل اتصلَ بسيارة أجرة قبل مغادرته؟

- ربما، لا أستطيع التذكُّر.

- هل تشاجر مع البروفيسور في تلك الليلة؟

- لا أتذكَّرُ جيدًا... لقد بدا غاضبًا جدًّا. غادر وهو يصفُق الباب بعد أن أخبرته أنه إذا طلب مني البروفيسور إقامة علاقة معه، ربما كنتُ سأفعلُ ذلك، لكنه لم يطلب قط. تلك هي الحقيقة. في البداية، وجدتُ الأمر مسليًا أن ريتشارد كان واقعًا في حبي، لكنهُ أصبح مزعجًا. لقد تصرَّف وكأنني خُنته، أو شيئًا من هذا القبيل. وأردتُ وضع حدٍّ للأمر مرة واحدة، وإلى الأبد. للأسف لم أنجح. فقد ضايقني لفترة طويلة بعد ذلك، حتى بعد أن غادر كلانا برينستون.

- كانت الأوراق مبعثرة في كل مكان، والأدراج مفتوحة، كما لو أنَّ القاتل، أو شخصًا آخر فتَّش عن شيءٍ ما على عجل. لكنه لم يكن سبول، لأنهُ غادر الغرفة عبر الباب الزجاجي بعد سماعهِ شخصًا عند المدخل. حسنًا، ربما كان فلين، والذي امتلك الوقت للعودةِ إلى هناك. لكن إذا كان الأمرُ كذلك، لماذا سيهتمُّ بتلك الأوراق؟

- لا أعرف، سيد فريمان! لقد أخبرتك بكل ما أتذكره.

- عندما اتصل بكِ العامَ الماضي، هل اعترف لكِ بشيء؟ هل أخبرك بأي شيءٍ لم تعرفيه من قبل عما حدث في تلك الليلة؟

- لا، ليس تمامًا. كان مضطربًا، وكلامهُ غير واضح. كل ما فهمته هو اتِّهامه لي بالتورِّط في مقتل ويدر، وأنني استخدمتهُ لتحقيقِ هدفي الدنيء. كان مثيرًا للشفقة أكثر من كونهِ مخيفًا.

لم تعتذر قط عن النهاية المأسوية لفلين، أو حتى عن مقتل البروفيسور، ولا مرة. كان صوتها جافًّا، وتحليليًّا، وافترضتُ أن جُعبتها ملأى بالإجابات المعدَّة بعناية.

غادرنا الحانة، وساعدتُها في العثورِ على سيارة أجرة. كنتُ قد نسيت الكتاب الموقَّع على الطاولة، لكنها ابتسمت، وأشارت إلى أنَّ قراءته ليست مناسبة لروادِ مثلِ هذا المكان.

سألتني قبل أن تصعد إلى السيارة: «ماذا تنوي أن تفعلَ الآن بشأن القصة كلها؟».

قلت: «ليس لديَّ أي فكرة. لا شيءَ على الأرجح. بعد اعتراف سبول، حاول محاميه إعادةَ فتح القضية، لكنهُ لم ينجح. سيتمُّ إعدامهُ في غضونِ أسابيع قليلة– نهاية الطريق. يبدو أن القضية ستبقى مغلقة».

بدت مرتاحة. وصافحتني، ثم دخلت سيارة الأجرة.

تفحَّصتُ هاتفي، ولاحظتُ أنني تلقيتُ رسالة نصية من ديانا. قالت: إنها ستتصلُ في المساء التالي، وأعطتني رقمَ رحلتها. أجبتُها أنني سأستقبلها في المطار، وتوجَّهتُ إلى المرأب حيث تركت سيارتي، وقدتُ إلى المنزل.

في صباح اليوم التالي، وجدتُ رقم الهاتف مصادفةً تقريبًا.

كنتُ قد نسختُ قائمة المكالمات التي أُجريت واستُقبلت على هاتف ديريك سيمونز قبل وبعد مقتل زوجته، وقررتُ إلقاءَ نظرةٍ عليها. وجدتُ 28 مكالمة مسجلة في خمسة أعمدة: الرقم، العنوان، رقم المشترك، وتاريخُ ومدة المكالمة.

أحد العناوين بدا مألوفًا، وجذب انتباهي، لكنَّ الاسم لم يبدُ مألوفًا - جيسي إي. بانكس. استمرت المكالمة لمدة 15 دقيقة و41 ثانية. ثم تذكَّرتُ ما هو العنوان، لذا فحصت بعض الأمور الأخرى. كان من الواضح أنه في ذلك الوقت، عام 1983، لم يكن هذا الاسم والرقم ذوا صلةٍ بالنسبة للمحققين، لكنه كان مهمًّا جدًّا بالنسبة لي. ولكن في ديسمبر 1987، عندما بدأتُ التحقيق في وفاةِ ويدر، لم يخطر حتى ببالي ربطُ إحدى القضايا بالأخرى، بينما وقعت إحداهما قبل أربع سنوات.

ثم أدركتُ الأمر. تذكَّرتُ التعبير الذي استخدمهُ ديريك سيمونز في ذلكَ اليوم عندما أوقفَ حديثنا، والذي أثار فضولي في ذلك الوقت، وفحصتُ بعضَ التفاصيل على ويكيبيديا.

قضيتُ الساعتين التاليتين في ربط جميع تفاصيلِ القضيتين، قضيةُ سيمونز، وقضية ويدر، وبدأ كل شيءٍ يتطابق. اتصلتُ بمساعد في مكتب المدعي العام لمقاطعة ميرسر، والتقينا في محادثة طويلة، مع جميع أوراقي على الطاولة. واتصلَ بالرئيس بروكاتو، ووثَّق كل التفاصيل، ثم عُدتُ إلى المنزل.

كنتُ أملكُ مسدس بيريتا تومكات عيار 32، احتفظتُ به في الخزانة في الطابق السفلي. فأخرجتُه من العلبة، وتحقَّقت من الأمان، والزناد، وأدخلتُ المشط الذي يحوي سبع طلقات. كنتُ قد حصلتُ عليه كهدية وداع عندما تقاعدت، ولم أستخدمهُ قط. مسحتُ الزيت عنه بقطعة قماش، ووضعتهُ في جيبِ سترتي.

ركنتُ بالقربِ من مركز الشرطة، وانتظرتُ خلف عجلة القيادة لمدة عشر دقائق، أقولُ لنفسي: إنني ما زلت أملك الوقت لتغييرِ رأيي، والعودة، ونسيانِ الأمر برمَّته. ديانا ستصلُ بعد ساعاتٍ قليلة، وقد قمتُ بالفعل بحجزِ طاولة في مطعم كوري في باليسيدز بارك.

لكنني لم أستطع التخلِّي عن الأمر. خرجتُ من السيارة، واتجهتُ نحو المنزل في نهاية الطريق. كانت أغنية قديمة لبيرسي سليد تدورُ في رأسي: «النهاية المظلمة للشارع The Dark End of the Street». كان المسدس في جيبي يصطدمُ بخصري مع كل خطوة، مما أعطاني شعورًا بأن شيئًا سيئًا على وشكِ الحدوث.

صعدتُ الدرجاتِ الخشبية، وقرعتُ الجرس. فتح ديريك سيمونز البابَ بعدَ لحظات، ولم يبدُ متفاجئًا على الإطلاق برؤيتي.

- أوه، أنت مجددًا... تفضَّل بالدخول.

استدار واختفى في الممر، تاركًا البابَ مفتوحًا.

تبعتُهُ، وعندما دخلتُ غرفة المعيشة لاحظتُ حقيبتينِ كبيرتينِ، وحقيبة سفر بجانب الأريكة.

- هل أنت ذاهبٌ إلى مكان ما، يا ديريك؟

- لويزيانا. توفيت والدةُ ليونورا أمس، ويجبُ أن تبقى هناك من أجلِ الجنازة، وبيع المنزل. قالت: إنها لا تريدُ البقاء هناك وحدها، فظننتُ أنه لن يضرَّني بعضُ التغيير. قهوة؟

- شكرًا.

ذهب إلى المطبخ، حضَّرَ القهوة، وعادَ مع كوبينِ كبيرين، ووضع أحدهما أمامي. ثمَّ أشعلَ سيجارة أخرى، وتفحَّصني بنظرةٍ خاوية، مثل لاعب بوكر يحاولُ تخمين أوراق الآخرين.

- ماذا تريدُ مني هذه المرة؟ هل تحملُ مذكِّرة في جيبك، أم أنك تسعدُ برؤيتي فحسب؟

- أخبرتك أنني تقاعدت منذ سنوات، ديريك.

- ومن يعلم، يا رجل.

- متى استعدتَ ذاكرتك، يا ديريك؟ في عام 87؟ قبل ذلك؟ أم أنك لم تفقدها قط، وافتعلت الأمر برمَّته؟

- لماذا تسأل؟

- «حانَ وقتُ اللعب. شكرًا لتعاونكم». قلت: إنك كنت في الملعب عندما قال المذيعُ ذلك، بعد وقفة الحداد التي استمرَّت ثمانية دقائق تكريمًا لثورمان لي مونسون، الذي توفيَ في حادث طائرة في أوهايو. لكن ذلك كان في عام 79، ديريك. كيف عرفتَ أنك كنتَ في برونكس عام 79، في الملعب، وأنك سمعتَ ذلك بنفسك؟

- قلتُ لك: إنه بعد الحادث حاولت تعلم كل شيء عن نفسي و...

- هراء، ديريك! لا يمكنك تعلُّم شيء كهذا، يمكنك تذكُّره فحسب. هل احتفظت بمذكرات في عام 79؟ هل كتبت ذلك؟ لا أعتقدُ ذلك. وشيءٌ آخر: لماذا اتصلت بجوزيف ويدر في الصباح الذي زعمتَ فيه أنك وجدتَ جثَّة زوجتك؟ متى قابلتهُ لأول مرة؟ في الواقع، متى وكيفَ اتفقت معهُ على الحصول على رأي خبير لصالحك؟

مكث فترة يدخِّن ويراقبني بحذر، دون أن يقولَ شيئًا. كان هادئًا، لكن التجاعيد على وجهه بدت أعمق قليلًا مما أتذكر. ثم سأل: «هل تضعُ أسلاك تنصَّت، يا رجل؟».

- لا.

- هل تمانع إذا تحققت؟

- دعني أُرِك أنني نظيف.

وقفت، وقلَّبتُ طيات سترتي، ثم فتحتُ قميصي ببطء، واستدرت.

- أترى، ديريك؟ لا أسلاك.

- حسنًا.

جلستُ مرة أخرى على الأريكة وانتظرتُ حتى يبدأَ بالحديث. كنت متأكدًا من أنه قد انتظر وقتًا طويًلا، ليُخبرَ أحدهُم القصةَ كاملة. وكنتُ أيضًا متأكدًا أنه بمجرَّد مغادرته المدينة، فإنهُ لن يعودَ أبدًا. لقد قابلت العديد من الرجال مثله. هناك لحظة تُدركُ فيها أن الرجل الذي أمامك مستعد لقول الحقيقة، وفي تلك اللحظة كأنك تسمعُ نقرة، كما يحدث عندما تضبُط التركيبة الصحيحة لفتح خزنة. لكن لا يمكنك التسرُّع. عليكَ أن تدع الأمور تأخذُ مجراها.

قال: «أنت شرطيٌّ بارع حقًّا»... ثم توقَّف.

- كيف اكتشفت أنني تحدَّثتُ مع ويدر على الهاتف ذاكَ الصباح؟

- اطلعت على قائمة المكالمات. كان ويدر قد اشترى المنزلَ للتو، ورقمُ الهاتف لم يكن قد نُقل باسمِهِ بعد. المالك السابق، رجل يُدعى جيسي إي. بانكس، كان قد توفي، وبيعَ المنزل عبر وكالة عقارية. وصلت الشرطة إلى طريق مسدود حين فحصت المكالمات، فتخلَّوا عن المسار. وحتى إن عثروا على اسمِ ويدر، فإنه لم يكن له صلة بالقضية في ذلك الوقت. ومع هذا، كنتَ متهوِّرًا. لماذا اتصلت بويدر من رقم منزلك يا ديريك؟ ألم تكن هناك هواتف عمومية قريبة؟

أجاب وهو يطفئُ سيجارته التي دخنها حتى المرشح: «لم أرغب في مغادرةِ المنزل. كنتُ خائفًا أن يراني أحد. وكان عليَّ التحدُّث إلى

الرجل بسرعة. لم أعرف ما إذا كانوا سيلقون القبض عليَّ فور وصولِ الدورية».

- أنت قتلتها، أليس كذلك؟ أعني زوجتك.

هزَّ رأسه نافيًا.

- لا، لم أقتلها، حتى لو استحقَّت ذلك. الأمر تمامًا كما قلت، وجدتها هناك في بركة من الدماء. لكنني كنتُ أعلمُ أنها تخونني...

على مدار النصف ساعة التالية، أخبرني القصة التالية: بعد أن أودعَ مستشفى للأمراض النفسية في سنته الأخيرة من المدرسة الثانوية، انهارت حياته. ظنَّ الجميع أنه مجنون، وتجنَّبهُ زملاؤه في المدرسة بعد خروجه. تخلَّى عن فكرة الذهاب إلى الجامعة، وحصل على وظيفة متواضعة. ترك والده الأسرة ورحل. وبما أن والدته توفيت وهو صغير جدًّا، فقد كان وحيدًا تمامًا، وعاش لمدة عشر سنوات تقريبًا مثل الروبوت، يتناول العلاج الطبي. وقيل له: إنه سيحتاج إلى تناول الدواء لبقية حياته، ولكن كان للدواء آثار جانبية سيئة. وفي النهاية، توقَّف عن تناول الحبوب.

ثم التقى «آن» بعد تسع سنوات من إنهائه المدرسة الثانوية، وتغيَّر كل شيء، على الأقل في البداية. وقع في حبها، وبدت هي وكأنها تحبه. قال: إن «آن» نشأت في دار أيتام في رود آيلاند، وغادرت في سن الثامنة عشرة. عاشت في الشوارع، وتورَّطت مع بعض العصابات، وبحلول سن التاسعة عشرة أصبحت عاهرة في أتلانتيك سيتي. وقد وصلت إلى الحضيض قبل أن تلتقي بديريك بفترة قصيرة، في موقف سيارات أحد الفنادق في برينستون، حيث كان يصلح نظام التدفئة.

انتقلت «آن» للعيشِ معه، وأصبحا عاشقين.

بعد نحو أسبوعين، جاء رجلانِ مسلَّحان إلى الباب، وأخبراه أن الفتاة مدينة لهما بالمال. لم يقل ديريك شيئًا. ذهب إلى البنك، وسحب خمسة آلاف دولار، وهو كل ما يدَّخره، وأعطاهما المال. أخذ الرجلان المال، وقالا: إنهما سيتركانها وشأنها بعد ذلك. وبعد قرابة شهرين، قبل عيد الميلاد، طلب ديريك الزواج من «آن» وقبِلت.

قال ديريك: إن الأمور بدت وكأنها تسيرُ على ما يرام لبعض الوقت، ولكن بعد عامين بدأ كل شيءٍ ينهارُ نحو الهاوية. بدأت «آن» في السُّكر، وخيانته كلما أتيحت لها الفرصة. لم تدخل في علاقات، بل كانت مجرد سلسلة من اللقاءات الجنسية العارضة مع غرباء، ولم يهمُّها اكتشافُ ديريك من عدمه. كانت تحافظ على المظاهر في الأماكن العامة، ولكن عندما يكونان وحدهما تتغيَّر نبرتها- كانت تهينه وتذلُّه، وتصفه بالمجنون، والفاشل، وتوبِّخه على حياتهما البائسة، ولأنه لم يتمكَّن من كسبِ المزيد من المال. وتلومهُ على عدم تقديم حياة أكثر إثارة لها، كما هدَّدتهُ باستمرار بتركه.

- كانت عاهرة حقيقية، يا رجل! عندما أخبرتها أنني أريدُ أن أنجبَ أطفالًا، هل تعرف ماذا قالت؟ قالت: إنها لا تريدُ إنجاب أغبياء مثلي. هذا ما قالته للرجل الذي التقطها من موقف السيارات، وتزوَّجها. لماذا تحمَّلتُ كل ذلك؟ لأنني لم أملك خيارًا – كنتُ مهووسًا بها. كان بإمكانها فعل أي شيء، ولم أكُن لأتركها. في الواقع، اعتراني القلقُ دائمًا من أن تتركني من أجلِ أحمق ما. عندما أسيرُ في الشارع، كنت أشعر أن الجميع يسخرون مني. وعندما التقيتُ بالرفاق في المدينة، كنت دائمًا أتساءل إذا كانوا قد أقاموا علاقة معها. لكنني لم أستطع طردها.

لكن بعد فترة تغيَّر سلوكها، وأدركَ أن شيئًا ما قد حدث لها. بدأت «آن» ترتدي ملابس أفضل، وتضعُ المكياج. توقَّفت عن الشُّرب، وبدت أكثر سعادة من أيِّ وقتٍ مضى. وبدأت تتجاهلُ ديريك تمامًا. وكانت تعود إلى المنزل في وقت متأخر، وتخرج في الصباح الباكر، لذا بالكاد ما كانا يلتقيان، أو حتى يتحدثا. لم تكن حتى مهتمَّة بالشِّجار معه.

ولم يستغرق الأمرُ طويلًا حتى اكتشف ما كان يجري.

- سأختصرُ الأمر. تتبَّعتها، ورأيتها تدخل غرفة فندق مع رجل أكبر سنًّا. صدِّق أو لا تصدِّق، لم أقُل لها شيئًا عن ذلك. كنت أدعو أن يترُكها، وأن ينتهي الأمر فحسب. تذكَّرتُ كيف كان الأمرُ مريعًا عندما كنت وحيدًا قبل أن ألتقي بها.

- من الرجل؟

- جوزيف ويدر. كان غنيًّا، وقويًّا، وشهيرًا. ولم يكُن لديه شيءٌ أفضل ليفعله غير التورُّط مع زوجتي، وهي امرأة أصغر منه بنحو ثلاثينَ عامًا. لم أكتشف قط كيف التقيا بالتحديد. تردَّد العديد من الأساتذة، والطلاب من الجامعة على المقهى الذي عمِلَت فيه، لذلك ربما التقيا هناك. كنت مجنونًا قليلًا، هذا صحيح، لكن لستُ غبيًّا- كنت أعلم أن ويدر سيفعلُ كلَّ ما بوسعِهِ لتجنُّب التورُّط في فضيحة.

في الصباح الذي قُتِلت فيه زوجته، اتصل ديريك بالبروفيسور الذي عثرَ على رقمِ هاتفه من خلال البحثِ في أغراضِ آن. أخبره عن جريمة القتل، وأن الشرطة ربما ستحاولُ جعلهُ كبش فداء، بالنظر للظروف. وقال: إنه سيجرُّ ويدر إلى الفوضى، لأنه كان يعلمُ أنهما عاشقين. كما قال: إنه أودِعَ في مستشفى للأمراض النفسية منذ فترة طويلة، لذا

سيكونُ من السهل على ويدر ترتيب الأمر، وتشخيصه بالجنون، وإيداعه في مستشفى نفسي جنائي.

في النهاية قُبِضَ عليه، واتُّهم بقتلِ زوجته. تم إعلانه مجنونًا قانونًا، وأودع مستشفى ترنتون للأمراض النفسية. زاره ويدر عدَّة مرات، بذريعةِ أن لديه اهتمامًا مهنيًّا خاصًّا بحالته. ووعده أنه سيُنقل خلال ثلاثة أشهر إلى مستشفى مارلبورو، حيث الظروف أفضل بكثير. لكن قبل أن يحدثَ ذلك، تعرَّضَ سيمونز لهجوم من قبل أحد المرضى الآخرين في ترنتون.

- عندما أفقتُ من الغيبوبة، لم أتعرَّف على أحد، ولم أعرف حتى كيف انتهى بي الأمرُ في المستشفى. لم أستطع حتى تذكُّر اسمي. قاموا بإجراء جميع أنواع الاختبارات لي، وتوصَّلوا إلى أنني لم أكُن أختلقُ فقدان الذاكرة. لم أتذكر أي شيء حقًّا. وبالنسبة لي، أصبح ويدر طبيبًا ودودًا وحنونًا، تأثَّرَ بالوضع المأسوي الذي كنتُ فيه. أخبرني أنه سيعالجني مجانًا، وينقلني إلى مارلبورو. كنت مغلوبًا بطيبته.

بقيتُ في مارلبورو لبضعة أشهر دون استعادة ذاكرتي. بالتأكيد، بدأت أتعرَّفُ على بعضِ الأمور، من أكون، ومن هم والديَّ، وإلى أي مدرسة ثانوية ذهبت، أشياء من هذا القبيل. لم يكن أيٌّ منها جيدًا- موت أمي، والمستشفى النفسي، ووظيفة بائسة، وزوجة خائنة، وتهمة قتل. تخليتُ عن محاولةِ اكتشافِ المزيد. فالرجلُ الذي كنتُ عليه كان فاشلًا. قررت أن أبدأ من جديد عندما أخرج.

كان ويدر هو المسؤول عن اللجنة التي وافقت على إطلاق سراحي. ولم أملك مكانًا لأذهب إليه، لذلك وجد لي مكانًا للإقامة، ليس بعيدًا عن منزله، وأعطاني وظيفة كعامل صيانة في منزله. كان المنزلُ يبدو جيدًا،

لكنه قديم، ودائمًا ما احتاجَ إلى إصلاحات. لا أعرفُ ما إذا كنت تعرف هذا، ولكن في فقدان الذاكرة الرَّجعي، فإنَّك تنسى الأمور المتعلِّقة بهويتك فحسب، لكنك لا تنسى بقية الأشياء، والمهارات التي تمتلكها. لا تنسى كيفية ركوب الدراجة، لكنك لا تتذكَّر متى تعلَّمت ذلك، إذا كنت تفهمُ ما أعنيه. لذلك، كنت أعرف كيف أصلح الأشياء، لكنني لم أعرف متى تعلَّمتُ ذلك.

بالنسبة له، كان جوزيف ويدر قديسًا. تأكد من أنه يأخذ علاجه، ودفع لهُ راتبًا جيدًا كل شهر مقابل الإصلاحات التي كان يقومُ بها، وأخذه لصيد السمك، وكانا يقضيان المساء معًا مرة واحدة على الأقل في الأسبوع. وأخذه مرة واحدة إلى الجامعة، وقام بتنويمه مغناطيسيًّا، لكنهُ لم يُخبره بنتيجةِ الجلسة.

في أحد مساءات منتصف مارس عام 1987، كان ديريك في المنزل، يتنقَّلُ بين القنوات بحثًا عن فيلم ليشاهده. وبعد فترة، صادفَ خبرًا على قناة إن. واي. 1 عن رجلٍ من مقاطعة بيرجن انتحر. قال لنفسه عندما رأى صورةَ الرجل على الشاشة: إنهُ ستان ماريني. كان على وشك تغيير القناة عندما أدرك أن ستان كان أحد عُمَّال الصيانة عندما عمل ديريك في شركة سيمنز. تزوج ستان في نفس وقت زواجه تقريبًا، وانتقلَ إلى نيويورك.

فهم أيضًا ما يعنيه ذلك. كان يتذكَّرُ شيئًا لم يُخبره إياه أحد، ولم يقرأ عنه.

- كان الأمر يشبه ما يحدث هناك في تكساس عندما يعثرون على النفط، ويبدأ بالتدفُّق من الأرض. رُفع الغطاء عن كل تلك الأشياء المدفونة في ذهني، والآن، بوم! كل شيءٍ بدأ يطفو على السطح.

لا أستطيعُ حتى وصف الشعور، يا رجل. كان أشبه بمشاهدة فيلم بسرعة مئة مرة من السرعة العادية.

أراد الاتصال بالرجل الذي يعتبرهُ محسنًا له على الفور، لكنه قرَّر أنهُ قد تأخَّر الوقت لإزعاجه. كان خائفًا من أن ينسى كل شيء مرة أخرى، فوجد دفتر ملاحظاتٍ، وبدأ يكتب كل ما يخطر على باله.

وقف وسألني إن كنتُ أرغبُ في الخروجِ إلى الفناء الخلفي. وفضَّلتُ البقاء حيثُ كنت، لأنني لا أعرفُ إن كان يخفي سلاحًا في مكانٍ ما، لكنني لم أرغب في إزعاجه، لذلك تبعته. كان طوله مقاربًا لطولي، ولكنه أقوى بكثير. ففي حالة حدوث صراع، لن يكون لديَّ أي فرصة إلا إذا استخدمتُ السلاح الذي في جيبي. تساءلتُ لو لاحظ وجوده.

تبعته إلى الفناء الخلفي غير المرتب، حيث كانت هناك بقع من العشب تنبت على الأرض العارية، وقطع من الحجارة المكسورة، مع أرجوحة صدئة في المنتصف. أخذ نفسًا عميقًا من هواء الظهيرة الدافئ، وأشعل سيجارة أخرى، ثم تابع قصَّته دون النظر في عيني.

- تذكرتُ كل شيء، وكأنه حدث بالأمس: كيف التقيتُ آن، وكيف كان الأمر جيدًا في البداية، ثم بدأت تخونني، وكيف اكتشفت أنها على علاقة مع ذلك البروفيسور الجامعي اللعين، وكيف جعلتني أبدو أحمق، ثم ما حدث في ذلك الصباح، ثمَّ حديثي مع ويدر، واعتقالي، والوقت الصعب الذي قضيتُه في المستشفى. تفحَّصتُ ملصقات الأدوية التي وصفها لي ويدر، ثم ذهبت إلى الصيدلية، وسألتُ الصيدلي إن كانت للأدوية علاقة بفقدانِ الذاكرة. فأخبرني أنها لعلاج الإنفلونزا، وسوءِ الهضم. إذًا فالرجل الذي اعتقدتُ لسنوات أنه صديقي الذي يحسنُ إليَّ كان في الحقيقة مجرد حارس يخشى أن أتذكَّر يومًا ما حدث بالفعل. فأبقاني قريبًا منه

حتى يتمكَّن من مراقبتي، أتفهم ما أعنيه؟ يا رجل! شعرت وكأن رأسي ينفجر...

... لم أغادر المنزل لبضعة أيام، وعندما جاء ويدر، أخبرتهُ أنني أعاني صداعًا، وأريدُ النوم فحسب. كدتُ أشعر بالأسف، لأنني تخلصت من فقدان الذاكرة اللعين.

- هل شعر ويدر بشيء؟

- لا أعتقدُ ذلك. كان مشغولًا بأموره الخاصة. كنت بالنسبة له قطعة أثاث قديمة. في الواقع، أعتقد أنني أصبحت غير مرئي بالنسبة له. لم يعُد خائفًا من أن أقولَ أو أفعل شيئًا. أرادَ الذهاب إلى أوروبا.

- ثم قتلته.

- لطالما فكَّرتُ في قتله بعد أن استعدتُ ذاكرتي، لكنني لم أرغب في الذهاب إلى السجن، أو المصحة النفسية. وفي ذلك اليوم نسيتُ صندوق الأدوات الخاص بي في منزله. كنت قد أصلحتُ المرحاض في الطابق السفلي في وقتٍ سابق، وتناولنا الغداء معًا. وكان لديَّ عمل في صباح اليوم التالي بالقرب من المكان الذي أعيشُ فيه، فقررتُ الذهاب إلى منزل ويدر لأخذ صندوق الأدوات. وقبل أن أضغط الجرس، ذهبتُ إلى الفناء الخلفي، ورأيتُ أنَّ الأضواء في غرفة المعيشة مضاءة. وكان يجلس أمام الطاولة مع ذلك الطالب، فلين.

- هل رأيت الرجل الذي أخبرتك عنه، فرانك سبول؟

- لا، ولكن مما أخبرتني به، ربما كنتُ على بُعدِ خطوة واحدة من مواجهته. عُدتُ إلى أمام المنزل، فتحتُ الباب، ورأيت صندوق الأدوات بجانب رف المعاطف؛ ربما وجد ويدر الصندوق في

الحمام، وتركه لي هناك. فأخذته وغادرت. لم يدرك حتى إنني هناك. كانا يتحدَّثان في غرفةِ المعيشة...

... في طريقِ العودة إلى المنزل، قلتُ لنفسي: إذا حدث شيء، سيكون ذلك الرجل هو المشتبه فيه الرئيسي. إنهُ مغرم تمامًا بتلك الفتاة التي يلاحقها الرجل العجوز، لذا سيكون هذا هو الدافع.

ذهبتُ إلى الحانة قرابة الحادية عشرة مساءً، فقط لأُرى هناك، كذريعة. تحدَّثت إلى المالك، الذي يعرفني. وكان يستعدُّ للإغلاق. كنت أعلم أنه لا يرتدي ساعة، ولم يكن لديه ساعة على الحائط. وقبل أن أغادر، قلت: ‹مرحبًا، سيد! إنه منتصف الليل. من الأفضلِ أن أذهب. وعندما شهد، قال: إنه كان منتصف الليل، دون أن يتذكَّر أنني من أخبرتهُ بذلك، تفهم ما أعنيه؟

لم أعرف حينها ماذا سأفعل. كان الأمر مثل حلم؛ لا أعرف كيف أصفه. لم أكن متأكدًا مما إذا غادر الطالب أم لا، كان الطقسُ لا يزال سيئًا، وظننت أن ويدر ربما يدعوه للمبيت. كان لديَّ سلاح جلدي، وجدته قبل بضعة أشهر في صندوق تابلوه سيارة كنت أصلحها. لا أدري إذا تعاملت مع واحد من قبل، لكنه سلاح جيد جدًّا.

- كان لديَّ واحد في السبعينات.

- حسنا، ذهبت إلى هناك، وفتحت الباب الأمامي بهدوء ودخلت. كانت الأضواء لا تزالُ مضاءة في الغرفة، وعندما دخلت رأيته ملقًى على الأرض، والدم في كل مكان. بدا في حالة سيئة: وجههُ محطَّم، منتفخ، ومُزرق. والنوافذ مفتوحة على مصراعيها. فأغلقتها، وأطفأتُ جميع الأنوار. كنت قد أحضرتُ مصباحًا يدويًّا معي.

التفت نحوي.

- كنت متأكدًا أن فلين هو من فعلها. اعتقدت أنهما قد تشاجرا بعد مغادرتي، ودخلا في قتال. عندما تضربُ شخصًا بهذه الطريقة، فهذا يعني أنك مستعد للمخاطرة بقتله، أليس كذلك؟ ضربة ثقيلة واحدة، وبوم! النهاية!

لم أكن أعرف ماذا أفعل بحق الجحيم. كان ضربُ الرجل -الذي جعلني أضحوكة، وتظاهر بأنه صديقي بعد أن خانني مع زوجتي، وأودعني في مستشفى للأمراض العقلية، فقط ليخرجني من هناك، ويصيرُ هو سجّاني- شيئًا، وأن أضرب شخصًا ملقى على الأرض، ميِّت أكثر منه حي شيئًا آخر.

أتعرفُ، ربما فكَّرتُ في المغادرة وتركِهِ هناك، أو استدعاء سيارة إسعاف، من يدري... ولكن في تلك اللحظة، بينما كنت منحنيًا فوقه، مع إضاءة المصباح بجواري، فتح عينيهِ، ونظرَ إليَّ من الأرض. ورأيتُ عينيه، وتذكَّرتُ كيف تبعتهُ تلك الليلة حين دخلت آن إلى غرفةِ الفندق، وكيف صعدتُ السلالم، ووضعتُ أذني على الباب، كالأحمق. كما لو أنني لا أعرف بالفعل ما يجري في الداخل، كان عليَّ أن أذهب، وأستمع إليها وهي تخونني. تذكَّرتُ تلك العاهرة، التي كانت تسخرُ مني، وتطلق عليَّ ألقابًا مثل «العاجز»، بعد أن أنقذتُها من حياةِ الشارع.

وهكذا كان الأمر، يا رجل! أخرجتُ السلاح، وضربتهُ مرة واحدة بقوة.

أغلقتُ الباب، ورميتُ السلاح في البحيرة، وذهبتُ إلى المنزل. وقبل أن أنام، فكَّرتُ في ويدر ملقى هناك، ميتًا، مغطًّى بالدم، ولأصدقك القول، شعرتُ بشعورٍ جيد. لم أشعر بالندم على الإطلاق بشأنِ ما فعلته، أو بالأحرى بشأنِ إنهاء ما بدؤهُ شخص آخر. عُدتُ إلى المنزل في الصباح، والباقي تعرفه. لم أكتشف أن فلين لم يكن هو الذي ضربه حتى جئت هنا قبل بضعةِ أيام. لم أفكر في الأمر كثيرًا على أي حال، حتى جاء ذلك

الصحفي إلى هنا. بالنسبةِ لي، كانت المسألة ميتة ومدفونة. وهذا كل شيء يا رجل!

- توفي ويدر بعد ساعتين، هذا ما قاله الطبيب الشرعي على الأقل. كان بإمكانك إنقاذه لو استدعيتَ سيارة إسعاف.

- أعلمُ ما قالوه، لكنني ما زلت متأكدًا أنه توفي في الحال. على أي حال، لم يعد الأمرُ مهمًّا.

- قبل مغادرتك المنزل، هل فتحت الأدراج، ونثرتَ بعضَ الأوراق على الأرض، في محاولةٍ للإيحاء بسرقة؟

- لا يا رجل! لقد غادرتُ فحسب.

- هل أنت متأكد؟

- أجل، أنا متأكد تمامًا.

تساءلتُ للحظة إذا كان عليَّ المتابعة.

- تعرف ديريك! كنت أفكِّر... لم تكتشف قط من قتلَ زوجتك تلك الليلة...

- هذا صحيح، لم أكتشف.

مكتبة
t.me/soramnqraa

- ولم يزعجك ذلك؟

- ربما أزعجني. وماذا في ذلك؟

- حب حياتك ملقاة على الأرض في بركةٍ من الدم، وأوَّل شيءٍ فعلته هو الاتصال بعشيقها، وطلب المساعدة. اتصلت برقمِ الطوارئ بعد ثماني دقائق من حديثك مع ويدر. غريب جدًّا، أليس كذلك؟ من باب الفضول: هل صدَّقك حقًّا البروفيسور؟ هل ناقشت معه، وجهًا لوجه، موضوع القتل؟

أخرج علبة سجائره من جيبه، ورأى أنها فارغة. فقال مشيرًا إلى الشرفة الزجاجية: «لدي واحدة أخرى في مكانٍ ما في الورشة».

قلت: «آملُ أنك لا تفكِّر في فعل أي تصرُّف غبي».

فنظر إليَّ في دهشة.

قال وبدأ يضحك: «أوه، تعني... ألا تعتقدُ أننا كبار جدًّا على لعبة رعاة البقر؟ لا توجد أسلحة هنا، لا تقلق. لم أُمسك سلاحًا في حياتي».

حين دخل إلى الورشة، وضعتُ يدي اليمنى في جيبي، وأطلقتُ ببطء قفل الأمان بإبهامي. ثم قمتُ بتحضيره، وأبقيته مشدودًا في يدي. لقد كنتُ شرطيًّا لأكثر من أربعين عامًا، لكنني لم أضطر يومًا لإطلاق النار على أحد.

عبر الزجاج المتسخ، رأيتهُ يبحث على طاولة العمل، المبعثرة بكل أنواع الأغراض. ثم انحنى وبحث داخل صندوق. وعاد بعد لحظات يحملُ علبة سجائر كاميل بين إصبعي السبابة، والإبهام ليده اليُمنى.

- أترى؟ يمكنك إخراجُ يدكَ من جيبك. معك سلاحٌ في الداخل، أليس كذلك؟

- بلى، معي.

أشعل سيجارة، ووضع العُلبة في جيبه، ورمقني بنظرة متسائلة.

- ماذا الآن؟ آملُ أنك تُدرك أنني لن أكرِّر كل هذا لشرطي. أعني شرطي حقيقي.

- أعلم أنك لن تفعل.

- لكنك تعتقدُ أنني قتلتُ آن، أليس كذلك؟

- أجل، أعتقدُ أنك قتلتها. فتش المحققون في ماضيها في ذلك الوقت، بحثًا عن أدلة محتملة. لقد قرأتُ التقرير. لم تكن مومسًا،

يا ديريك! عملت كنادلة في أتلانتيك سيتي لمدة عامين تقريبًا، قبل أن تلتقيك، في مكانٍ يُسمى كافيه روبي. وُصفت من قِبل الجميع بأنها سيدة شابة لطيفة، محترمة، وذكية. ربما كان كل ذلك في رأسك- أعني الأشرار الذين يطلبونَ منكَ المال، وماضيها المضطرب، وخيانتها لك مع الكثير من الرجال والسخرية منك من ورائك. لم يكن حقيقيًّا، يا رجل، لقد اخترعتَ كل ذلك. لست متأكدًا حتى من أنها كانت متورِّطة في علاقة حب مع البروفيسور. ربما طلبت منهُ المساعدة فحسب. عندما استعدتَ ذاكرتك، استعدتَ كوابيسكَ أيضًا، أليس كذلك؟

نظر إلى عينيَّ مباشرةً، ومرَّرَ طرف لسانهِ ببطء على شفته السفلى.

- أعتقدُ أنه من الأفضلِ أن تذهب يا رجل! ليس من شأني اللعين ما تؤمنُ به أو لا. عليَّ إنهاءُ التعبئة.

- حان وقتُ اللعب، ديريك! أليس كذلك؟

وجه إصبع السبابة من يده اليسرى نحوي، وثنى إبهامه ليجسِّد شكل مسدس.

- كنت ذكيًّا حقًّا بذلك، أعني ما أقول.

أشار نحو الباب الأمامي.

- ديريك، متى ذهبت ليونورا إلى لويزيانا؟

- قبل نحو أسبوعين. لماذا تسأل؟

- بلا سبب. اعتنِ بنفسك.

شعرت بعينيه تراقبانني طوال الطريق نحو الزاوية، حيثُ التفتُّ مبتعدًا عن أنظاره. لم يبدُ أن ديريك يعرفُ أن الأمور تُنجَزُ دونَ أسلاك هذه الأيام. كل ما تحتاجه هو قلمٌ خاص في جيبِ صدرك.

بعد بضع دقائق، وبينما أخرُج من شارع ويذرسبون بسيارتي، سمعتُ صفَّارات الشرطة. تذكرتُ أنه في وثيقة تتعلَّق بسيمونز، وجدتُ ادِّعاءً أن والدهُ انتقلَ إلى ولاية أخرى منذ سنواتٍ واختفى. تساءلتُ عمَّا إذا كان أيُّ شخص قد تحقَّق من تلك القصة في ذلك الوقت. لقد أخبرني أنه نُوِّم مغناطيسيًّا من قِبَل ويدر في مرحلة ما. هل اكتشف البروفيسور ما كان مريضه قادرًا عليه حقًّا؟ كيف يمكنه أن يسلِّم مفاتيح منزله لشخصٍ مثل ذلك؟ أم أنه كان واثقًا أن فقدان الذاكرة لديه لا يمكنُ علاجه، وأن سيمونز سيظلُّ قنبلة دون مُفجِّر إلى الأبد؟ لكن المُفجِّر كان موجودًا طوال الوقت.

في الطريق إلى المطار، تذكَّرتُ عنوانَ كتابِ فلين، ومتاهة المرايا المشوَّهة التي كانت موجودة في الكرنفالات عندما كنت طفلًا– كل ما تراهُ عند دخولك صحيح وخطأ في الوقت نفسه.

بدأت السماءُ تُظلم عندما أصبحت على الطريق السريع.

بدأتُ أفكِّر في رؤية ديانا مرة أخرى، وما سينتُج عن ذلك في النهاية. كنت متوترًا كما لو أنني ذاهبٌ في موعدي الأول. تذكرتُ المسدس– فأخرجتهُ من جيبي، وفعَّلتُ الأمان، وخبَّأتهُ في صندوقِ التابلوه. في النهاية، لقد أنهيتُ حياتي كشرطي دون الحاجةِ لتوجيه سلاح نحو أيِّ شخص، وقلتُ لنفسي: إنه من الجيد انتهاء الأمور على هذا النحو.

كنتُ أعلم أنني سأنسى كُل ما يتعلَّق بهذه القضية، تمامًا كما سأنسى القصص الأخرى التي تشكِّل حياتي، قصص ربما ليست أفضل، ولا أسوأ من أيِّ شخصٍ آخر. فكَّرت أنه إذا كان عليَّ اختيارُ واحدة فقط من ذكرياتي، قصَّة سأذكرها حتى النهاية، وذكرى لن يتمكَّنَ السيد أل من أخذها مني، فإنني سأحبُّ تذكُّر هذه الرحلة الساكنة، والهادئة، والعامرة

بالأمل في طريقي إلى المطار، حين كُنتُ أعلم أنني سأرى ديانا مرة أخرى، وربما تقرِّر البقاء.

رأيتُها قادمة عبر المخرج، ولاحظتُ أنها تحملُ حقيبة صغيرة واحدة فقط، من نوع حقائبِ اليد التي تأخُذها في رحلة قصيرة جدًّا. لوَّحتُ لها، ولوَّحت لي. وبعد ثوانٍ قليلة، التقينا بجوارِ كشكِ الكتب، وقبَّلتُها على الخد. كان لونُ شعرها مختلفًا، وتضعُ عطرًا جديدًا، ومعطفًا لم أرهُ من قبل، لكن ابتسامتها لي ظلَّت كما هي دائمًا.

سألتها، وأنا آخُذ حقيبتها: «هل هذا كل ما جلبته؟».

- لقد استأجرتُ شاحنة لجلبِ أغراضي الأخرى الأسبوعَ المُقبل. سأبقى لبعضِ الوقت، لذا من الأفضل أن تُخبِر فتاتك الشابة تلك أن ترحل، وبسرعة.

- هل تتحدثينَ عن ميني ماوس؟ تركتني، يا دي! أعتقدُ أنها ما زالت تحب ذلكَ الرجل ميكي.

مشى كلٌّ منا مُمسكًا بيدِ الآخر نحو موقفِ السيارات، ثم ركبنا السيارة، وغادرنا المطارِ. أخبرتني عن ابننا، وزوجته، وحفيدتنا. وفي أثناء استماعي لصوتِها بينما أقود، شعرتُ بأن كلَّ ذكريات قصة الجريمة التي سيطرت عليَّ خلال الأشهر القليلة الماضية تتقشَّرُ واحدة تلوَ الأخرى، وترفرفُ بعيدًا عن نظري على الطريقِ السريع، مثل صفحاتِ مخطوطة قديمة تحملُها الرياح.

الخاتمة

أثارت قصة ديريك ضجة كبيرة لدرجةِ أن دوائرها وصلت إلى بلدة صغيرة في ألاباما. واتَّصلت بي دانا أولسن بعد بضعةِ أيام، بينما كنتُ في طريقي إلى لوس أنجلوس للقاءِ منتج تلفزيوني. كان لديَّ أيضًا لقاءٌ مع جون كيلر، الذي انتقلَ مؤخرًا إلى الساحلِ الغربي، واستأجرَ منزلًا في مقاطعة أورانج، كاليفورنيا.

قالت: «مرحبًا، بيتر، أنا دانا أولسن. هل تذكرني؟».

أخبرتها أنني أتذكَّرها وتبادلنا بضع كلمات قبل أن تصل إلى لبِّ الموضوع.

- لقد كذبتُ عليك في ذلك الوقت، يا بيتر. لقد كنتُ أعلم أين بقية المخطوطة، قرأتُها قبل وفاة ريتشارد، لكنني لم أرغب في إعطائها لك، أو لأيِّ شخصٍ آخر. كنتُ غاضبة. عند قراءتي لها، أدركتُ كم أحبَّ ريتشارد تلك المرأة، لورا باينز. حتى لو بدا غاضبًا منها، ليس في ذهني أيُّ شك أنهُ توفيَ وهو يحبُّها. لم يكن من الصدق منهُ فعلُ ذلك. شعرتُ وكأنني حصانٌ قديم يحتفظُ به فقط؛ لأنه لا يعرف ماذا يفعل غيرَ ذلك. لقد اعتنيتُ به، وتحمَّلتُ كل غرابة

أطواره، وصدِّقني، كان غريب الأطوار للغاية. لقد استنفد الأشهر الأخيرة من حياتِهِ في كتابةِ ذلكَ الكتاب، بينما أنا هناك بجانبه. شعرتُ بالخيانة.

كنت في مكان ما في شارع روزوود، في ويست هوليوود، أمام المطعم الذي من المفترض أن ألتقي فيه الرجلَ.

قلت: «سيدة أولسن، نظرًا للظروف الأخيرة، أعني اعتقال سيمونز، لا أعتقد أنَّ...».

قالت، لتوضِّح الأمور: «لا أتصل بك بعرض تجاري، كنتُ أتوقَّع أنَّ المخطوطة لم تعُد تهمُّكَ كثيرًا كوكيل. لكن على أي حال، كانت آخر رغبة لريتشارد هي نشرُ مخطوطته. بغض النظر عن القصة مع باينز، تعرفُ كم أرادَ أن يكونَ كاتبًا، وأعتقدُ أنه كان سيفرحُ كثيرًا لو قبِلتَ مشروعه. للأسف، لم يعِش ليشهدَ ذلك. لكنني الآن أدرك أنه من الجيد إرسالُها إليك على أي حال».

لم أعرف ماذا أقول. كان من الواضحِ أنني لن أتعاملَ مع قصة جريمة حقيقية، حيثُ إن الفرضيَّة، ونظريةُ فلين بالكامل، قد فُجِّرت من أساسها من خلالِ الأحداثِ الأخيرة، والتي أثبتت أن خيال المؤلِّف قد جمَّل الأحداث الحقيقية. كان جون كيلر أجرى محادثة هاتفية طويلة مع روي فريمان، المحقِّق المتقاعد الذي أصبحَ نجمًا إعلاميًّا؛ «المحقق السابق يحلُّ لغز جريمة قتل عمرها ثمانية وعشرون عامًا»، وانتقل مؤقتًا إلى منزل طليقته في سياتل للابتعادِ عن الصحفيين. وأرسلَ لي جون بريدًا إلكترونيًّا شرح فيه بإيجاز أنه لم يعد هناك أيُّ لُغزٍ في القصة على الإطلاق.

لكن لم أستطع أن أقول هذا لها، لأنها كانت تعلمُ ذلك جيدًا.

قلت، ملوِّحًا إلى المنتج الذي يسيرُ نحو المطعم، ووجهه شبه مخفيٍّ تمامًا وراء نظارات شمسية خضراء ضخمة جعلتهُ يبدو كصرصورٍ عملاق: «سيكونُ رائعًا إذا تمكَّنتُ من إلقاءِ نظرة عليها. لا يزالُ لديكِ عنوانُ بريدي الإلكتروني، أليس كذلك؟ سأعودُ إلى المنزلِ غدًا، وسأجدُ الوقت لقراءتها».

رآني المنتج، لكنه لم يكلِّف نفسه عناء إطالة خطواته، أو الرد بالتحية. بدا هادئًا، وغيرَ مبالٍ، وهو سلوك كان يعني التأكيد على أهميته.

أكدت لي السيدة -أولسن- أن لديها عنوان بريدي الإلكتروني، وأنها سترسلُ إليَّ المخطوطة على الفور.

- كانت الأسابيعُ الأخيرة صعبة عليه، يا بيتر! وأعتقدُ أن ذلك يظهرُ في الفصولِ الأخيرة من المخطوطة. هناك أمورٌ في الداخل... لكن على أيِّ حال، سترى كل شيء.

في ذاك المساء، التقيتُ جون كيلر، والذي جاءَ ليأخذني من أمام الفندق. كان لديه سُمرة تناسبه، ولحيةُ أسبوعين.

تناولنا العشاء معًا في مطعم ياباني يُدعى -شوجارفيش- في الشارع السابع الغربي، وقد أخبرني جون أنه أحدث مكان عصري، حيث حجز لنا طاولة. أتى النُّدُل كل خمس دقائق، وقدَّموا لنا أطباقًا مختلفة، لم أستطع تحديد محتويات أي منها.

تعجَّب عندما أخبرته عن محادثتي مع دانا أولسن: «يا لهُ من أمر! فكِّر في الموضوع! لو أعطتكَ المخطوطة في ذلك الوقت، لما أدمنت القصة، ولم أكُن لأبحثَ عن فريمان، وهو لم يكن ليُخرج تلك الملفات القديمة. وربما لم نكُن لنكتشف قط الحقيقة عن الجريمة».

قلت: «من جهة أخرى، كان سيكونُ لديَّ كتابٌ لأبيعه».

- كتاب غير حقيقي.
- من سيهتمُّ بذلك؟ هل تعرف شيئًا؟ كان ريتشارد فلين غير محظوظ حتى النهاية. حتى بعد وفاته، فقدَ فرصته في نشر كتاب.

قال، رافعًا كوب الساكي الصغير: «هذه طريقة أخرى للنظر إلى الأمر. إلى ريتشارد فلين، الرجل سيئ الحظ».

أهدينا نخبًا لذكرى فلين، ثم أخبرني بحماس عن حياتِهِ الجديدة وكم هو سعيد بالعملِ في التلفزيون. كانت الحلقة التجريبية من السلسلة التي شارك في كتابتها قد حصلت على تقييم جيد، لذا فإنه يتطلَّعُ إلى الاستمرار على الأقل لموسمٍ آخر.

شعرتُ بالسعادة من أجله.

لم أقرأ المخطوطةَ بعد. وجدتُها في صندوق الوارد الخاص بي بعد عودتي إلى نيويورك. طبعتُ جميع الصفحاتِ الــ 248، بخط «تايمز نيو رومان» بحجم 12، بمسافة مزدوجة، ووضعتُها في ملفٍّ فوقَ مكتبي. احتفظتُ بها هناك، مثلما احتفظَ الرهبان في العصور الوسطى بجماجم بشرية كتذكير بأن الحياة قصيرة وزائلة، وأن الحساب يأتي بعد الموت.

من المحتمل أن ريتشارد فلين كان مخطئًا حتى النهاية. ومن المحتمل أن لورا باينز سرقت مخطوطةَ البروفيسور، وتركتهُ يموتُ على الأرض، لكنها لم تكن عشيقته. أخطأ ديريك سيمونز حين ظنَّ أن ريتشارد فلين قد هربَ من خلالِ البابِ الزجاجي بعد ضربِ ويدر. وأخطأ جوزيف ويدر بشأنِ وجود علاقة بين لورا باينز وريتشارد فلين. لقد أخطأ الجميع، ولم يروا شيئًا سوى هوسهم الخاص من خلال النوافذ التي حاولوا التحديقَ خلالها، والتي اتضح أنها في الحقيقة كانت مرايا طوالَ الوقت.

قال كاتبٌ فرنسيٌّ عظيم ذات مرة: «إن تذكُّر الأشياء الماضية لا يعني بالضرورةِ تذكُّرها كما كانت. أعتقدُ أنه مُحِق».

شكر وتقدير

أودُ أن أعبِّر عن امتناني لكلٍّ من ساعدني في هذا الكتاب.

وكيلتي الأدبية، ماريليا سافيديس من شركة بيترز، فريزر+ دُنلوب، لم تكتفِ بسحبِ قصَّتي من كومةِ المخطوطات المرفوضة في الوقتِ المناسب، بل ساعدتني أيضًا في تنقيحِ المخطوطة مرة أخرى، وقد قامت بعمل رائع. شكرًا على كل شيء، ماريليا.

فرانشيسكا باثاك من سنتشري، وميغان ريد من كتب إميلي بيستلر حرَّرتا النص، وكانت العملية تسيرُ بسلاسة وسرور. كان العمل معهما شرفًا كبيرًا. أنا ممتن أيضًا للفرق الرائعة في بينغوين راندوم هاوس المملكة المتحدة، وسايمون، وشوستر الولايات المتحدة. فرانشيسكا، وميغان، أشكركما أيضًا على جميع اقتراحاتكما الحكيمة، فقد أغنت المخطوطة، وجعلتها تتألق.

راشيل ميلز، وألكسندرا كليف، وبيكا، ويرموث باعوا الكتاب في جميع أنحاء العالم خلال بضعة أسابيع فحسب، وكانت تلك الفترة حفلة لا تُنسى بالنسبة لنا جميعًا! شكرًا يا فتيات.

ساعدني صديقي الرائع أليستير إيان بلايث على الإبحار في المياه العاصفة للغة الإنجليزية دون أن أُغرِقَ نفسي، ولم يكن ذلك مهمة سهلة. شكرًا، يا رجل.

لقد احتفظتُ بأهم شخص حتى النهاية: زوجتي، ميهايلا، التي أُهدي إليها هذا الكتاب في الواقع. لولا ثقتها بي، لتركتُ الأدب منذ زمن طويل. لقد ذكَّرتني دائمًا من أنا، وإلى أيٍّ عالمٍ أنتمي حقًّا.

وأخيرًا، أوجِّهُ شكري لك، القارئ، الذي اخترتَ هذا الكتاب من بينِ العديد من الكتب الأخرى. كما قال شيشرون: «الأطفال لم يعودوا يطيعونَ والديهم، والآن الجميعُ يكتب كُتُبًا».

ملاحظة من المؤلف

عزيزي القارئ!

ولدت في عائلة من أصول رومانية، وهولندية، وألمانية، وترعرعت في فاجارش، وهي بلدة صغيرة في جنوب ترانسيلفانيا، في رومانيا. لقد كتبت القصص منذ أن كنت في العاشرة من عمري، رغم أنني قمت بالعديد من الأشياء المختلفة قبل أن أقرر، قبل ثلاث سنوات، أن أضع قبعتي في النهر، وأصبحَ كاتبًا بدوامٍ كامل.

نشرتُ أول قصة قصيرة لي في عام 1989، وروايتي الأولى، «المجزرة»، بعدها بعامين. كانت ناجحة للغاية في ذلك الوقت، حيثُ بيعت أكثر من 100,000 نسخة في أقل من عام. تلتها بعد بضعة أشهر رواية أخرى حققت مبيعات كبيرة، وهي «كوماندو للجنرال»، وهي إثارة سياسية تدور أحداثها في إيطاليا. ونشرت خمسة عشر كتابًا في رومانيا قبل أن أغادر البلاد، وأستقرَّ في الخارج قبل أربع سنوات.

مع هذه الرواية، الأولى التي أكتبها باللغة الإنجليزية، كتبت المسودة الأولى بين فبراير ومايو 2014. وقمتُ بتنقيح المخطوطة أربع، أو خمس مرات قبل أن أرسلها إلى عشرة وكلاء أدبيين، رفضوها دون إخباري بالسبب. قمت بتنقيحها مرتين أخريين، وقررت بيعها إلى دار نشر صغيرة.

روبرت بيت، مؤسس ومدير دار هولندا هاوس في نيو بوري، رد بسرعة كبيرة، وأخبرني أنه أحب كتابي، لكنه قال: إنه يجب علينا الاجتماع، والتحدث قبل العمل على صفقة. التقينا بعد أسبوعين، وأخبرني في أثناء تناول فنجان من القهوة أن الكتاب ربما يكون أفضل من أن تنشره دار نشره - لم يستطع تحمُّل دفع سلفة، والتوزيع لن يكون مدهشًا، وهكذا. تساءلتُ عما إذا كان يسخرُ مني. سألني لماذا لم أرسل المخطوطة إلى وكلاء أدبيين. أخبرتهُ أنني فعلت، لكنها رُفِضت عدة مرات. أقنعني أن أحاولَ مرةً أخرى.

كان ذلك يوم الخميس. وفي اليوم التالي، أرسلتُ المخطوطة إلى ثلاثة وكلاء بريطانيين آخرين، وكان أحدهم ماريليا سافيديس من شركة بيترز، فريزر ودنلوب. طلبت المخطوطة كاملة بعد يومين، وعرضت تمثيلي عبر الهاتف بعد ثلاثة أيام.

التقيتُ ماريليا، وأخبرتني أن المشروع سيحقِّق ضجة. حسنًا، كنت أشعر بالسعادة، لكنني كنت لا أزال متشككًا. لكنها كانت محقَّة، وأقل من أسبوع، وتلقينا

عروضًا استثنائية من أكثر من عشرِ دول. الآن، لم أعد شكاكًا، بل شعرتُ بالخوف قليلًا، لأن كل شيء كان يحدث بسرعة كبيرة. باركك الرب، روبرت بيت! لصدقك، ولطفك. لقد بيعت المخطوطة في أكثر من ثلاثين دولة حتى الآن.

بدأت فكرة هذا الكتاب تتشكَّل قبل ثلاث سنوات، خلال حديث عابر مع والدتي، وأخي الأكبر، الذي زارني في ريدنج، حيث كنت أعيش في ذلك الوقت. أخبرتهم أنني أتذكَّر جنازة لاعب كرة قدم محلي، توفي في حادث سيارة وهو في سن صغيرة عندما كنتُ طفلًا. قالوا: إنني كنت مجرد طفل صغير في ذلك الوقت، لذلك لا يمكنني أن أكون هناك، معهم، في المقبرة. واصلتُ الحديث، قائلًا: إنني أستطيعُ أن أتذكر حتى أن التابوت كان مفتوحًا، وكان هناك كرة قدم موضوعة على صدر المتوفي. قالوا إن هذه التفاصيل صحيحة، ولكن ربما سمعتها منهم، أو من والدي، بعد أن حضروا الجنازةَ معًا. وأضافت والدتي: «لكن بالتأكيد لم تكن هناك معنا».

كانت مجرد قصة سخيفة عن قدرة العقل البشري الهائلة على تجميل، وتزييف ذكرياته، لكنها غرست بذور روايتي. ماذا لو أننا نسينا حقًّا ما حدث في مرحلة ما، وخلقنا ذاكرة مزيفة عن حدثٍ ما؟ ماذا لو كان خيالنا قادرًا على تحويل ما يسمى بالواقع الموضوعي إلى شيء آخر، إلى واقعنا الخاص المنفصل؟ ماذا لو أن شخصًا ما ليس مجرد كاذب، بل أنَّ عقله قادر على إعادة كتابة

حدث معين، مثل كاتب سيناريو، ومخرج في آنٍ واحد؟ حسنًا، هذا ما تدور حولهُ رواية «كتاب المرايا»، باستثناء أنه يتناول جريمة قتل ارتكبت في جامعة برينستون في أواخر الثمانينات.

أود أن أقول: إن كتابي ليس عن «من قتل من؟ بل عن «لماذا حدث ذلك؟»». لقد اعتقدت دائمًا أنه بعد ثلاثمائة صفحة يجب أن يحصل القرَّاء على شيء أكثر من مجرد اكتشاف من قتل توم أو ديك، أو هاري، بغضِّ النظر عن مدى تعقيد، وتشويق التحوُّلات. كما اعتقدتُ دائمًا أنه يجبُ على المؤلف أن يسعى لاكتشافِ ذلك المكانِ السحري من القصص التي تتميَّز بحِس قوي بالغموض، ولكن مع ميل أدبي حقيقي في الوقت نفسه.

إي. أو. تشيروفيتش

مكتبة
t.me/soramnqraa

كتاب المرايا

جريمة قتل وحشية..

مرَّ ثلاثون عامًا منذ وقت العثور على البروفيسور ويدر غارقًا في دمائه داخل منزله الفخم. لم تكُن الأدلة المتوفِرة حينها تكفي لإدانة أيٍّ من المشتبه فيهم. لذا لم تُحَل القضية قط.

ولغزٌ دفين..

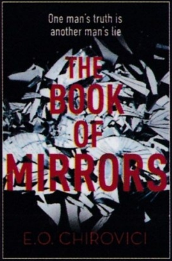

الآن، اكتُشِفت مخطوطة جزئية تسرد بعض الأحداث وتكشف عن وجود ثلاثة أشخاص في منزل البروفيسور ليلةَ الجريمة.

كلٌّ منهم يتذكر ما حدث بوضوح.

لكن أحدهم كان بالتأكيد يكذب...

مكتبة
t.me/soramnqraa

غلاف: محمود هشام

9 789779 924632

عصير الكتب

www.aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb